سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ صالح الفوزان (٥١)

دروس وفتاوى المسجد الحرام

لمعالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء
وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه
د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الأول

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

التراث الذهبي
الرياض

دروس وفتاوى المسجد الحرام

دروس وفتاوى
المسجد الحرام

الجزء الأول

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان، صالح بن فوزان

دروس وفتاوى المسجد الحرام ١-٦. / صالح بن فوزان الفوزان؛ سلمان جابر المجلهم - ط١. .- الرياض، ١٤٤٥هـ

٦ مج

رقم الإيداع: ١٠١٤٩ / ١٤٤٥

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٢١٢٥-١-٥ (مجموعة)

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٢١٢٥-٢-٢ (ج ١)

الطَّبْعَة الأُولَى
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م)

الإمام الذهبي

مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

الفرع الرئيسي: حولي - شارع المثنى - مجمع البدري - ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦

فرع المصاحف: ت ٢٢٦١٥٠٤٦ - فرع الجهراء: الناصر مول: تلفون: ٩٥٥٥٨٦٠٨

فرع الفحيحيل: البرج الأخضر - شارع الدبوس - تلفون: ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧

فرع الرياض: المملكة العربية السعودية التراث الذهبي - جوال ٠٠٩٦٦٥٥٧٧٦٥١٣٨

الخط الساخن: جـوال: ٠٠٩٦٥٩٤٤٠٥٥٥٩

z.zahby74@yahoo.com imamzahby

دروس وفتاوى المسجد الحرام

لمعالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الأول

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه، وبعد:

فقد أذنت لابننا وتلميذنا فضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم، بطباعة: **دروس وفتاوى المسجد الحرام.**

رجاء أن ينفع الله به، ويكتب لي وله الأجر.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه: د. صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة

١٤/١٢/١٤٤٠هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، **أما بعد:**

فإنني أحمد الله الكريم على نعمة الإسلام والهداية، وأسأله الثبات عليه حتى ألقاه، وهو غافر لذنوبي وخطاياي وآثامي وتقصيري، وهزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي.

وإن من نعمة الله الكريم أن يسر لي جمع مواعظ وكلمات ودروس وفتاوى المسجد الحرام بمكة المكرمة في أعظم أرض وبقعة، عند بيت الله الكعبة قبلة المسلمين في كل زمان ومكان -زادها الله تشريفًا وتعظيمًا-، لشيخنا صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ صالح بن فوزان الفوزان -أثابه الله عَزَّوَجَلَّ-، ألقاها فضيلته في مناسبات مختلفة وأوقات متفرقة، في مواضيع متعددة ومتنوعة، في العقيدة والفقه وشرح لبعض الآيات والأحاديث النبوية والمواضيع الشرعية، التي هي في غاية الأهمية للمسلم، الذي جعل الوحي منهاجًا له، وطريقة يتعبد الله بها على سنة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، يقطع بها دار الاختبار والابتلاء، دار الدنيا المؤقتة، نسأل الله أن نكون من أهل النجاة والفوز والرحمة في الدنيا والآخرة.

وإن مما يشار إليه أن إعداد هذا الكتاب وطباعته وتهيئته وريعه، والعائد من بيعه، وكل ما بذل فيه إنما هو وقف لله جَلَّوَعَلَا، على نفقة الشيخ مساعد بن علي الشايجي، والشيخ محمد بن أحمد الفرحان، وزوجته الكريمة، تقبل الله منا

ومنهم، وأحسن لنا الختام والوفادة عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا ورسولنا النبي الأمين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه

د. سَلْمَان جَابِر عُثْمَان المُجَلْهِم السُّوَيْلِم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ: **يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟** قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.** قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: **لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»(١).

هذا حديث عظيم، معاذ بن جبل الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من علماء الصحابة وأجلائهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومن شباب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين نهلوا العلم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك خصه بهذا الحديث لأهليته لتحمله وتبليغه للناس.

وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: فيه تواضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو أفضل الخلق، ومع هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).
وفي رواية عند البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢): «فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا».
وجاء في فتح المجيد (ص٢٨) قال الوزير أبو المظفر: (لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة).

يركب الحمار كغيره من الناس، هذا تواضعه ﷺ، وأيضًا يردف معه من أصحابه من يركب معه، هذا من باب التواضع، ولا يختص بمركوب دون غيره.

وفيه جواز الإرداف على الدابة إذا كانت تطيق ذلك، وقوله ﷺ: «**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ**»، هذا فيه التعليم بواسطة السؤال والجواب؛ لأنه يكون أبلغ وأثبت في الذهن مما لو أنه ألقى إليه العلم بدون سؤال، سأله أولًا من أجل أن يتطلع إلى الجواب، فيكون ذلك أثبت في الذهن.

وطريقة التعليم بالسؤال والجواب طريقة معروفة عند أهل العلم، ولها عناية وأهمية كبيرة.

«**هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ على عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**»، هذا فيه أن المسؤول إذا لم يكن عنده علم، ولم يكن عنده جواب أنه يسند العلم إلى عالمه، ولا يخوض أو يتخرص وهو ليس عنده جواب، بل يقول: الله ورسوله أعلم، ويتوقف عن الإجابة وهو لا يدري، وهذا شيء يغفل عنه كثير من المتعلمين، فإنهم إذا سئلوا، بادروا إلى الإجابة، وأكثرهم ليس عنده علم، وإنما يتخرص فيقول على الله بغير علم، وهذا خطر عظيم.

الإنسان في عافية، إذا سئل في المسائل الشرعية، إن كان عنده جواب يطمئن إليه، وهو جواب صحيح، فإنه يجيب، وإن كان أنه ليس عنده جواب، فهو يتوقف، ولا يتسرع في الفتوى أو الإجابة، فهذا فيه أدب طالب العلم، وهو مهم جدًّا.

«**قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**»، هذا في حياة الرسول ﷺ يقال: الله

ورسوله أعلم، أما بعد وفاة الرسول ﷺ فيقال: الله أعلم. ثم جاء الجواب بعد أن تطلع معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الجواب، أجابه النبي ﷺ، فهو الذي يسأل، وهو الذي يجيب.

«فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، هذا حق واجب، وهو الذي خلق الله الخلق من أجله؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، وحق الله مقدم على سائر الحقوق، دائمًا يأتي هو أول الحقوق في القرآن: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ [النساء:٣٦] إلى آخر الآية.

لما ذكر الحقوق العشرة في هذه الآية، جعل أولها حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣] إلى آخر الآيات.

بدأ بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحق الله هو أول الحقوق الواجبة على العباد، وهو الذي خلقوا من أجله، ما هو حق الله؟ «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، لا يكفي أنهم يعبدونه؛ بل لابد أن يتركوا عبادة ما سواه، أما إذا عبدوه وعبدوا معه غيره، فهذا شرك، وعبادتهم لله تكون باطلة.

المشركون الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ كانوا يعبدون الله بأنواع من العبادات، ولكنهم كانوا يشركون معه غيره من الأصنام والأولياء والصالحين والأشجار والأحجار، فصاروا مشركين، ولم تنفعهم عبادتهم لله.

فكل من عبد الله وعبد معه غيره، فإنه مشرك، عبادته لا تنفعه، الذين يعبدون الله الآن، ويصلون ويصومون ويحجون، ولكنهم يدعون الأولياء

والصالحين والأموات، ويستغيثون بهم، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، هؤلاء مشركون، لا تنفعهم عبادتهم لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه قال: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، كما في القرآن: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]. مثل لفظ الآية تمامًا؛ لأن عبادة الله لاتصح مع الشرك، لاتصح إلا إذا خلصت من الشرك، وأن العبد لا يعبد إلا الله، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا﴾ [آل عمران:٦٤]، انظر! أهل كتاب، علماء، ولكن لما كانوا يشركون، لم ينفعهم علمهم، ولا الكتاب الذي بأيديهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟﴾ يعني: أقبلوا، ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٦٤].

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا حصر، وأكده بقوله: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا كاف؛ لأنه حصر، لكن مع ذلك أكده فقال: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ لأن اليهود والنصارى يعبدون الله، ولكنهم يعبدون معه غيره، يعبدون عزيرًا، ويعبدون المسيح، يعبدون من دون الله عَزَّوَجَلَّ، الرسول دعاهم إلى التوحيد وترك الشرك.

«أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، هذا فيه أن العبادة لا تصح مع الشرك ولا تقبل، «وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». وانظر كلمة «شَيْئًا» عامة، نكرة في سياق النفي، تعم كل شيء[1]، لايشرك مع الله شيئًا أبدًا؛ لا من الملائكة، ولا من الرسل،

(١) انظر: روضة الناظر (٢/ ١٣٢)، وبدائع الفوائد (٤/ ٢، ٣)، ومذكرة الشنقيطي (ص٢٠٤ - ٢٠٧).

ولا من الأولياء والصالحين، ولا من الأحجار والأشجار، ولا من الجن، ولا من الإنس.

«أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، أي: أيّ شيء، بعض الجهال يقولون: عبادة الأولياء والصالحين تقرب إلى الله، وهم وسائط بيننا وبين الله، فالله رد عليهم لما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣]، سماهم كذبة وكفرة، مع أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾، هذه نفس شبة القبوريين اليوم؛ لا نعبد الأموات إلا لأنهم صالحين يقربوننا إلى الله ويتوسطون لنا عند الله، نفس قول المشركين السابقين، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، لا يعبدونهم لأنهم يخلقون ويرزقون، ولكن يعبدونهم لأجل الشفاعة، يشفعون لهم عند الله، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، سماه شركًا ونزه نفسه عنه، وهم يقولون: شفعاء، نحن نعلم أنهم لا يخلقون ولا يرزقون ولا يحيون ولا يميتون، ولكن هم صالحون ويشفعون لنا عند الله. ليس هذا طريق الشفاعة، الشفاعة حق، لكن ليس هذا طريقها، الشفاعة تكون بإذن الله، وتكون في أهل التوحيد، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]،

يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع فيه بأن يكون من أهل التوحيد، أما الكافر والمشرك، فلا تنفعهم شفاعة الشافعين.

«أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ» يعني: إذا أدوا حق الله عَزَّوَجَلَّ، فماذا يكون حقهم على الله؟

«وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ» هذا حق تفضل به سبحانه وهو غير واجب عليه سبحانه؛ لأن أحدًا لا يوجب على الله شيئًا، وإنما هذا حق تفضل به هو سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، حق تفضل الله به على نفسه، أوجبه على نفسه تفضلًا منه سبحانه على عباده، وإلا هم لا يلزمونه بشيء.

«وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» من سلم من الشرك، سلم من العذاب، إما أنه يسلم من العذاب مطلقًا، ولا يعذب أبدًا إن كان ممن حقق التوحيد، وإما أنه يعذب بذنوبه إذا شاء الله، ولكنه لا يخلد ومآله إلى الجنة.

فقوله: «أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» لا يعذبه عذابًا مطلقًا، ولا يمسه العذاب أبدًا، هذا إذا كان ممن حقق التوحيد وسلم من الذنوب، وقد يعذب بذنوبه، ولكن لا يخلد، ومآله إلى الجنة. فالموحد من أهل الجنة إما ابتداءً وإما في النهاية بالتوحيد، وفي الحديث: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١)، والله جَلَّوَعَلَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٣١٥) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال أبو عيسى: (هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. ويشهد له ما في صحيح مسلم (٢٦٨٧) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللهُ =

يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]. فالشرك لا يغفر أبدًا، أما غيره من الذنوب الكبائر التي ليست شركًا هذه تحت المشيئة، إن شاء الله غفر لصاحبها، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة بعد ذلك، أما الكافر والمشرك، فدخوله في النار دخولًا مؤبدًا لا يخرج منها، نسأل الله العافية!

«**وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ**» هذا وعد منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «**أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**».

فقال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟**»؛ أفلا أبشر الناس بهذا الحديث أن الموحد لا يُعذَّب ولا يعذَّب إلا المشرك، هذه بشارة عظيمة لأهل التوحيد، قال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»، هذا فيه جواز كتمان العلم للمصلحة إذا كانوا يخشى عليهم من الاتكال على الرجاء، ربما يتسارعون إلى الذنوب، ويقولون: ما دام لم نشرك بالله، فنحن لا نعذب. فيتسارعون في الذنوب، يفهمون خطأ، يفهمون المسألة فهمًا خاطئًا، ويظنون أن الذنوب لا تضر كما يقوله المرجئة[(١)]، يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

هذا خطأ؛ بل المعصية قد تضر، وقد يعذب بها صاحبها، وقد يبقى في النار أحقابًا، ثم يخرج من النار فحمة محترقة، ثم ينبت جسمه بالنهر، نهر يسمى نهر

= عَزَّوَجَلَّ: **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً**».

(١) المرجئة: قيل: من الإرجاء، أي: من التأخير؛ لأنهم أخَّروا العمل عن مسمَّى الإيمان. وقيل: من الرجاء؛ لأنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة! وهم فرق شتَّى. انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٣٢)، والفرق بين الفِرق (ص١٩٠).

الحياة، ينبت جسمه، ثم إذا هذب ونقي دخل الجنة(١). فلا يغتر بالذنوب أو يعتمد على الرجاء، الذنوب وإن لم تكن شركًا فقد يعذب بها صاحبها؛ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فدل على أن بعض العصاة قد لا يشاء الله العفو عنهم، ويعذبه بذنوبه، ويدخل النار وهو من الموحدين، يدخل النار فيعذب بها.

فلو أن معاذًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أخبر الناس بذلك، لتسارع الجهال إلى الذنوب، وهانت عليهم الذنوب والمعاصي، وقالوا: مادام أننا لا نشرك، فإن الذنوب لاتضرنا. وهذا فهم خاطئ، فإذا كان نشر بعض العلم يفهم على غير وجهه، فإنه يكتم ولا ينشر، فهذا فيه جواز كتمان العلم للمصلحة، وأنه لا يلقى على كل الناس، لا يلقى إلا على الخواص من العلماء الذين لا يغترون ولا يفهمون فهمًا خاطئًا.

فأحاديث الوعد هذه لا تلقى على كل الناس، تأتي عند ناس عصاة متساهلين في الذنوب وتقف وتقول: الله غفور رحيم، الله لا يعذب إلا من يشرك به. يفرحون ويكثرون من الذنوب والمعاصي؛ لأنك فتحت لهم الباب، فلا تذكر لهم الوعد، اذكر لهم الوعيد، إذا رأيت ناسًا مسرفين في المعاصي، اذكر نصوص الوعيد عندهم لعلهم يتوبون. وإذا جئت عند ناس غلاة متشددين،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (٣٠٤) (١٨٤) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ. فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَا، أَوِ الحَيَاةِ -شَكَّ مَالِكٌ- فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً».

فأحضر لهم نصوص الوعد، يعني: تحضر العلم عند المناسبات، تحدث الناس بما يعرفون، ليس كل الناس سواء. العصاة تكلم معهم بكلام خاص، والمتشددون تتكلم معهم بكلام آخر، كلام خاص بما يناسبهم.

فهذا فقه الداعية أنه يتعامل مع الناس بحسب ما يليق بحالهم، ولا يذكر العلم عند ناس يفهمون خطأ، لا يذكره عندهم، ليس كل العلم ينشر، وإنما ينشر على الناس حسب ما تستوعبه عقولهم ويستفيدون منه ولا يفهمونه خطأ. والحكمة: وضع الأشياء في مواضعها[1]، ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]. ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ تضع الأمور في مواضعها، إذا جئت عند العصاة، تحضر لهم نصوص الوعيد لعلهم يتوبون، وتكره إليهم الذنوب والمعاصي، وإذا جئت عند العباد المتشددين الذين قد يقنطون من رحمة الله، فإنك تأتي لهم بنصوص الوعد والرحمة لتهدئ من غلوائهم وتشددهم، هكذا فقه الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

«**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»، هذا فيه أن العلم إذا كان لا يناسب عند بعض الناس ذكره، فلا تذكره حتى يتفقوا ويعرفوا، ثم بعد ذلك تلقيه عليهم، قال: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»؛ اتركهم لأجل يحذرون من المعاصي ولا يتساهلون فيها، وهذا طيب أنهم يحذرون من المعاصي ويتجنبونها من أنك تفتح لهم باب التسهيل وباب الرجاء، فيتمادون في المعاصي والذنوب، وربما يتدرجون إلى الكفر والشرك؛ لأن الذنوب يجر بعضها بعضًا.

---

(١) انظر: جامع المسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٣٩٠)، ومدارج السالكين (٢/ ٤٤٨)، والحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة (١/ ٧٣).

فهذا حديث عظيم مفيد للمسلم، وهو منهج دعوة ومنهج حياة يسير عليه المسلم.

وفيه أن التوحيد هو أول شيء، هو أول الحقوق.

وفيه فضل التوحيد، وأن الموحد يرجى له المغفرة، ولو كان عنده ذنوب دون الشرك، فلا يقنط من رحمة الله، يرجى له المغفرة، لكن لا تسهل عليه الذنوب والمعاصي؛ بل حذره منها، حذره من الذنوب؛ لئلا تهلكه الذنوب والمعاصي.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفق الجميع للفقه في دينه، والعمل بشرعه، وأن يجنبنا وإياكم شر الفتن ومضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، نسأله أن يرزقنا وإياكم الفقه في دينه، اللهم فقهنا في دينك، وعلمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، واجعله حجة لنا لا حجة علينا يا رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»**(١).

وجاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحضرة أصحابه فقال: **«يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الإِسْلامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!»**(٢).

الإسلام هو الاستسلام لله جَلَّ وَعَلَا بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله(٣)، هذا تعريف الإسلام، وأما هذه المذكورة في الحديثين، فإنها

---

(١) أخرجه البخاري (٨، ٤٥١٤)، ومسلم (١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٧٦)، ومجموع الفتاوي (٧/ ٢٦)، وشرح ثلاثة الأصول للمؤلف -حفظه الله- (ص١٤٦).

أركان الإسلام، هي أركان الإسلام التي يقوم عليها، هي مبانيه؛ ولهذا قال في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ»، فهي مبانيه وأركانه ودعائمه التي يقوم عليها، والتي لابد منها.

وبقية الطاعات وبقية العبادات هي من الإسلام، لكنها ليست أركانًا، وإنما هي مكملات، أما هذه الأشياء الخمسة، فإنها أركان لابد منها، ولايتحقق الإسلام بدونها.

الركن الأول أو المبنى الأول: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، هذا هو الركن الأول الشهادتان.

شهادة أن لا إله إلا الله أي: أن تقر وتعترف وتنطق بلسانك بشهادة ألا إله إلا الله، أن تقر وتعترف وتنطق بلسانك أن لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا الركن هو الأساس، هو أساس الإسلام، بقية الأركان تابعة لهذا الركن، ورأسها وأصلها هو الركن الأول شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله.

شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي ألا تعبد إلا الله، وأن تترك عبادة ما سواه كائنًا من كان؛ لأن العبادة حق لله وحده، ليس لأحد فيها استحقاق؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ولي من الأولياء، أو صالح من الصالحين، ولا حجر، ولا شجر، ولا أي شيء.

العبادة حق لله وحده، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ على عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(١). وهذا الحق مقدم على سائر الحقوق، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء:٣٦]، ذكر الحقوق العشرة في هذه الآية، وذكر أولها حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾، إلى أن قال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٦]، فالله جَلَّ وَعَلَا دائمًا إذا ذكر الحقوق الواجبة على الإنسان أول ما يذكر حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه هو الأساس الذي يقوم عليه الدين، فلا يقوم الدين إلا على التوحيد، وهو إخلاص العبادة لله وترك عبادة ما سواه؛ ولهذا لما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن ليدعو إلى الله ويقضي بين الناس هناك، قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى»- فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ

(١) سبق تخريجه (ص٧).

هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»(١)، فأول ما بدأ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يبدأ بالتوحيد، أن يبدأ بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له؛ لأنه هو الأساس، فإذا قبلوا التوحيد وشهدوا أن لا إله إلا الله، وشهدوا أن محمدًا رسول الله، فإنهم يؤمرون بالصلاة، فإذا قبلوا بالصلاة، يؤمرون بالزكاة. فدل على أن الأصل والأساس هو التوحيد، وهو إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة وترك عبادة ما سواه، وأنها لا تصح الأعمال إلا إذا تحقق التوحيد، تحقق الأساس.

وبدون التوحيد لا فائدة من الأعمال ولو كثرت، فإنها هباء منثور، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمشركين الذين أبوا أن يقبلوا التوحيد، قال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم:١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور:٣٩]، لماذا؟ لأنهم لم يأتوا بالأساس الذي تبنى عليه الأعمال، وهو التوحيد؛ بل كانوا يدعون غير الله، ويذبحون لغير الله، وينذرون لغير الله، يعبدون الأصنام، ويعبدون الملائكة، ويعبدون الأولياء والصالحين، ويعبدون الجن، ويعبدون الأشجار والأحجار، ويعبدون أنواعًا كثيرة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلذلك لا تنفعهم أعمالهم يوم القيامة؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧، ٧٣٧١، ٧٣٧٢)، ومسلم (٢٩) (١٩).

يقول: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦].

فالذي يصلي ويصوم ويحج ويعتمر ويتصدق ويعمل الأعمال لكنه يدعو غير الله، يدعو الأموات، ويستغيث بالمقبورين، ويعبد الأولياء والصالحين، هذا ليس له حج، وليس له صلاة، وليس له أي عبادة، لا تنفعه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه لم يخلص التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، ولم يوجد الأساس الذي يبني عليه أعماله، فهو مهما أتعب نفسه وصلى الليل والنهار وأنفق الأموال وحج كل سنة واعتمر كل شهر، إذا كان يدعو غير الله، فلا فائدة من أعماله، ولا قيمة لها عند الله، وتكون هباء منثورًا، تكون كسراب بقيعة، تكون كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

فيجب على المسلم أن يفطن لهذا، وأن يخلص العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن العبادة لا تصح مع الشرك، ولهذا يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، لم يقتصر على قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، بل قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ لأن عبادة الله لا تصح مع وجود عبادة غيره.

والحديث القدسي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)، وفي رواية: «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»(٢)، الله جَلَّوَعَلَا لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢)، وأحمد في المسند (١٣/ ٣٧٧)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٢٠)، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٦٧)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٣٢٤)، والبيهقي في شُعَب الإيمان (٥/ ٣٢٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لوجهه الكريم، لا يقبل من الأعمال والأقوال والعبادات إلا ما كان خالصًا من الشرك، ولهذا قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله لا يصح إلا مع الكفر بالطاغوت، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وهذا هو معنى لا إله إلا الله؛ لأن «لا إله إلا الله» تشتمل على نفي وعلى إثبات؛ نفي العبادة عما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، فـ«لا إله» أي: لا معبود بحق، «إلا الله»: إثبات العبادة لله بعد نفيها عما سواه، وهذا هو معنى قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾، ﴿يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ هذا هو معنى «لا إله»، ﴿وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ هذا هو معنى «إلا الله».

وقال الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦، ٢٧].

فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ هذا هو معنى النفي «لا إله»، ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ هذا معنى الإثبات «إلا الله».

وهذا هو معنى لا إله إلا الله، معناها: نفي العبادة عما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وإثباتها لله وحده لا شريك له.

فيجب على المسلم أن يتفطن لهذا الأمر، فإن بعض الناس أو كثير من الناس يدّعون الإسلام، وينطقون بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لكنهم لا يحققون هذه الكلمة، ينطقون بها بألسنتهم، ولكنهم لا يحققون معناها ومدلولها بأفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم، فتراهم يذبحون للجن، ويذبحون للقبور، وينذرون للأموات، ويستغيثون بالموتى.

فأين لا إله إلا الله؟ وأين معناها؟ هل هي مجرد لفظ يقال باللسان فقط؟ أو هي لفظ ومعنى ومقتضى؟

لابد من هذا، لابد حينما تنطق بـ«لا إله إلا الله» أن تعرف معناها، وإذا عرفت معناها ونطقت بها، فلابد أن تعمل بمقتضاها، وهو أن تخلص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وتترك عبادة ما سواه.

وأما شهادة أن محمدًا رسول الله؛ لأن الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو المبلغ عن الله جَلَّوَعَلَا، فتشهد له بالرسالة، تعترف بقلبك، وتنطق بلسانك، وتعلن أنه رسول الله، أرسله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا، أرسله رحمة للعالمين.

تعترف بهذا بقلبك، وتنطق به بلسانك، أما من اعترف بقلبه، ولم ينطق بلسانه بشهادة أنه رسول الله، فإن هذا لا ينفعه شيئًا؛ لأن المشركين يعرفون أنه رسول الله بقلوبهم، ولكنهم أبوا أن ينطقوا بذلك بألسنتهم حسدًا وعنادًا، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، اليهود والنصارى يعرفون أنه رسول الله، يعرفون هذا، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي: يعرفون محمدًا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنه رسول الله، ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]، فهم يعرفون أنه رسول الله في نفوسهم وقلوبهم، لكنهم أبوا أن ينطقوا ويشهدوا أنه رسول الله.

وكذلك المنافقون ينطقون بألسنتهم أنه رسول الله، لكنهم لا يعترفون بذلك في قلوبهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ

لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ [المنافقون:١، ٢]، أي: شهادتهم، ﴿جُنَّةً﴾ يعني: سترة(١) يستترون بها من القتل؛ ليعيشوا مع المسلمين وهم كفار في باطن أمرهم لايعترفون برسالة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم ينفعهم النطق بها؛ لأنهم لايعتقدونها بقلوبهم، فالكفار يعتقدونها بقلوبهم، ولكنهم لم ينطقوا بها بألسنتهم، المنافقون على العكس ينطقون بألسنتهم، ولكنهم لا يعترفون بها بقلوبهم.

أما أهل الإيمان فإنهم يعترفون برسالته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقلوبهم، وينطقون بألسنتهم، فيقول: أشهد أن محمدًا رسول الله. هذا لا يكفي، لا يكفي أن تعترف بلسانك وقلبك أنه رسول الله؛ بل لابد أن تتبعه، إذا شهدت أنه رسول الله، واعترفت بذلك بقلبك، فلابد أن تطيعه، ولابد أن تتبعه؛ لأنك اعترفت أنه رسول الله، فالواجب عليك أن تتبعه فيما يأمرك به وفيما ينهاك عنه. قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور:٥٤]، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]. فلابد من طاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما من اعترف أنه رسول الله ظاهرًا وباطنًا، ولكنه لا يتابعه ولايطيعه، فهذا ليس شاهدًا أنه رسول الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١، ٣٢].

---

(١) انظر: العين (٦/ ٢٠)، وتهذيب اللغة (١٠/ ٢٦٥)، والصحاح (٥/ ٢٠٩٤)، ومقاييس اللغة (١/ ٤٢١).

فشهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

كذلك هذا مقتضى عظيم ألا تعبد الله إلا بما شرعه لك الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تعبد الله بمقتضى هواك، أو بمقتضى تقليدك لفلان وعلان، أو ما أدركت عليه الناس، بل لابد أن تقتصر على ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تحدث في الدين شيئًا لم يأتِ به هذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتزعم أنه عبادة وأنه يقربك إلى الله، فهذا بدعة، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كلُ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكلُ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[(٢)].

إذًا: فالشهادتان -شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله- لهما معنى، ولهما مقتضى ومدلول.

فشهادة أن لا إله إلا الله تعني إخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ وترك عبادة ما سواه، ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي المتابعة للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والطاعة له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباع سنته وترك البدع وترك المحدثات والخرافات.

فـ«لا إله إلا الله» تقتضي ترك الشرك، وشهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨)، ورواه البخاري معلّقًا في كتاب البيوع - باب النَّجْشِ (٤/ ٣٥٦ مع الفتح)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (١٣/ ٣١٧ مع الفتح).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (٢٨/ ٣٧٣)، والدارمي (٩٦)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٥)، وابن حبان (١/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥).

ترك البدع وترك المحدثات التي ما أنزل الله بها من سلطان، هذا هو معنى الشهادتين الركن الأول من أركان الإسلام.

يجب أن نعرف هذا، وأن نحققه بأقوالنا وأفعالنا، وألا نكتفي بالنطق بالشهادتين بدون تحقيق لمدلولها ومعناهما، فإن النطق بهما بدون عمل بمقتضاهما لا ينفع الإنسان مهما نطق ومهما تكلم، مادام أن فعله في واد ونطقه في واد آخر، لا يتطابق القول والفعل.

فيجب علينا أن نعرف هذا، هذا هو أهم المهمات، هذا الأمر -وهو معرفة التوحيد ومعرفة السنة والمتابعة- أهم المهمات ورأس الأمر، وهما الأساس الذي يبنى عليه الدين.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم لصالح الأعمال والأقوال، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا وجميع عباداتنا خالصة لوجه الله، موافقة لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ **فإن العمل لا يقبل إلا بشرطين:**

الشرط الأول: الإخلاص لوجه الله عَزَّوَجَلَّ وترك الشرك.

والشرط الثاني: المتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وترك البدع والمحدثات والخرافات، وهذا هو معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة:١١٢]، هذا هو معنى هذه الآية، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ يعني: أخلص العبادة لله وترك الشرك، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:٢]، قال: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، ولم يقل:

(أيكم أكثر عملًا)؛ لأن المدار على الإخلاص، وليس المدار على كثرة العمل، المدار على الإخلاص.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] لما سئل عن هذه الآية: «يا أبا علي ما معنى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧] قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا، وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا، لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالخَالِصُ إِذَا كَانَ للهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ»[٢].

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد نبي الهدى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ونسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أتباع هذا الرسول، ومن أمة هذا الرسول، إنه سميع مجيب. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) هو الإمام الزاهد العابد أحد صلحاء الدنيا، الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي التميمي ثم اليربوعي الخراساني المروزي، أخذ الفقه عن أبي حنيفة، وروى عنه الإمام الشافعي، كان في أول أمره شاطرًا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، ثم أراد الله جَلَّجَلَالُهُ له الهداية. انظر: تاريخ دمشق (٤٨/ ٣٧٥)، ووفيات الأعيان (٤/ ٤٧)، وسير أعلام النبلاء(٨/ ٤٢١)، وطبقات الحنفية (ص٤٠٩)، وشذرات الذهب (١/ ٣١٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية (ص٥٠-٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥).

الاستجابة لله ولرسوله

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن استجاب لدعوته إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٠-٢٥]، وقال تعالى: ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الشورى٤٧، ٤٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبۡ

دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف:٣١-٣٢].

في هذه الآيات الكريمة من كتاب الله دلالة واضحة على وجوب الاستجابة لله ولرسوله، تارة يأمر بذلك، وتارة يعد المستجيبين له بالنجاة والفوز.

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى:٣٦-٣٨]، في هذه الآية الكريمة يعد الله جَلَّوَعَلَا الذين استجابوا لربهم بأن ما أعد الله لهم من الكرامة خير وأبقى من الدنيا وما فيها؛ كما أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ توعد الذين لم يستجيبوا له بقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأحقاف:٣٢]، بعدما بين أن الاستجابة لداعي الله توجب مغفرة الذنوب والنجاة من النار والعذاب، ﴿ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف:٣١]؛ كما بين في آية البقرة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى ﴾ [البقرة:١٨٦]، في هذا ما يدل على أن من استجاب لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإن الله يجيب دعاءه إذا دعاه؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فإذا أجبت داعي الله، أجاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ دعوتك، وإذا لم تجب داعي الله، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعرض عنك، من أعرض عن إجابة دعوة الله، أعرض الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن إجابة دعوته، أحوج ما يكون إليه.

والاستجابة لله تعني: الامتثال لأوامر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأداء ما أمر الله تعالى به من الطاعات.

وكذلك من الاستجابة لله ترك ما نهى الله تعالى عنه، فإن الله أمرك أو نهاك عن أشياء، فيجب عليك أن تستجيب بترك ما نهاك الله تعالى عنه، وبذلك تكون مستجيبًا لله.

إذا فعلت ما أمرك الله به، وتجنبت ما نهاك الله عنه، فقد استجبت لله، وحصلت على السعادة؛ لأن الله تعالى لا يأمر إلا بما فيه الخير للإنسان والعز والكرامة في الدنيا والآخرة، فكل ما أمر الله تعالى به فإنه من مصلحة الإنسان، فإذا امتثله، فإنه يحقق بذلك مصلحة نفسه، وأما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه لا تنفعه طاعة المطيعين؛ لأنه غني عنها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنما المطيع ينفع نفسه، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت:٤٦].

وكذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا ينهى عن شيء إلا وفيه المضرة للإنسان، فإن امتثلت نهي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتجنبت ما نهاك الله تعالى عنه، فإنك تكون حققت لنفسك النجاة من المهالك والأخطار والعذاب في الدنيا والآخرة؛ لأن الله لا ينهاك عن شيء إلا وفيه مضرتك وسوء عاقبتك، وإذا لم تجب ولم تترك ما نهاك الله عنه، فإنما تكون قد أضررت بنفسك، ولاتضر الله شيئًا؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يضره شيء؛ بل هو النافع الضار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦]، وفي الحديث: «**مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا**»(١)، والله جَلَّ وَعَلَا يقول في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي: إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (١٠٩٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

إذًا: فالاستجابة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرجع خيرها ونفعها على العبد المستجيب، وعدم الاستجابة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرجع ضررها وشرها وخطرها وسوء عاقبتها على المُعرض عن أوامر الله ونواهيه.

وكذلك الاستجابة للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الرسول إنما يأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه، الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلغ عن الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم:٣، ٤].

فمن استجاب لهذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حقق لنفسه السعادة واهتدى إلى الصراط المستقيم، ومن أعرض عن الاستجابة لهذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه يهلك نفسه، ويهيم في طرق الضلال والهلاك؛ لأنه ترك سبيل الرشاد.

وقد وصف الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه يهدي إلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ** ﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في وصف نبيه: ﴿ **وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف:١٥٦، ١٥٧]، هذه ثمرات طاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الفلاح في الدنيا والآخرة، والنجاة من العذاب، وسلوك صراط الله المستقيم الذي لا يضل من سلكه وسار عليه.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعونا لما فيه حياتنا في الدنيا والآخرة الحياة السعيدة.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، وأعظم الحياة حياة القلوب؛ لأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعونا لما يحيي قلوبنا، وهو الإيمان بالله ورسوله واتباع القرآن والسنة، هذه حياة القلوب، وكذلك هو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعونا لما فيه حياة أبداننا؛ لأنه جاء بكل ما فيه الخير والمنفعة للقلب وللبدن. وما فيه الخير للقلب أنه جاء بالهداية والإيمان واليقين، وللبدن أنه حرم علينا كل ما فيه ضرر على صحتنا وأجسامنا، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ لأن فيها حياة الأجسام، الحياة الصحيحة، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ التي فيها ضرر الأجسام وإمراضها.

الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بالحياتين:

* حياة الروح والقلب بنور الإيمان وهداية القرآن، وهذه هي الحياة الحقيقية التي تترتب عليها السعادة الأبدية.

* وحياة الأبدان التي بها يستطيع الإنسان أن يعبد الله، أن يصلي، أن يصوم؛ لأن الجسم والبدن مطية للقلب يستعين بهذا الجسم وهذه الحواس وهذه الأعضاء على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يستخدمها في طاعة الله.

وفي الحديث: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١)، فالإنسان مركب جسمه من أعضاء

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وعروق وحواس دقيقة وأجهزة لايعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا الجسم، وكذلك القلب، الجسم -أيضًا- فيه القلب الذي هو محل الإيمان واليقين ومعرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والجسم خادم للقلب، والقلب هو الملك في هذا البدن، وسائر هذه الأعضاء هذه خدم لهذا الملك، فإذا صلح القلب، صلحت هذه الأعضاء، إذا صلح الملك، صلحت الرعية، صلاح الملوك صلاح للرعايا، إذا صلح القلب، صلحت الأعضاء والجسم واستقامت على طاعة الله.

الحاصل: أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعونا لما يحيينا الحياة المعنوية حياة القلوب، والحياة الحسية التي هي حياة الأبدان؛ لأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بصلاح القلوب وصلاح الأبدان معًا، والأصل هو صلاح القلوب، وصلاح الأبدان هذا تابع.

أما إذا فسد القلب، فلا منفعة للجسد، ولو كان الجسد صحيحًا ومعافى، مادام القلب قد فسد، فإن الجسد لا يستفاد منه بشيء.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، هذا معناه: أن من لم يستجب لله وللرسول، فإنه يعاقب بفساد قلبه وانطماس بصيرته وظلمة قلبه؛ ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾، بسبب ماذا يحول بين المرء وقلبه؟ بسبب الإعراض عن الاستجابة لله وللرسول، فعدم الاستجابة لله وللرسول يسبب فساد القلب.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ يعني: إن لم تستجيبوا لله

وللرسول، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعاقبكم بفساد القلوب وعمى البصائر؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، الذي لا يستجيب لله ولا يستجيب للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يعاقب بأن يحرم من منفعة قلبه ويصبح قلبه فاسدًا، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وكل طاعة يفعلها الإنسان من الطاعات فإنه يكون مستجيبًا لله، وكل معصية يفعلها الإنسان فإنه يكون غير مستجيب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فأنت لما جئت للحج، تكون مستجيبًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دعاك إلى الحج على لسان خليله ورسوله إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أمره الله بالنداء والأذان: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج:٢٧].

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ الأذان معناه: الإعلام والدعوة[١]، أي: أعلم الناس وادعهم إلى حج بيت الله الحرام.

وكلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ تعم جميع الناس إلى يوم القيامة، هذا النداء وهذا الأذان مستمر كل عام إلى يوم القيامة، ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج:٢٧].

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ هذه الإجابة، ولهذا نحن نقول: إذا أحرمنا بالحج أو بالعمرة ماذا نقول؟ نقول: لبيك اللهم لبيك. التلبية هذه إجابة، إجابة لنداء

(١) انظر مادة: (أذن) في: الصحاح (٥/ ٢٠٦٨ - ٢٠٦٩)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٣-٣٤)، والمطلع على ألفاظ المقنع (١/ ٦٥)، ولسان العرب (١٣/ ٩-١٣).

إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يؤذن فينا بالحج، فكل من جاء حاجًا أو معتمرًا، فإنه مستجيب لله ولرسوله.

وكذلك الصلوات الخمس نحن نصليها إذا سمعنا الأذان، الأذان هذا دعوة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الأذان لكل صلاة هذا دعوة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا. «حي على الصلاة، حي على الفلاح» يعني: أقبلوا، معنى «حي» أي: أقبلوا، أقبلوا على الصلاة، وأقبلوا على الفلاح.

فإذا سمعنا الأذان وتوضأنا وجئنا إلى المسجد، فإننا نكون مستجيبين لله ولرسوله بأداء الصلاة، وإذا كان الإنسان على فراشه نائمًا ثم سمع الأذان وقام، فإنه يكون مستجيبًا لله ولرسوله، وإذا قام للتهجد بالليل، فإنه يكون مستجيبًا لله ورسوله.

وإذا تخلف الإنسان عن الصلاة، ولم يحضر للمسجد، فإنه يكون معرضًا عن دعوة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يكون مجيبًا لله عَزَّوَجَلَّ.

فإن صلى في بيته، فإنه ترك دعوة الله حضوره إلى المسجد، وإن لم يصل أبدًا -لا في بيته ولا في المسجد-، فإنه يكون معرضًا عن أمر الله بالكلية -والعياذ بالله-؛ لأن عدم الاستجابة درجات بعضه أشد من بعض.

وكذلك أنت حينما تطوف بالبيت، وتسعى بين الصفا والمروة، وتقف بعرفة، وتبيت بالمزدلفة، وترمي الجمار، وتبيت بمنى كل هذا استجابة لله ولرسوله، فأي طاعة تعملها من فريضة أو نافلة فإنك تكون مستجيبًا لله ولرسوله.

إذا تصدقت بالصدقة، أو أخرجت الزكاة الواجبة، فإنك تكون مستجيبًا

لله ولرسوله؛ لأن الله أمرك بالإنفاق: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ [البقرة:٢٥٤]، ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:٢٦٧]، فإذا أنفقت من مالك ممتثلًا أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنك تكون مستجيبًا لله عَزَّوَجَلَّ، إذا أحسنت إلى الجيران، أحسنت إلى الوالدين، أحسنت إلى الأقارب والأيتام، أحسنت إلى الجيران وأحسنت إلى إخوانك المسلمين، تكون مستجيبًا لله عَزَّوَجَلَّ.

وإذا عققت والديك وعصيتهما، ومنعت الحقوق الواجبة عليك، فإنك تكون غير مستجيب لله ولرسوله.

وهكذا نجد أن كل طاعة، فإنها استجابة لله ولرسوله، وكل معصية، فإنها إعراض وامتناع عن دعوة الله ودعوة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن في طاعة هذا الرسول والاستجابة له خيرات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور:٥٤]، فرتب الهداية على طاعة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور:٥٦]، فطاعة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سبب لحصول الرحمة، وكذلك بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن معصية الرسول تترتب عليها أضرار عظيمة، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فالذي لا يستجيب للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكون متبعًا للهوى، واتباع الهوى في غير طاعة الله ضلال، وليس ضلالًا عاديًا، وإنما هو ضلال عظيم، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠].

فالذي يتبع هواه ويعرض عن طاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون قد ضل أعظم الضلال، ويكون -أيضًا- ظالمًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يكون ظالمًا، وهذا خطر عظيم ووعيد شديد.

وهكذا الاستجابة لله والاستجابة لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهما مجالات كثيرة في حياة المسلم، حاصلهما أن كل طاعة لله ولرسوله فهي استجابة، وكل معصية لله ولرسوله فإنها امتناع من الاستجابة.

والطاعة والاستجابة بمعنى واحد، ولهذا جمع الله بينهما في هذه الآيات التي قرأتها في أول المحاضرة؛ حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أولًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩]، ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:٢٤].

فالاستجابة لله وللرسول هي الطاعة لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن من أعظم صفات المؤمنين أنهم يستجيبون لله ولرسوله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

وأما المنافقون والكفار فإنهم إذا دعوا إلى الله ولرسوله ليحكم بينهم فإنهم يعرضون، ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور:٤٨، ٤٩]، فالمؤمنون دائمًا وأبدًا يستجيبون لله ولرسوله، ولهذا تجدهم عندما يقرؤون القرآن ويتدبرونه تزيد استجابتهم، وإذا قرؤوا أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزيد استجابتهم لله ولرسوله؛ كما قال

تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤].

بخلاف الكفار والمنافقين فإنهم إذا تليت عليهم آيات الله، لم يستجيبوا لها، ولم يمتثلوا ما فيها، ولهذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في وصف القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]، أنت لما تنادي الإنسان البعيد المدبر لا يسمع صوتك، ولو سمعه، لم يفهمه؛ لأنه معرض وبعيد، فهم بعيدون عن القرآن، يعني: إنهم بعيدة أفهامهم عن القرآن وإن كانوا حاضرين عند القارئ وجالسين إلى جنب القارئ، لكنهم بعيدون عن القرآن بالامتثال، ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾.

أما المؤمن فإنه ينادى من مكان قريب؛ لأنه مقبل، مقبل على القرآن ومتدبر للقرآن، فهذا موقف المؤمن مع القرآن هدى وشفاء.

وموقف الكافر والمنافق مع القرآن أنه ينادى من مكان بعيد، والذي ينادى من مكان بعيد فإنه لا يسمع، ولو سمع فإنه لا يفهم، لا يفهم ما في هذا الصوت من مطلوب.

فالحاصل: أن واجب المؤمن دائمًا وأبدًا أن يكون مستجيبًا لله ولرسوله، حينما يسمع القرآن، حينما يسمع الأحاديث النبوية الشريفة، حينما يسمع الأذان، حينما يأتي وقت الحج والعمرة، حينما يطلب منه الإنفاق في سبيل الله، حينما

يدعى للجهاد في سبيل الله، وهكذا المؤمن دائمًا على أهبة الاستعداد للاستجابة لله ولرسوله، بخلاف المنافق والكافر فإنه بعيد المنال، معرض عن دعوة الله ودعوة رسوله، ولهذا يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، فالمؤمن لا يتردد في قبول أوامر الله وأوامر رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا يقول: أنا بالخيار، أنا حر إن شئت أمتثل وإن شئت لا أمتثل. هو ليس حرًا، هو عبد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، عبد لله يجب عليه أن يمتثل أوامر الله من غير خيار ولا توقف؛ لأنه عبد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأيضًا هو يعلم أن الله لا يأمره إلا بما فيه صلاحه وفلاحه، ولهذا قال: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، فبين سبحانه أن ثمرة الاستجارة أنها راجعة إلينا، لمن فينا؟ وهل هنا أحد عاقل في الدنيا يرفض الحياة؟! هل أحد يريد الموت؟! لا أحد يريد الموت، وإنما كلنا يريد الحياة.

فمن كان يريد الحياة الصحيحة الدائمة الباقية في الدنيا والآخرة، فعليه أن يستجيب لله ولرسوله، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، ومن كان يريد الحياة النافعة، الحياة الصحيحة حياة القلوب وحياة الأبدان وحياة الدنيا والآخرة، فعليه بالاستجابة لله ولرسوله؛ لأن هذا هو طريق الحياة الصحيحة السعيدة.

أما من كان يريد الهلاك -لأن ضد الحياة ضدها الهلاك-، من كان يريد الهلاك والعمى والضلال والنار والخسار، فليترك أو لا يستجب لله ولرسوله، ويكون هو الذي جنى على نفسه وحرمها من هذا النور وهذه الحياة.

وبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أول الآيات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال:٢٠]، المؤمن لا يعرض عن القرآن وهو يسمع أوامر الله وأوامر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما هذا شأن المنافقين، وشأن الكفار، ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال:٢٠].

المنافقون والكفار يسمعون بآذانهم، ولكنهم لا يسمعون بقلوبهم وأفكارهم وحواسهم، يسمعون كما تسمع البهائم، البهائم الآن تسمع الأصوات، تسمع أصواتنا، ولكنها لا تفهم ماذا نقول، الكفار والمنافقون مثل البهائم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنفال:٢٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٧١]، فالكفار والمنافقون يسمعون القرآن، ويسمعون المواعظ، ويسمعون أوامر الله ورسوله سماعًا يقيم عليهم الحجة، ولكنهم لا يهتدون بها، ولا يمتثلون أوامرها.

وكذلك من المؤمنين ضعاف الإيمان من يكون عنده نقص في الاستجابة لله ورسوله، ويكون عنده تأخر عن الاستجابة، وهذا يضعف إيمانه ويضره بلا شك، لكن ما عنده من أصل الإيمان يفرق بينه وبين الكفار والمنافقين، وهو كالمريض، هو كالمريض الذي يتطلب العلاج، فقد يعالج من هذا المرض ويشفى بإذن الله، وقد يزيد فيه المرض حتى يقتله.

فالمؤمن إذا لم يستجب أو تأخر أو تكاسل عن الاستجابة، فإنه يصاب، يصاب بشيء من مرض القلب، وإذا تكرر ذلك منه، فإن هذا المرض يزيد حتى يستحكم على قلبه، ثم قد يخرج من الإيمان بعد أن كان مؤمنًا، فالخطر في

هذا شديد، والواجب على المسلم أن يبادر إلى امتثال أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ.

من الناس من يكون على خطأ وقع فيه بسبب الجهل في اول الأمر، أو بسبب التقليد للمجتمع الذي هو فيه، وإذا سمع النصيحة والموعظة والإرشاد، عرف أنه مخطئ، لكن قد يعز عليه ترك العادة، ويعز عليه ترك ما كان عليه آباؤه وأجداده، ربما يبقى على خطئه وعلى ضلاله بسبب أنه يصعب عليه مفارقة مألوفاته أو عادة بلده أو ما أدرك عليه آباءه، وهذا خطر عظيم.

الواجب على المسلم أنه إذا عرف الحق، عمل به، ورجع إليه فورًا، لايتأخر، والحق ضالة المؤمن، وكلنا خطاء، كلنا عندنا أخطاء.

ومن رحمة الله أننا نسمع القرآن ونسمع الأحاديث بين حين وآخر، هذا من رحمة الله بنا؛ لأنها تنبهنا إلى أخطائنا وإلى تصحيح أعمالنا.

فالمؤمن إذا عرف أنه مخطئ، فإنه يبادر بتصحيح الخطأ، أما ضعيف الإيمان، فهذا قد يبقى على خطئه بعدما عرف أنه مخطئ يبقى على خطئه، هذا ربما يصاب بالضلال؛ لأنه يوم أن كان جاهلًا -وهو معذور-، ولكنه بعدما عرف واستمر على الخطأ بعد المعرفة، فإنه لا يكون معذورًا، وربما يؤول به هذا إلى الزيغ والضلال؛ كما قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠].

فعلينا أن نبادر بالاستجابة لله ولرسوله ولا نتأخر، الصحابة -رضي الله

تعالى عنهم- كانوا إذا نزل على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء من الوحي، بادروا بامتثاله ولا يتأخرون أبدًا، لما سمع بعضهم قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران:٩٢]، وكان عنده حائط كبير مملوء بالنخل والثمار، فلما سمع هذه الآية، بادر إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعلم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره أنه تصدق بهذا الحائط كله، وطلب من الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتقبل هذا الحائط، وأن يوجهه كيف يشاء في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك إذا سمعوا آيات الجهاد، بادروا إلى حمل السلاح، وخرجوا مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتثاقلون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

حضر عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل وفي يده خاتم من ذهب، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَاللهِ، لَا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١)، هذا هو الامتثال، بينما رجل آخر رآه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأكل بيده اليسرى، فقال له: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**، قَالَ:

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٠٩٠) عنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: **يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَاللهِ، لَا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».
وأخرج البخاري مختصرًا (٥٨٦٤)، ومسلم (٢٠٨٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهُ نَهَى عَنْ خَاتَمِ الذَّهَبِ».

لَاأَسْتَطِيعُ، قَالَ: لَا اسْتَطَعْتَ، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ»(١)، دعا عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعاقبه الله عَزَّ وَجَلَّ بأن تصلبت يده بعد ذلك، فصار لا يقدر على رفعها إلى فيه، ما رفعها إلى فيه بعد ذلك، لماذا؟ لأنه لم يستجب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعاقبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما ذاك الرجل، فإنه أبى أن يأخذ الخاتم، خاتم من ذهب أبى أن يأخذه؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طرحه، هذا هو الامتثال وهذه هي الطاعة والانقياد والاستسلام لأوامر الله ورسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

هذا ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يمن علينا وعليكم بالتوفيق والهداية.

---

(١) ذكره البخاري في باب الْعِلْم قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ (١/ ٢٥)، بدون عزو.

التحذير من الشرك

الحمد لله، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧].

في هذه الآيات يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن من الناس -أي: بعض الناس، وهم كثير- من يتخذ أندادًا لله عَزَّوَجَلَّ.

أندادًا يعني: أشباهًا ونظراء(١)، يساوونهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعبدونهم مع الله، ويحبونهم حبًّا شديدًا، يحبون الأصنام، ويحبون هذه الأوثان، وبسبب محبتهم لها عبدوها من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم أخبر أن المؤمنين يحبون الله وحده لا شريك له، لا يحبون غيره محبة عبادة، ثم ذكر مصير المشركين يوم القيامة.

(١) انظر: العين (٨/ ١٠)، والصحاح (٢/ ٥٤٣)، وتهذيب اللغة (١٤/ ٥١)، ولسان العرب (٣/ ٤٢٠).

وارتباط هذه الآيات بما قبلها واضح؛ أن الآيات التي قبلها فيها أن الله سبحانه أخبر أنه هو الإله الحق وهو المعبود بحق، وأن ما عبد سواه فهو باطل.

وذكر أدلة عبادته وأدلة استحقاقه للعبادة في أنه الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي أجرى الليل والنهار، وهو الذي يجري الفلك في البحار بما ينفع الناس، وهو الذي ينزل المطر الذي به حياة الأرض وحياة الناس وحياة الدواب، حياة المخلوقات، وهو الذي خلق ما دب على الأرض من سائر الدواب ورزقها، تكفل برزقها، وعلم تفاصيل أمورها، وهو الذي يصرف الرياح، وهو الذي يجري السحاب بين السماء والأرض ويسوقه محملًا بالماء، ثم يأمره فيمطر ما فيه من الماء على ما يشاء سبحانه من الأرض.

هذه كلها أدلة ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ووجوب عبادته وحده لا شريك له، ومع ذلك فإن ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾، وهذه الأنداد لا تساوي الله جَلَّ وَعَلَا، ولا تستحق العبادة، ولا تدبر شيئًا من هذه الأمور التي ذكرها، بل هي مدبرة مخلوقة، فقيرة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: غير الله. وقوله: ﴿يَتَّخِذُ﴾ هذا دليل على أن ليس عندهم أدلة، وإنما هم الذين اتخذوها بدون دليل وبدون شيء، والله جَلَّ وَعَلَا لم يشرع لهم عبادتها، وإنما هم الذين اتخذوها من عند أنفسهم من غير برهان ولا دليل على عبادتها ومحبتها.

والعجيب أنهم يتددون بها، أي: يجعلونها مساوية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع أن الله ليس كمثله شيء، لا مثل له ولا شبيه له، ولا ند له ولا كفء له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهم جعلوها ندًّا لله وأشركوها معه في العبادة والمحبة، ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾، يحبون هذه الأصنام وهذه الأوثان والأحجار والأشجار محبة شديدة، على أي شيء يحبونها؟! هل فيها شيء يقتضي أنها تحب؟! أبدًا، لا تحب ولا تبغض، ليس فيها شيء، مخلوقات جمادات أو حيوانات ليس فيها ما يقتضي أنها تجعل شريكة لله وشبيهة لله، وهي خلق من خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ والمحبة هي أعظم أنواع العبادة، المحبة على قسمين:

القسم الأول: المحبة التي معها ذل وخضوع للمحبوب، هذه محبة عبادة لا تجوز إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، المحبة التي معها ذل وخضوع للمحبوب هذه لا تجوز إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنها عبادة، والعبادة حق لله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا العلماء عرفوا العبادة فقالوا: العبادة هي غاية الحب مع غاية الذل(١)؛ ولهذا يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢):

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرِ رَسُولِهِ ... لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

هذا تعريف العبادة، غاية الحب مع غاية الذل والخضوع، ثم بقية أنواع العبادات تدور على المحبة، لما أحبوا الله جَلَّ وَعَلَا هذه المحبة عبدوه بجميع أنواع العبادات.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٦٩)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٢٥، ١٧/ ٥٦)، ومختار الصحاح (ص١٧٢). وانظر تعريف العبادة في: المسودة لآل تيمية (ص٣٨)، والتعريفات للجرجاني (١٨٩)، والتعاريف للمناوي (ص٤٩٨).

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٢٥٣).

هذه المحبة تسمى محبة العبادة، وهذه لا يجوز صرفها لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن صرفها لغير الله، وأحب غير الله مع ذله وخضوعه له، فقد أشرك بالله الشرك الأكبر المخرج من الملة، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

والنوع الثاني من المحبة: محبة طبيعية ليس معها ذل ولا خضوع؛ كما يحب الإنسان المال، ويحب الأولاد، ويحب زوجته، ويحب والديه، ويحب إخوانه، ويحب أصحابه. هذه محبة طبيعية ليس معها ذل ولا خضوع، وليست هي محبة العبادة، إنما هي محبة الاقتران والمصاحبة، محبة الاقتران والألفة والمصاحبة ليس فيها شرك؛ لأنها ليس معها ذل ولا خضوع؛ بل تسمى محبة طبيعية.

ومحبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي معها الذل والخضوع لله هذه محبة العبودية، الله جَلَّ وَعَلَا يحب عباده. الله جَلَّ وَعَلَا يوصف بأنه يحب عباده محبة رحمة وفضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ويحب المتقين. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، فالله يحب عباده المؤمنين والمتقين والمتطهرين والتوابين، ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

هذا من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الفعلية، وكذلك عباده المؤمنون يحبونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يحبونه حبًّا لا يساويه حب، أعلى المحبة، يحبون الله جَلَّ وَعَلَا، وهذه المحبة محبة العباد لله هي محبة العبادة والذل والخضوع.

ومحبة العبد لله لها علامات، ليس كل من ادعى أنه يحب الله يكون صادقًا؛ بل لابد من دلائل على محبة الله؛ أولها اتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ

تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣١، ٣٢]، هذه آية الامتحان، من ادعى أنه يحب الله، نظرنا فإن كان متبعًا للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو صادق، وإن كان مخالفًا للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو كاذب؛ لأن الله جعل علامة محبته سبحانه اتباع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، وهذه الآية نزلت في اليهود لما ادعوا أنهم يحبون الله جَلَّ وَعَلَا، الله أنزل هذه الآية يمتحنهم، ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾، فلما أبوا أن يتبعوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دل هذا على أنهم كاذبون في محبتهم لله، في دعوى محبتهم لله(١). وكذلك كل من ادعى غير اليهود، كل من ادعى أنه يحب الله فإن كان صادقًا، فلابد أن يتبع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا فإنه كاذب في دعواه في اليهود وغيرهم، هذه العلامة الأولى.

العلامة الثانية: أن يحب ما يحبه الله؛ أن يحب ما يحبه الله ومن يحبه الله، فيحب الأعمال الصالحة، يحب الإيمان، يحب الطاعات، فإذا أحب الطاعات وأحب العبادات وأحب التقرب إلى الله، فهذا دليل على محبته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وإن كان يكره الطاعات ويكره العبادات التي شرعها الله هذا دليل على أنه كاذب في دعواه، ولهذا يقول الشاعر(٢):

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٣٢٤-٣٢٧)، وزاد المسير (١/ ٢٧٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).
(٢) يُنسب لعبد الله بن المبارك. انظر: ديوانه (ص١٤٧، ١٤٨). وانظر أيضًا: طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٢٩٨).

فعلامة محبة الله أن تطيع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيما أمرك به، وأن تجتنب ما نهاك الله عنه، أما إن كنت تدعي محبة الله وأنت لا تطيعه هذا تناقض وهذا كذب.

وكذلك يحب من يحبه الله، وهذه هي المحبة في الله، المحبة في الله بأن تحب عباد الله الصالحين، وتواليهم، تحب المؤمنين، تحب المتقين، تحب الملائكة الكرام، تحب الأنبياء والمرسلين، تحب عباد الله الصالحين، هذه هي المحبة في الله جَلَّوَعَلَا.

وتبغض من يبغضهم الله من الكفار والمنافقين والعصاة، تبغضهم لأن الله يبغضهم، فأنت تبغض ما يبغضه الله، وهذا هو المعاداة في الله عَزَّوَجَلَّ، فتبغض ما يبغضه الله، والله عدو للكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١].

فأنت تبغض هؤلاء؛ لأن الله يبغضهم، لأنهم أعداء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا تحب الكفار، ولا تحب المنافقين، ولا تحب العصاة محبة خالصة؛ بل تحبهم من ناحية ما فيهم من الإيمان، وتبغضهم من ناحية ما فيهم من المعصية.

فالكفار والمنافقون يبغضون بغضًا خالصًا ليس معه محبة، والشياطين والكفرة تبغضهم بغضًا خالصًا ليس معه محبة.

أما فسقة المؤمنين وعصاة المؤمنين فأنت تحبهم لما معهم من الإيمان، وتبغضهم لما معهم من المخالفات، هذه علامة محبة الله عَزَّوَجَلَّ أن تحب في الله وتبغض في الله، وتوالي في الله وتعادي في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وكذلك الأمر الثالث من علامات محبة الله أن تقدم ما يحبه الله على ما تحبه نفسك: أنت تحب المال، تحب الأولاد، تحب إخوانك، تحب بلدك، هذه محبة طبيعية -كما سبق-، ليست محبة عبادة، محبة طبيعية. لكن إذا قدمتها على محبة الله، فهذا دليل على أنك لا تحب الله سبحانه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٣، ٢٤].

فإذا قدم محبة هذه الأشياء على محبة الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه فاسق، خارج عن طاعة الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمن علامة محبة الله أن تقدم ما يحبه الله على ما تحبه نفسك، ولهذا جاء في الحديث: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(١)، هذه علامة محبة الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعلينا أن نزن أنفسنا مع هذه المحبة.

المحبة أمرها عظيم، لها علامات ودلالات تدل على وجودها أو عدمها، فكل إنسان ينظر نفسه مع محبة الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس كل من قال: أنا أحب الله يكون صادقًا حتى تتحقق فيه هذه الأدلة الدالة على صدقه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

نرجع إلى الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

للعلماء فيها قولان في تفسيرها ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[1]:

القول الأول: أن المشركين يحبون الله، ولكنهم يحبون معه غيره، فمحبتهم فيها شرك؛ لأنهم أحبوا الله، وأحبوا معه غيره.

ومن عبد الله وعبد معه غيره، فهو مشرك، ومن أحب الله وأحب معه غيره، فهو مشرك، وهذه تسمى المحبة مع الله، محبة الشرك.

فالمشركون يحبون الله، ويعترفون بنعمه، ويعترفون بربوبيته، فيحبونه من أجل ذلك، لكنهم يحبون معه غيره، ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ أي: كما يحبون الله، هذا شرك.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من المشركين لله، المشركون يحبون الله والذين آمنوا يحبون الله، ولكن محبة المؤمنين أشد من محبة الكفار لله، لماذا؟ لأن محبة الكفار لله مشتركة، ومحبة المؤمنين لله خالصة، لا يحبون معه غيره، فصارت محبتهم لله أشد من محبة المشركين لله.

فهذا فيه دليل على أن المشركين يحبون الله، ولكن لما أحبوا معه غيره صاروا مشركين، كمن عبد الله وعبد معه غيره، لا تنفعه عبادته لله، وكذلك هؤلاء

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٦-١٨)، وزاد المسير (١/ ١٣٠)، والقرطبي (٢/ ٢٠٣-٢٠٦)، وابن كثير (١/ ٤٧٦).

لا تنفعهم محبتهم لله ما داموا لم يخلصوها لله عَزَّوَجَلَّ كما أخلصها المؤمنون، هذا المعنى الأول.

والمعنى الثاني: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أن المشركين يحبون أصنامهم محبة شديدة كما يحب المؤمنون الله جَلَّوَعَلَا. على هذا المعنى المشركون لا يحبون الله، وإنما يحبون أصنامهم محبة تعادل محبة المؤمنين لله عَزَّوَجَلَّ.

والمعنى الأول هو الصحيح، المعنى الأول أن المشركين يحبون الله ويحبون معه غيره، فصارت محبتهم لله شركية، هو المعنى الصحيح، وهو الذي يتمشى مع سياق الآية الكريمة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من محبة المشركين لله؛ لأن محبة المشركين غير خالصة لله، محبة المؤمنين خالصة لله سبحانه.

ثم بين سبحانه مصير المشركين يوم القيامة، وما ينتهى إليه أمرهم مع هذه المحبوبات التي أحبوها مع الله أو أحبوها بدلًا من محبة الله -على المعنيين-، ماذا يكون مصيرهم يوم القيامة؟

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، من هم الذين ظلموا؟ الذين أحبوا هذه المعبودات من دون الله، لماذا ظلموا؟ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه[1]، فهم وضعوا المحبة في غير موضعها، فصاروا ظالمين، والشرك ظلم،

(١) انظر: غريب الحديث لابن قُتَيْبَةَ (٢/ ٨٤)، ولسان العرب (١٢/ ٣٧٣)، والقاموس المحيط (ص١٤٦٤)، ومختار الصحاح (ص١٧٠).

الشرك ظلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] لأنه وضع للعبادة في غير موضعها، هذا هو الظلم.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: الذين أحبوا الأصنام والمعبودات من دون الله، لو تصوروا مصيرهم يوم القيامة وما يؤول إليه أمرهم، لتركوا عبادة غير الله، ولتركوا محبة الأصنام، لكنهم لن يتصوروا؛ لأنهم ليس عندهم إيمان باليوم الآخر وما يكون فيه.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، يوم القيامة يعاينون العذاب، أما في هذه الدنيا فإنهم لا يعاينون ما في الآخرة من العذاب.

لكن أخبرت عنه الرسل عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهم لا يصدقون الرسل، ولذلك تمادوا في غيهم، أما الذين صدقوا الرسل، فإنهم استعدوا ليوم القيامة، وأفردوا الله جَلَّ وَعَلَا بالمحبة والعبادة.

أما هؤلاء فإنهم ركبوا رؤوسهم، واتخذوا معبودات من دون الله عَزَّوَجَلَّ أحبوها، هذه المحبة التي بينهم وبين معبوداتهم في الدنيا تنقلب عداوة يوم القيامة.

فكل من أحب غير الله جَلَّ وَعَلَا فإن محبته لذلك الغير يوم القيامة، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن خليله إبراهيم: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧]، ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ

بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٥].

في يوم القيامة يتبرأ المعبود غير الله ممن عبده، وتقع بينهم العداوة، ويتلاعنون يوم القيامة، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٣٨، ٣٩]، هذا مصيرهم يوم القيامة، يتلاومون ويتلاعنون ويتباغضون -والعياذ بالله -، يتباغضون يوم القيامة، تنقلب هذه المحبة عداوة.

فالذي عبد الشيطان الشيطان يتبرأ منه يوم القيامة، ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٢٢].

هذا ما يقوله الشيطان يوم القيامة لأتباعه، يتبرأ منهم، ويقول: أنتم الذين أهلكتم أنفسكم، أنا لم أجبركم على اتباعي، إنما دعوتكم فقط، ولم أجبركم، ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ [إبراهيم:٢٢]، هذا موقف الشيطان يوم القيامة من أتباعه.

الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عُبدوا من دون الله، عبدهم المشركون، في يوم القيامة يتبرؤون ممن عبدهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ يعني: الشياطين، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ:٤٠-٤٢].

وكذلك الأولياء والصالحون يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥، ٦]، الذين يعبدون القبور الآن ويعبدون الأولياء والصالحين والحسين وعبد القادر الجيلاني وإلى آخره والبدوي، يوم القيامة يتبرأ منهم هؤلاء في أصعب مكان، يتبرؤون منهم، بل لا يكفي أنهم يتبرؤون منهم؛ بل يعادونهم، هذه المحبة -﴿أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾- تصير يوم القيامة بغضًا، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ أموات لا يسمعون، أو جمادات أحجار وأشجار لا تسمع، ولو سمعت لا تستطيع الإجابة، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ ولا يكفي هذا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]. يوم القيامة يتبرؤون منهم، في الدنيا ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لا يقدرون على الإجابة، وفي الآخرة يكفرون بشرككم، يعني: يجحدونه، يقولون: أبدًا، نحن لم نأمركم أن تعبدونا. فالذين عبدوا المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله في يوم القيامة يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ

قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة:١١٦-١١٩]، هذا موقف المسيح عيسى ابن مريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن عبدوه في الدنيا، وقالوا: هو الله، أو هو ابن الله، أو هو ثالث ثلاثة، يوم القيامة يتبرأ من هؤلاء، ويصدقه الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة:١١٩]. يتبرؤون، كل المعبودات من دون الله تتبرأ؛ الملائكة، الأولياء والصالحون، الرسل، حتى إبليس، حتى إبليس يتبرأ كما سمعتم في الآية.

﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ يعني: لو يعلمون، يرى يعني: يعلم، ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ أي: أشركوا بالله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الدنيا، ﴿ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ ﴾ يوم القيامة، ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ ﴾ القوة لله جَلَّ وَعَلَا.

﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ ﴾ في يوم القيامة يعرفون أن القوة كلها لله، وكل مخلوق فهو ضعيف، وهؤلاء الذين عبدوهم هم فقراء، ضعفاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾، لا يوجد أشد من عذاب المشرك يوم القيامة، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢].

هل بعد هذا تحذير؟! الله حذر عباده في الدنيا، أقام عليهم الحجة، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ يرى يعني: في المستقبل يوم القيامة، لو يعلمون ما أمامهم، لما أهلكوا أنفسهم، فعبدوا غير الله في هذه الدنيا.

﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين يرون العذاب يوم القيامة، وليس لهم منه مخرج ولا محيص، يوم القيامة ليس لهم مخرج من العذاب ولا محيص، ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣].

﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾ سبحانه، وأما هذه المعبودات، فإنها ضعيفة ليس لها قوة، هي ضعيفة في أنفسها، لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًا، فكيف تملك ذلك لغيرها؟!

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ والعياذ بالله! لا يوجد أشد من عذاب من أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ تبرأ الذين اتبعوا على الباطل، فكل من اتبع أحدًا على الباطل، فإن هذا المتبوع يتبرأ منه يوم القيامة.

دعاة الضلال الذين يدعون إلى الشرك، يدعون إلى التمرد على دين الله، يدعون إلى الإباحية والسفور اليوم، يدعون إلى الانحطاط والخروج من الدين، من استجاب لهم، فإنهم يوم القيامة يتبرؤون منه.

إذا عاين العذاب ووصل النار هؤلاء دعاة الضلال يتبرؤون منه يوم القيامة، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ تبرأ المتبوعون على الضلال يتبرؤون ممن اتبعهم يوم القيامة.

نحن اتبعناكم في الدنيا أين نذهب؟ يقولون: نحن مشغولون بأنفسنا، ونحن لم نجبركم على أن تتبعونا، أنتم الذين اخترتم اتباعنا، كما قال رئيسهم وسيدهم الشيطان؛ كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم:٢٢].

فكل من اتبع أحدًا على الباطل في هذه الدنيا، فإن هذا المتبوع يتبرأ منه يوم القيامة، أحوج ما يكون إليه وأشد ما يكون إليه.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ هذا عام، اتبعوا في الشرك، اتبعوا في معصية الله، اتبعوا في تحريم الحلال وتحليل الحرام، اتبعوهم في معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الآية تشمل كل من اتبع أحدًا على الباطل، فإنه يتبرأ منه يوم القيامة.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ رأوا العذاب، عاينوه، في الدنيا لم يعاينوا عذاب الآخرة، إنما يخبرون عنه خبرًا أن الآخرة فيها نار، وفيها عذاب، وفيها عقاب، خبر جاء عن طريق الرسل عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

لكن هؤلاء لم يصدقوا الرسل، وقالوا: أبدًا، ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، ليس هناك آخرة، وليس هناك عذاب في الآخرة، هذا وهم، يقولون هكذا، لكن في الآخرة يعاينون ما أخبروا به في الدنيا، يعاينونه معاينة، ليس هناك مجال للشك، وليس الخبر كالمعاينة.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ما الذي يخلصهم من هذا العذاب؟ لم يعملوا أشياء في الدنيا تخلصهم من هذا العذاب.

الذي يخلص من هذا العذاب هو طاعة الله وطاعة رسله عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هذا الذي يخلص من العذاب، أما طاعة غير الرسل، فإنها لا تخلصهم يوم القيامة.

﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ تقطعت بهم الأسباب التي تنجيهم من هذا العذاب؛ لأنهم لم يتخذوا أسبابًا في حياتهم الدنيا تنجيهم من عذاب الله بالإيمان بالله ورسله واتباع دعاة الحق وهداة الحق، لم يتخذوا أسبابًا منجية، بل اتخذوا أسبابًا مهلكة، انقطعت يوم القيامة، وهؤلاء الذين أحبوهم في الدنيا انقطعت المحبة، وصارت عداوة، إذًا لا مخرج لهم من النار، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:١٦٧]؛ أعمالهم التي في الدنيا، وهي الشرك والكفر واتباع المعاصي والشهوات المحرمة، يريهم الله إياها يوم القيامة؛ لأنها محصاة عليهم ومكتوبة عليهم في الدواوين، لا مجال لأن ينكروها.

يريهم الله أعمالهم التي عملوها في الدنيا من أجل الزيادة في تعذيبهم -والعياذ بالله-، ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾، هذه زيادة عذاب، لايدخلهم النار على الفور، وإنما يريهم أعمالهم السيئة القبيحة لأجل الزيادة في تحسرهم -والعياذ بالله!

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾، والأشد من ذلك: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنهم لم يأتوا بشيء يخرجهم من النار، لم يقدموا شيئًا يخرجهم من النار -والعياذ بالله!

النار لا ينجي منها إلا تقوى الله، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٦٨-٧٢]، فلا ينجي من النار يوم القيامة إلا تقوى الله ومحبة الله جَلَّ وَعَلَا والإخلاص له، هذا هو الذي ينجي من النار.

حتى لو عذب المؤمن في النار بسبب معاص وسيئات، فإنه يخرج منها، لا يخلد فيها كما صحت بذلك الأحاديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المؤمن وإن دخل النار بذنوبه، فإنه يعذب بها ما شاء الله، ثم يخرج منها، وإن شاء الله، غفر له، ولم يدخل النار أصلًا[1].

أما هؤلاء فإنهم ليسوا بخارجين من النار، لا مطمع لهم في الخروج من النار، فدلت هذه الآية على أن المشرك خالد مخلد في النار، وأن الكافر خالد مخلد في النار لا يخرج منها أبدًا، نسأل الله العافية والسلامة!

فهذه آيات عظيمة -يا عباد الله-، والله! آيات عظيمة تصور لكم المصير يوم القيامة وماذا يكون لمن عصوا الله وتكبروا عن طاعته وعصوا رسله، ماذا

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٧٨٤)، ومسلم (١٧٠٩)، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ: **بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا** وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ كُلَّهَا **فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ**».

يكون مآلهم يوم القيامة؟ ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، ليس لهم طمع في الخروج، خالدون مخلدون في النار -نسأل الله العافية -، هذه عاقبتهم وهذا مآلهم وهذا مصيرهم.

فعلينا أن نتفكر -يا عباد الله-، نتدبر القرآن، نتدبر هذه الآيات وغيرها من كتاب الله؛ حتى نستعد لهذا اللقاء وهذا اليوم العظيم الذي لا ينجي منه إلا تقوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واتباع رسله وعباده المتقين.

نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يرينا وإياكم الحق حقًا وأن يرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه!

نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يحفظ لنا ديننا، وأن يحفظ لنا أمننا واستقرارنا، وألا يسلط علينا بذنوبنا من لا يخافه ولا يرحمنا!

نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يصلح ولاة أمورنا، وأن يجعلهم هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، وأن يصلح لهم البطانة، وأن يبعد عنهم بطانة السوء والمفسدين، وأن يصلح أحوال المسلمين في كل مكان، وأن يولي عليهم خيارهم، وأن يكفيهم شر شرارهم!

نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأسمائه وصفاته أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، ويخذل أعداءه، وينصر أولياءه!

اللهم انصر من نصر الدين، واخذل من خذل الدين!

اللهم اكفنا شر الأعداء والحاسدين!

اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، وتب علينا إنك انت التواب الرحيم!

اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين!

اللهم اجعل اجتماعنا اجتماعًا مرحومًا، وتفرقنا تفرقًا معصومًا، ولا تجعل فينا ولا منا شقيًّا ولا محرومًا، واغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

التوحيد الذي دعت إليه الرسل

خلق الله الجن والإنس لعبادته وحده لا شريك له، لم يخلقهم ليتقوى بهم أو ليتعزز بهم، أو خلقهم لأنه محتاج إليهم، كلا؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غني عن خلقه، ولكنه خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، وهو ليس بحاجة إلى عبادتهم، وإنما هم محتاجون إلى أن يعبدوا الله عَزَّ وَجَلَّ.

فمنفعة العبادة راجعة إليهم، وهذا من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه شرع لهم عبادته لتكون صلة بينهم وبينه، يتقربون إليه بحوائجهم ودعواتهم وصلواتهم وعباداتهم؛ ليغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئات، وليدخلهم جناته ويعيذهم من عذابه وناره.

فمصلحة العبادة وفائدتها ومنفعتها ترجع إلى العباد، أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه غني عنهم وعن عبادتهم، فلو كفر جميع الخلق، فلن ينقص ذلك من ملكه شيئًا، ولا يضره كفر من كفر، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨]، وفي الحديث القدسي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فتبين بهذا أن مصلحة العبادة ومنفعتها وفائدتها ترجع إلى العباد، وأما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه غني عنها، وإنما أمرهم بها وخلقهم من أجلها من أجل إيصال النفع إليهم ورحمة بهم ومحبة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بأن يتكرم على عباده ويعفو عنهم إذا هم عبدوه واستغفروه وتابوا إليه ورجعوا إليه؛ لأنه رحيم بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يرضى لهم الكفر ولا يحبه لهم، وإنما يرضى لهم التوحيد والعبادة والتوبة والاستغفار.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢]، في هذه الآية ينادي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جميع الناس، جميع البشر -عربهم وعجمهم، أسودهم وأبيضهم- بجميع أجناسهم وجميع شعوبهم، يناديهم جميعًا ويوجه إليهم أمرًا واحدًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، فالعبادة لا تصلح إلا للرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، العبادة لا تصلح إلا للخالق، لا تصلح للمخلوق.

الخالق الذي سخر لكم هذه الكائنات لمصالحكم ومنافعكم بسمائها وأرضها وبحارها وأنهارها وبرها وبحرها سخرها لمنافعكم، خلقكم أولًا ثم سخر لكم هذه الأشياء، هذا هو الذي يستحق العبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما العاجز المخلوق الفقير المحتاج، هذا لا يصلح للعبادة، ولا ينفعكم شيئًا، من عبد غير الله، فإن عبادته لا تنفعه شيئًا، وإنما تضره وتبعده عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]: أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَقَضَىٰ﴾

معناه: أمر ووصى[1]، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أيها الناس، ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: ولا تعبدوا غيره.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، والآيات كثيرة في الأمر بعبادة الله والنهي عن الشرك، كثيرة كلها تدل على مدلول واحد؛ أن العبادة لا تصلح إلا لله، وأن العبادة لا تكون عبادة صحيحة إلا إذا كانت سالمة من الشرك، بمعنى أن تكون خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤]. وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢، ٣]. ومعنى ذلك أن الإنسان لا يكفي منه أن يعبد الله حتى يخلص العبادة لله، بمعنى أن يتبرأ من عبادة غيره، فإن جمع الإنسان بين عبادة الله وعبادة غيره، فإن عبادته لله تكون باطلة؛ لأنه لم يخلص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا عبد الله وعبد معه غيره، أو دعا الله ودعا معه غيره، أو استغاث بالله واستغاث بغيره من الموتى والأولياء والصالحين أو الجن أو الإنس، من تقرب إلى الله جَلَّوَعَلَا وتقرب مع ذلك إلى غيره، فإن عبادته تكون باطلة لا تنفعه شيئًا؛ لأن الشرك إذا خالط العبادة أبطلها وأفسدها، كالحدث إذا خالط الطهارة، فإنه يبطل الطهارة، فالتوحيد طهارة والشرك مثل الحدث يبطل الطهارة، فلو أن إنسانًا يدعو الله ويصلي ويصوم ويحج ويتصدق ويكثر من العبادات لكنه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٤١٣)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ١٣٩)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٦٤).

يدعو غير الله، ويذبح لغير الله، وينذر لغير الله، ويتقرب إلى غير الله، فإن عبادته لله تكون باطلة لا تنفعه شيئًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، فالشرك لا يصح معه عمل مهما كان، لا تسمى العبادة عبادة لله إلا إذا سلمت من الشرك الأكبر والأصغر؛ كما سبق في أول الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]؛ إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الخلق لحكمة وغاية واحدة وهي عبادته وحده لا شريك له، وكان الناس من عهد آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على التوحيد، كان الناس من عهد آدم على التوحيد يعبدون الله مخلصين له الدين، ولم يكن هناك شرك في عهد آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن بعده إلى عشرة قرون؛ كما ذكر ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن الناس ما زالوا على التوحيد من عهد آدم إلى أن جاء عهد قوم نوح، وبين نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبين آدم عشرة قرون كلهم على التوحيد(١).

وأول ما حصل الشرك في بني آدم كان بسبب الغلو في الصالحين، وذلك أن قوم نوح كان فيهم رجال صالحون؛ كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]، قال: هذه أسماء رجال صالحين كانوا في قوم نوح، ماتوا في عام واحد، فحزن عليهم قومهم وفقدوهم، حزنوا عليهم حزنًا شديدًا، فجاءهم الشيطان واستغل عاطفتهم واستغل فرصة

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٦٢١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣]».

حزنهم على هؤلاء الصالحين الذين ماتوا، وقال لهم: صوروا صورهم وانصبوها على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها حتى إذا رأيتم صورهم تتذكرون أحوالهم وتنشطون على العبادة(١).

هكذا جاءهم -لعنه الله- بطريق النصيحة والترغيب في الخير، وزين لهم تصوير صور هؤلاء الموتى، وأن تنصب هذه الصور، بمعنى أنها تعلق أو تثبت على أشياء عالية، حتى إذا رأوا صورهم نشطوا، تذكروا أحوالهم فنشطوا على العبادة. هذا كان قصدهم في الأول، ففعلوا ونفذوا هذه الفكرة، صوروا صور الصالحين، ونصبوها على مجالسهم، ولم تعبد في أول الأمر حتى انقرض الجيل الأول الذي صور هذه الصور انقرض وفقد العلم، جاء جيل متأخر بعد هؤلاء جهال ليس عندهم علم، لأن العلماء قد انقرضوا وماتوا، فجاء الشيطان إلى هذا الجيل المتأخر الجاهل، وقال لهم: إن آباءكم لم ينصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر. هكذا جاء الشيطان مرة ثانية إلى بني آدم، وزين لهم عبادة هذه الصور ورغبهم فيها، وقال: إن التقرب إليها وعبادتها تحصل لكم الأرزاق وتدر لكم المطر. وكانوا قومًا جهالًا لايعرفون التوحيد، وليس هناك علماء ينهونهم، فقبلوا هذه الفكرة الشيطانية، وصاروا يتقربون إلى هذه الصور،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ».

واعتبروها آلهة يعبدونها، فحينئذ حدث الشرك في الأرض، وكان سببه التصوير، وكان سببه -أيضًا- الغلو في الصالحين، فعند ذلك لما حدث الشرك في الأرض، بعث الله نبيه نوحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هؤلاء القوم يدعوهم إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ.

لما انحرفوا عن الفطرة وغيروا دين آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -الذي هو دين التوحيد- إلى دين الشرك، أرسل الله إليهم نبيه ورسوله نوحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أول الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أول الرسل، وسبب رسالته وبعثته هو أن الشرك حدث في الأرض بسبب الغلو في الصالحين، فدعاهم إلى توحيد الله وامتنعوا من الإجابة، امتنعوا من الاستجابة، وأصروا على الشرك؛ لأن الشرك قد تمكن من قلوبهم، ولم يستجب لنوح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا عدد قليل، والكثير استمروا على الشرك، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى توحيد الله -كما قص الله ذلك في القرآن-، ويحذرهم من الشرك، ولكنهم أبوا وتمردوا، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح:٢٣]، ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح:٢٢-٢٣].

عرفنا ما المراد بهذه الأسماء، وما السبب في عبادتها واتخاذها آلهة من دون الله؛ أن هذا كله بسبب الشيطان وإغوائه لبني آدم، فعند ذلك أوحى الله إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦]، وأمره الله بصناعة السفينة، فصنعها بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ثم أمره الله أن يحمل فيها المؤمنين، وكانوا قليلًا، ويحمل فيها من كل زوجين اثنين، ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلكهم

بالطوفان الذي هو الماء الذي عم وجه الأرض وغطى الجبال، والتقى ماء السماء وماء الأرض؛ الأمطار التي سخرها الله عليهم، الأمطار من السماء والعيون من الأرض، فجر الله عليهم العيون من الأرض؛ كما قص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك في القرآن: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١، ١٢]. ونجى الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نوحًا ومن معه من المؤمنين في السفينة، وأغرق كل أهل الأرض بسبب الشرك والكفر بالله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم ما زالت الرسل من بعد نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تتواصل وتتابع، كلما مات نبي خلفه نبي آخر يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ويدعو إلى توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، ما زالت الرسل تأتي من عند الله، حتى جاء عهد الخليل إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ بدعوة التوحيد والنهي عن الشرك، وكسر الأصنام بيده، وابتلي في الله عَزَّ وَجَلَّ الابتلاء العظيم، وصبر على ذلك.

وهاجر إلى بلاد الشام، وجعل بعض ذريته هناك، وجاء ببعض ذريته الآخر إلى هذا الوادي في مكة المكرمة بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ الذين هم هاجر وإسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، جاء بهم إلى هذا الوادي، وبقية ذريته كانوا في بلاد الشام في فلسطين ببيت المقدس.

وما زالت الرسل -أيضًا- بعد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تأتي من ذريته -من ذرية إبراهيم-، كل الرسل الذين جاؤوا بعد إبراهيم فإنهم من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

فالرسل الذين جاؤوا بعد إبراهيم كلهم يدعون إلى التوحيد، وكلهم من

ذرية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، من ذرية إسحاق بن إبراهيم، إلا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه من ذرية إسماعيل بن إبراهيم.

وما زال الناس على التوحيد، ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما زالت منتشرة في هذه البلاد -في بلاد العرب-، كانوا على دين أبيهم إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كان فيهم التوحيد والعبادة لله عَزَّ وَجَلَّ، إلى أن حدث الشرك في بلاد العرب، وغُير دين إبراهيم من التوحيد إلى الشرك، وذلك بسبب أن زعيمًا من زعماء بلاد العرب -وخصوصًا في هذه البلاد- يقال له: عمرو بن لحي الخزاعي كان زعيمًا في هذه البلاد -في بلاد الحجاز-، وكانت له السيادة عليهم، وكان مشهورًا بالنسك والتنسك والعبادة، ولكنه مرض، فذهب إلى الشام ليتعالج هناك، فوجد في الشام الأصنام تعبد من دون الله، فدخل في نفسه شيء من الفتنة والتأثر بدين المشركين -والعياذ بالله-، فجلب الأصنام إلى بلاد العرب، وجلبها من الشام إلى هذه البلاد؛ لأنه استحسنها.

ومن ذاك الوقت انتشر الشرك في هذه البلاد، وخصوصًا حول الكعبة وبلاد الحجاز، وغُير دين إبراهيم على يد هذا الطاغية عمرو بن لحي الخزاعي، هو أول من غير دين إبراهيم وسيب السوائب والحوامي، ونشر الشرك في جزيرة العرب(١).

حتى إن الأصنام انتشرت على الكعبة المشرفة، فكان على الكعبة المشرفة

---

(١) انظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (٢/ ٢٣٢). وأخرج البخاري (٣٣٣٣)، ومسلم (٥١) (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ**».

ثلاثمائة وستون صنمًا[١]، وعلى الصفا والمروة، وحتى إنه في كل بيت من بيوت العرب لهم صنم يعبدونه من دون الله.

انتشر الشرك في هذه البلاد بعد أن كانت على دين إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فعند ذلك تدارك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته العالم، فبعث نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه البلاد ومن بلاد مكة ومن حول البيت العتيق، بعث الله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم الرسل وإمام الأنبياء، بعثه بالتوحيد والدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والدعوة إلى ملة إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحنيفية ملة التوحيد، فكانت بعثته رحمة للعالمين؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا إلى ما دعت إليه الرسل من قبله، إلى توحيد الله، وإلى ترك عبادة الأصنام التي انتشرت في الأرض؛ لأن الرسل دعوتهم واحدة من أولهم إلى آخرهم، كلهم يدعون إلى التوحيد، إلى رد الناس إلى عبادة الله التي خلقوا من أجلها والتحذير من الشرك الذي هو سبب شقائهم وبلائهم وخسارتهم في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فكل رسول يدعو أول ما يدعو الناس إلى عبادة الله التي خلقهم الله من أجلها، وينهاهم عن الشرك الذي هو سبب شقائهم وبلائهم وهلاكهم في الدنيا والآخرة من أولهم إلى آخرهم.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٤٧٨، ٤٢٨٧، ٤٧٢٠)، ومسلم (١٧٨١) عنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ، وَحَوْلَ البَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِائَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩]».

محمد ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله، وبقي في مكة ثلاث عشرة سنة بعد البعثة يدعو الناس إلى أن يقولوا: لا إله إلا الله، بمعنى أن يفردوا الله تعالى بالعبادة، وأن يتركوا عبادة الأصنام، فاستجاب له من أراد الله له السعادة من السابقين الأولين إلى الإسلام، آمن به من آمن، ولكنهم عدد قليل، ولكن الملأ والكثير من الناس ومن أهل مكة بالذات ومن غيرهم استمروا على الشرك، ولما دعاهم إلى التوحيد قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص:٥-٨](١)، فقابلوا دعوة الرسول ﷺ بالإنكار والتكذيب والإصرار على الشرك، إلا من شاء الله له النجاة ممن أسلم وقبل الإسلام من الصحابة الذين أسلموا وصبروا وأوذوا في الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم إن الله أذن لرسوله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة، أذن الله لرسوله وللمسلمين بالهجرة من مكة إلى المدينة فرارًا بدينهم وعقديتهم، فهاجر

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٩٠، ١٠/ ٢٣٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٩٤)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٧٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٣٣٢)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٤٥٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٩)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣١٦) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ فَجَاءَتْهُ قُرَيْشٌ، وَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كَيْ يَمْنَعَهُ قَالَ: وَشَكَوْهُ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟ قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ العَجَمُ الجِزْيَةَ. قَالَ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ: كَلِمَةً وَاحِدَةً، قَالَ: يَا عَمِّ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالُوا: إِلَهًا وَاحِدًا مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ. قَالَ: فَنَزَلَ فِيهِمُ القُرْآنُ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:٢] -إِلَى قَوْلِهِ-: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص:٧]».

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهاجر أصحابه إلى المدينة، وهناك تكونت دولة الإسلام دولة التوحيد، وشرع الله الجهاد.

كانت الدعوة في مكة دعوة بلا جهاد؛ لأن المسلمين كانوا مستضعفين، لكن لما هاجروا إلى المدينة، ووجدوا الأنصار هناك، وتكونت لهم قوة وبلاد تحميهم عند ذلك شرع الله الجهاد، وما هي إلا سنوات قليلة حتى جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتائب الإسلام وجنود التوحيد في السنة الثامنة من الهجرة لفتح مكة المشرفة، فنصره الله، ودخلها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانتصر على من خالفه، ودخل بلد الله الأمين الحرام ظافرًا منتصرًا حوله جنود التوحيد.

كان قبل سنوات خرج منها مختفيًا ليس معه إلا صاحبه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخرج مختفيًا، وكان المشركون يطلبونه من كل طريق، وما هي إلا ثمان سنوات حتى جاء ومعه الجيش الجرار من جنود التوحيد وكتائب الإسلام.

ولما دخل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكعبة المشرفة، أزال ما فيها من الصور التي يذكرون أنها لإبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فأمر بماء من زمزم، فغسلت وأزيلت(١)، وهكذا طهر الله البيت العتيق على يد خاتم النبيين وإمام المرسلين

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٦٠١، ٣٣٥١، ٣٣٥٢، ٤٢٨٨) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ وَفِيهِ الآلِهَةُ، فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأَخْرَجُوا صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي أَيْدِيهِمَا الأَزْلَامُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **قَاتَلَهُمُ اللهُ، أَمَا وَاللهِ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا قَطُّ. فَدَخَلَ الْبَيْتَ، فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِيهِ، وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ**».

وأخرج البخاري (٢٤٧٨، ٤٢٨٧، ٤٧٢٠)، ومسلم (١٧٨١) عنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ، وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِائَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ =

محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أزال الأصنام التي على الصفا والمروة والتي في مكة، ثم بعث السرايا للأصنام التي حول مكة كاللات والعزى ومناة وغيرها من الأصنام، فحطمت وكسرت، وظهر دين الله عَزَّوَجَلَّ، وظهر دين التوحيد وقمع الله الشرك وأهله، واستقرت الحنيفية ملة إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأعاد الله ملة إبراهيم ملة التوحيد على يد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هكذا رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده، يرسل الرسل من عهد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى خاتم النبيين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعون إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وتخليص الناس من الشرك وردهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قام بالأمر بعده صحابته الكرام خلفاؤه الراشدون، فساروا في البلاد شرقًا وغربًا يدعون إلى التوحيد ويأمرون بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، ويجاهدون في سبيل الله، حتى فتحوا المشارق والمغارب، وأسسوا المساجد في مختلف بقاع الأرض على التوحيد وعبادة الله وحده لاشريك له، وانتشر دين الله عَزَّوَجَلَّ انتشارًا معجزًا؛ لأنه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبتأييد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا يعجزه شيء.

انتشر هذا الدين انتشار الشمس في مشارق الأرض ومغاربها حتى بلغ ما يبلغ الليل والنهار، وتحقق قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣].

= يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ:٤٩]».

وما زال الناس على التوحيد بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي عهد القرون المفضلة التي أثنى عليها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»، قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟»[١]، ثم بعد القرون المفضلة دخل على الأمة شيء من الشبهات ومن الأمور المنكرة التي أخبر عنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[٢].

حدث ما تخوفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأمة بعد انقضاء القرون المفضلة، فجاءت الشبهات حول التوحيد، وجاءت الأمور التي كانت تأتي إلى الأمم السابقة التي كان الشيطان يدسها، كان الشيطان وجنوده يدسونها على الموحدين، فحدث الشرك في ملة الإسلام، حدث الشرك حول القبور وحول الأضرحة بدعوى أنهم أولياء لله، وأنهم وسائط بين الناس وبين الله لقضاء حوائجهم وفي رفع دعواتهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فصاروا يتقربون إلى الموتى وإلى القبور ويبنون الأضرحة، وقد حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[٣]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥)، وأبو داود (٤٦٥٧)، والترمذي (٢٢٢١) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد في المسند (٢٨/ ٣٧٣)، والدارمي (٩٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٠، ٢/ ٤٩٦)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٩)، وفي الأوسط (١/ ٢٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٣٤٥٣، ٤٤٤٣، ٥٨١٥)، ومسلم (١٩) (٥٢٩) عن عائشة =

الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(١)، وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«لَا تَدَعْ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»**(٢)؛ لأن البناء على القبور والغلو في الصالحين هو السبب الذي حدث به الشرك في قوم نوح ومن جاء بعدهم، وهو السبب الذي حدث به الشرك في هذه الأمة؛ بسبب الغلو في الصالحين وبسبب البناء على القبور وبناء القباب عليها واتخاذها مساجد ومزارات ومحل للطواف وذبح القرابين ونذر النذور وغير ذلك.

ولكن رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ بعباده لا تزال ولن تزال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها؛ كما في الحديث: **«إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»**(٣)، فكان المصلحون والدعاة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، المصلحون من العلماء الذين يبعثهم الله عَزَّ وَجَلَّ،

= رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: **لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا**، قَالَتْ: فَلَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا».

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ النَّجْرَانِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي جُنْدَبٌ، قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: **إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٩) عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: «قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: **أَلَا أَبْعَثُكَ** عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ **أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**».

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٣٢٣)، والحاكم (٤/ ٥٦٧)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١/ ٢٠٨) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في كل فترة من الزمان يبعث الله من المصلحين من الدعاة إلى الله، من العلماء المحققين علماء هذه الأمة من يجدد للناس أمر هذا الدين، وينهى عن هذا الشرك، ويعيد للناس عقيدة التوحيد صافية نزيهة.

ولا يزال -والحمد لله- في الأمة الخير، وفيها من يدعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويبين للناس، وإن كان الشر قد كثر، ولكن الخير -والحمد لله- موجود، والدين -والحمد لله- موجود، والكتاب والسنة -والحمد لله- لا يزالان غضين طريين لمن أراد أن يرجع إليهما.

فالواجب على جميع المسلمين اليوم أن يتنبهوا لهذا الأمر، وأن يعرفوا أن التوحيد هو الأساس الذي تبنى عليه جميع الأعمال، وأن الله لا يقبل الأعمال إلا من أهل التوحيد الذين أخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وأن المشرك مهما عمل ومهما فعل، فإن عمله مردود عليه حتى يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]، والشرك -كما ذكرنا- هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، سواء صرفها لصنم، لتمثال، أو صرفها لشجرة، أو صرفها لقبر من القبور، أو صرفها لجني أو لإنسي، أو لولي من الأولياء، أو صالح من الصالحين، فإن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد، لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد -لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا، ولا صالحًا من الصالحين.

الدين لله عَزَّوَجَلَّ ليس لأحد فيه استحقاق، والعبادة حق لله عَزَّوَجَلَّ ليس لأحد فيها أي استحقاق.

فالواجب على المسلمين أن يتنبهوا لهذا الأمر، وأن يدرسوا عقيدتهم دراسة صحيحة، وأن يعرفوا العقيدة الصحيحة الصافية التي توصلهم إلى الله وإلى كرامته، وأن يحذروا مما يفسد هذه العقيدة ويكدر صفوها من الشركيات والبدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

هذا إذا كان الإنسان يريد النجاة لنفسه، أما إذا كان يريد أن يجاري الناس على ما هم عليه، وأن يقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، فله ما رضي لنفسه، لكن لا يسلم إلا من سلم لله قلبه وأخلص لله دينه، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين.

الثبات على الدين

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

فالعباد يمتثلون أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعملون بشريعته حتى يأتيهم ما يغير شيئًا من الأحكام الشرعية، فينتقلون من المنسوخ إلى الناسخ، هكذا فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والله جَلَّ وَعَلَا يشرع ما يشاء، الأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يشرع لعباده ما يشاء مما فيه مصلحتهم وخيرهم؛ لأنه أعلم سبحانه بمصالحهم، فيشرع لهم في وقت ما يصلح لهم في ذلك الوقت، ثم يشرع لهم في الوقت الآخر ما يصلح لهم في الوقت الآخر؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم عليم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وعلى العباد أن يمتثلوا ولا يعترضوا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أمرك أن تتوجه إلى بيت المقدس، توجه لأمر الله، أمرك أن تتوجه إلى الكعبة، توجه لأمر الله عَزَّ وَجَلَّ. والكل طاعة، الأول طاعة والثاني طاعة، أما أنك تقول: لا، أنا أبقى على الأول. هذا اعتراض على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهكذا فعلت اليهود، اليهود يريدون أن يبقوا على القبلة الأولى، وأن يبقى المسلمون على القبلة الأولى، ولا يتحولوا إلى القبلة الثانية -وهي الكعبة-، مع أن بيت المقدس والكعبة وجميع الكون لله سبحانه، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:١٤٢]، وقال

تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة:١٧٧]، ومن آمن بالله واليوم الآخر فإنه يدور مع أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهكذا كان رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأنبياء من قبله، وهكذا كان المسلمون، حتى إن طائفة من المسلمين في المدينة كانوا يصلون العصر إلى بيت المقدس -بقاء على ما كان-، فلما جاءهم مخبر يخبرهم أن القبلة حولت إلى الكعبة، استداروا وهم في الصلاة، استداروا من بيت المقدس إلى الكعبة امتثالًا لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(١).

وهكذا المؤمنون يدورون حيث أمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولايعترضون على الله جَلَّ وَعَلَا، لكن اليهود من عنادهم وحسدهم وبغيهم يريدون أن يبقوا على ما هم عليه، وذلك من الكبر والحسد لرسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين؛ لأنهم لا يعترفون بالإسلام، ولا يعترفون بمحمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لايعترفون به في الظاهر وإلا في الباطن، فهم يعرفونه كما يأتي، ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٦]، لكن في الظاهر لا يعترفون به صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كبرًا وعنادًا

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري -واللفظ له- (٤٠)، ومسلم (٥٢٥)، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ المَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ، أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ. قَالَ زُهَيْرٌ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ فِي حَدِيثِهِ هَذَا: أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾».

وحسدًا؛ لأنهم يريدون أن تكون الرسالة في بني إسرائيل ولا تكون الرسالة في بني إسماعيل، ومحمد ﷺ من بني إسماعيل، فهم يريدون أن تبقى الرسالة في بني إسرائيل، ولا تكون في بني إسماعيل، فهذا في غاية الكفر والعناد؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يرسل الرسل ويختار الرسل، وليست اليهود هي التي ترشح الرسل وتختار الرسل، بل الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يختار الرسل ويرسل الرسل، وهو أعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حيث يجعل رسالته.

فالذي دفع اليهود إلى هذا الكبر والإصرار على جحود الاستقبال للكعبة، وهم يعرفون من كتبهم أن محمدًا ﷺ سيبعث في آخر الزمان، وأن قبلته الكعبة، يعرفون هذا، ولكنهم يجحدونه. الله جَلَّ وَعَلَا أمر رسوله ﷺ أن يستقبل الكعبة، فامتثل أمر الله سبحانه، واستقبل الكعبة، واستقبل المسلمون معه الكعبة، وعند ذلك تأسف المسلمون على أمواتهم الذين ماتوا وهم يستقبلون بيت المقدس، وخافوا أن صلاتهم غير صحيحة، فأنزل الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس والذين ماتوا على ذلك؛ لأن هذا إيمان حيث امتثلوا أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم على حق في استقبالهم بيت المقدس؛ لأنه لم ينزل ما يغير هذا الاستقبال، فهم باقون على شرع الله عَزَّ وَجَلَّ قبل أن ينسخ، وصلاتهم صحيحة، وهذا هو الإيمان، سمى الله الصلاة إيمانًا.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، فهي محسوبة لكم عند الله جَلَّ وَعَلَا، ولكم أجرها، ومن مات على ذلك فإن أجره عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تخافوا على أمواتكم أنهم ماتوا وهم يستقبلون بيت المقدس،

فإن عملهم هذا عمل مشروع وعمل متقبل عند الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنهم كانوا على حق قبل أن تنسخ القبلة.

ولما كان اليهود مصرين على إنكار استقبال الكعبة في الصلاة، وحصل منهم ما حصل من الكلام القبيح في حق الله جَلَّ وَعَلَا وفي حق رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي حق جبريل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وقاحاتهم وغطرستهم، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ يعني: بيت المقدس، ﴿ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ ما هو السبب؟ يا سبحان الله! ما هو السبب؟ السبب أن الله جَلَّ وَعَلَا أمرهم بهذا، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:١٤٢]، وأنتم عباد، الواجب عليكم الامتثال وعدم الاعتراض على حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فليس هذا من عند محمد، وإنما هو من عند الله، وإنما محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد مأمور مبلغ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وانتم تعلمون هذا، ولكن الكبر والحسد هو الذي منعكم من إظهار الحق وامتثال الحق، فلما كانوا مصرين على هذا الكفر وهذا العناد وهذه الوقاحة، اعتراضهم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ أيها الرسول، يا محمد، أتيت بكل آية، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى.

﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ أي: بكل دليل وبكل برهان على صحة ما جئت به من استقبال الكعبة، لو أقمت لهم الأدلة والبراهين، لم يقبلوا.

فهذا فيه طمأنة للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه لا يكترث من اعتراضهم، ولا يعبأ بهم؛ لأن اعتراضهم ليس عن جهل، ليس عن جهل بالحق، وإنما

اعتراضهـم عن علم وعن معرفة، لكنهم لا يريدون الحق، والذي لا يريد الحق لا حيلة فيه مهـما حاولت معه، الجاهل يمكن الـذي لا يترك الحق عن جهل، هذا يمكن معالجته، يمكن قبوله للحق؛ لأنه يريد الحق، لكنه أخطأه عن جهل، فإذا بينت له، يقبل، لكن الـذي يعرف الحق وتركه هذا لا حيلة فيه، وليس هو بحاجـة إلى أدلة وبراهين؛ لأنه يعرف البراهـين ويعرف الأدلة، فلا تحاول معه مهما حاولت. هذه قاعدة، هذه قاعدة في الجدال والمناظرة أن الذي لا يريد الحق أنه لا حيلة فيه، ولا تنفع معه الأدلة، مهما حاولت -أيها الرسول- أو غيرك من العلماء، فالمعارض إذا كانت معارضته عن عناد، فإنه لا حيلة فيه، ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾، انظر: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾، هم معهم كتاب، يعرفون الحق لأنهم ليسـوا أميين وليسوا جهالًا، هم أهل كتاب وفي كتابهم التوراة والإنجيل أوصاف هـذا الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونعت هذا الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أوصافه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يستقبل الكعبة، هذا عندهم ليس خافيًا عليهم، فليسوا بحاجـة إلى أدلة؛ لأن الأدلـة عندهم، ولكنهم جحدوها، ومادام أنهم ليسـوا بحاجـة إلى الأدلة، فلا داعي لإيراد الأدلـة عليهم؛ لأنها لا تجدي فيهم، وهذه قاعدة في المناظرة مع أهل الباطل.

فإذا كانوا تركوا الحق وهم يعرفونه، فإنه لا فائدة من جدالهم وإقامة الأدلة لهم؛ لأنهم سيرفضونها مهما كانت؛ لأن صاحب الهوى لا يمكن أن تثنيه عن هواه، والأدلة تنفع في الذين لا يعرفون الحق وهم يريدونه، يريدون الحق لكنهم لا يعرفونه، فإذا بينت لهم الأدلة، قبلوا واستجابوا، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [فاطر:١٨].

فإذا كان المخالف يخشى الله، ويلتمس الحق، ولكنه خفي عليه، فهذا هو الذي تنفع معه الأدلة، أما إذا كان المخالف لا يخشى الله، ولا يخاف الله عَزَّوَجَلَّ، وليس جاهلًا بالأدلة، يعرفها لكنه تركها عن علم وعناد واستكبار، فهذا لا تتعب نفسك معه، إلا إن كان من باب إقامة الحجة عليه، أما أنه يقبل، فهذا بعيد كل البعد.

ومن عرف الحق ولم يقبله، فإنه يعاقب، يعاقب بالزيغ -والعياذ بالله-، قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [الصف:٥].

الذي يترك الحق وهو يعرفه هذا يصاب بالزيغ وعدم قبول الحق في المستقبل، وهذه صفة اليهود في الغالب، إلا من منَّ الله عليه منهم، منهم ناس يريدون الحق، ولذلك آمنوا بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. من أهل الكتاب من يريدون الحق، فلما بعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ آمنوا به، مثل سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومثل عبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومثل أناس من اليهود والنصارى دخلوا في الإسلام وحسن إسلامهم؛ لأنهم يريدون الحق، لكن غالب أهل الكتاب لا يريدون الحق.

وليس هذا خاصًا بأهل الكتاب؛ بل هذا عام في كل من اتصف بهذه الصفة من أهل الكتاب وغيرهم من الفرق الضالة وأصحاب الأهواء، هؤلاء لا يرجعون إلى الحق؛ لأنهم تركوه عن رغبة عنه وعدم قبول له، ورفضوه، فلن يرجعوا إليه؛ ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ ﴾؛ بكل دليل على أن

استقبال الكعبة هو الحق، وأنه هو الشريعة، وأنه ناسخ لاستقبال بيت المقدس، لو أقمت الأدلة على هذا، ما قبلوه، فلا تحاول معهم.

وهذا فيه تهدئة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب هداية الناس، فيشق عليه تركهم للحق، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف:٦].

﴿بَٰخِعٌ﴾ يعني: مهلك، من شدة حرصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هداية الناس، يشق عليه أنه يراهم على الكفر، وأنهم في طريقهم إلى النار، يشق عليه هذا، يريد لهم الهداية، ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٣]، هذه صفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالله جَلَّ وَعَلَا هدأ من روعه، وقال له: لاتكلف نفسك معهم، هؤلاء قوم لا يريدون الحق.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ أي: ما توجهوا إلى الكعبة؛ لأنه يمنعهم الحسد والكبر والهوى -والعياذ بالله.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المستحيل أنه يرجع إلى استقبال بيت المقدس بعدما حوله الله إلى الكعبة، هذا مستحيل أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجع إلى استقبال بيت المقدس؛ لأنه شرع نسخ، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد مأمور، وهذا فيه تأييس لليهود في أن الرسول يرجع إلى قبلتهم بعد أن حوله الله عنها إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والكعبة أسبق من بيت المقدس؛ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٦]، الكعبة أسبق من بيت المقدس، وهي بيت الله عَزَّ وَجَلَّ،

وهي قبلة إبراهيم الخليل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجع إلى بيت المقدس بعد أن حوله الله؟! هذا مستحيل، إلا لو أن الله أمره بذلك، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لايخرج عن أمر الله.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ هذا فيه دليل على أنه استقرت القبلة إلى الكعبة إلى يوم القيامة، وأنها لا تحول، هذا خبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن القبلة والاتجاه في الصلاة استقر إلى الكعبة إلى أن تقوم الساعة، وأنه ليس قابلًا للنسخ.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ هي قبلة منسوخة منتهية، وبيت المقدس له فضيلته، باقية فضيلته؛ الصلاة فيه عن خمسمائة صلاة فيما سواه[(١)]، ويستحب السفر إليه والصلاة فيه، فضيلته باقية، ولكن استقباله هذا نسخ، ليس معناه أن بيت المقدس صار ليس له قيمة، لا، المقدس هو المسجد الثالث، هو المسجد الثالث الذي يسافر للصلاة فيه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ**»، يعني: لا يسافر لأجل العبادة في مكان أو بقعة إلا إلى المساجد الثلاثة،؛ «**الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى**»[(٢)]، فحرمته باقية، وفضله باق، إلا أن القبلة حولت منه إلى الكعبة بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كلها مساجد لله، وكلها جهات لله عَزَّوَجَلَّ، والله يشرع لعباده ما يشاء، ولا اعتراض عليه.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢/ ٨٣)، والبيهقي في السنن الصغير (٢/ ٢١١)، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِائَةُ أَلْفٍ، وَفِي مَسْجِدِي أَلْفٌ، وَفِي مَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَمْسُمِائَةٍ**».

(٢) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ انظر! اليهود لايستقبلون قبلة النصارى، وهم أهل كتاب، والنصارى لا يستقبلون قبلة اليهود، وهم أهل كتاب. فهم مختلفون بينهم، قبلة النصارى إلى المشرق وقبلة اليهود إلى بيت المقدس، النصارى متمسكون بقبلتهم، لا يتحولون إلى قبلة اليهود، واليهود متمسكون بقبلتهم، لا يتحولون إلى قبلة النصارى، ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة:١٤٥]، فإذا كان بعضهم لا يتبع قبلة بعض، فكيف يتبعون قبلتك -أيها الرسول؟! إذا كانوا هم مختلفين بينهم، فكيف تطمع -أيها الرسول- أنهم يطيعونك ويستقبلون قبلتك؟!

صار الخلاف من طبيعتهم -والعياذ بالله-، صار الخلاف من طبيعتهم وسجيتهم فيما بينهم، مع أنهم يجمعون على عداوة المسلمين، اليهود والنصارى يجمعون على عداوة المسلمين، ولكنهم فيما بينهم -أيضًا- أعداء بعضهم لبعض.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ وهذا من عنادهم وكبرهم أنهم يتعصبون لما هم عليه، من طبيعتهم التعصب لما هم عليه، اليهود يتعصبون لقبلتهم، والنصارى يتعصبون لقبلتهم؛ لأنهم لا يريدون الحق، وإنما يريدون التعصب، فصار التعصب من طبيعتهم فيما بينهم، فلا يمكن أنهم يستقبلون قبلة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي الكعبة.

ثم قال الله سبحانه لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ يعني: لو أنك أطعتهم واستقبلت بيت المقدس نزولًا على رغبتهم -وحاشا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاشاه-، لكن هذا من باب الفرض من باب الافتراض،

وإلا فإنه معصوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن يطيعهم ويخالف أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن لو قدر أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطاعهم وخالف أمر الله، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توعده بأشد الوعد، وهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ انظر! لم يقل: شريعتهم؛ لأن ما هم عليه ليس شريعة، بعد نسخه لم يصر شريعة، كان في الأول شريعة، لكن لما نسخ، صار ليس شريعة؛ الهوى، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أي: ما هم عليه من الباطل والدين المنسوخ، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ من القرآن والوحي، لو خالفت ما جاءك من العلم من القرآن والسنة والوحي المنزل، واتبعت أهواءهم وأطعتهم، ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿إِذًا﴾ يعني: في هذه الحالة التي وافقتهم على الضلال تكون من الظالمين، والظلم وضع الشيء في غير موضعه.

فلو أطعتهم واتبعت رغبتهم وخالفت ما أمرك الله به، كنت من الظالمين، وضعت الشيء في غير موضعه، وأطعت غير الله جَلَّ وَعَلَا.

الطاعة لله، أنت وضعت الطاعة لغير الله، وضعتها لليهود والنصارى، هذا ظلم؛ وضع للشيء في غير موضعه، فالعبادة توضع في موضعها، لا توضع في غير موضعها، والطاعة توضع في موضعها، وهي امتثال أمر الله.

وهذا تنبيه للأمة المحمدية، تنبيه لها في أنها لا تنخدع باليهود والنصارى مهما أظهر اليهود لهم من اللباقة ومن التملق، فإن المسلمين لا يجوز لهم أن ينخدعوا بهم؛ لأن المسلمين على حق، واليهود والنصارى على باطل، فإذا

اطاعهم المسلمون، تركوا الحق وأخذوا بالباطل، وهذا يكثر وقوعه في المسلمين مع الأسف الآن، أن المسلمين يجارون اليهود والنصارى ولو على حساب دينهم، ويخالفون كثيرًا من أوامر دينهم إرضاء لليهود والنصارى. الله جَلَّ وَعَلَا أخبر أن من فعل هذا أنه من الظالمين، لو فعله الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرف الخلق، صار من الظالمين، فكيف بغيره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥]، هذا فيه تنبيه للمسلمين في أنهم لا يساومون على الحق الذي معهم؛ بل عليهم أن يتمسكوا به، ولا يلتفتوا إلى اليهود والنصارى.

الآن هناك من ينادي بمجاراة الدول، وعدم التخلف عن الركب -يقولون-، وأخذ ما عند اليهود والنصارى من العوائد القبيحة من أجل مجاراتهم ومن أجل العيش معهم، ونتنازل عن أمور ديننا من أجل التمشي مع الدول وفي ركب الدول الكافرة، هذا ظلم -والعياذ بالله!

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من الشرع المنزل، ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اللام لام القسم، هذا تأكيد.

وإذا فرض هذا في الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لو وقع منه -وحاشاه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كان من الظالمين، فكيف بغيره ممن يتنازل عن أمور دينه من أجل إرضاء اليهود والنصارى والمشي في ركابهم؟!

فهذه آية عظيمة، وفيها تنبيه المسلمين على التمسك بدينهم وعدم الإصغاء

إلى شبهات اليهود والنصارى؛ لأننا على الحق، وهم على الباطل، هم على الضلال، ونحن على الهدى، نحن على الكمال، وهم على النقص والفساد.

فكيف يتحول من منَّ الله عليه بالنعمة العظيمة بالحق الثابت والصراط المستقيم والأخلاق الطيبة، كيف يتحول ويجاري أسفل الخلق وأضل الخلق وهم اليهود والنصارى؟! كيف؟!

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ليس عندهم شرعهم، ليس عندهم إلا هوى، لو كان عندهم شرع، لاتبعوا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا الشرع اتباع محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما من خالف محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس عنده إلا هوى، من اليهود والنصارى وغيرهم حتى ممن ينتسب إلى الإسلام إذا خالف أمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه قد اتبع الهوى، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، الذي أنزله الله عليك وعلى أمتك، ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾ أي: في حالة اتباعك لهم، ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ثم قال جَلَّ وَعَلَا مبينًا وفاضحًا لليهود والنصارى أنهم لم يخالفوا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جهل بحاله ولا عن عدم معرفة بالحق، وإنما خالفوا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عناد واستكبار وإصرار على الباطل، وهم يعلمون أنه رسول الله حقًّا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهم اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ من يعرفون؟ يعرفون محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعرفون أن قبلته هي الكعبة، يعرفون هذا في كتابهم، ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ هل هناك واحد

لا يعرف ولده؟ هل هناك واحد من الناس لا يعرف ولده؟ أبدًا، حتى البهائم تعرف أولادها، لا أحد لا يعرف ولده، حتى البهائم تعرف، ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ يعرفون محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه على حق، وأن استقباله للكعبة شرع من الله، وأن استقبال بيت المقدس انتهى، يعرفون هذا حق المعرفة ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾، لا أحد يشك في ولده أنه ولده، أبدًا.

كذلك هم لا يشكون أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله، ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ هل بعد هذا الكلام كلام؟! فهم لم يخالفوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جهل به أو عدم معرفة به حتى يقال: لم يتبين لهم الدليل، ولم يتبين لهم البرهان. وإنما تركوه عن معرفة تامة تامة؛ ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ﴾ انظر! ﴿فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ﴾ لم يقل: وإنهم كلهم. لا، فريق منهم، وإلا فمنهم ناس طيبون قبلوا الحق وآمنوا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ﴾ من اليهود والنصارى، وهو فريق كثير ليس قليلًا، لكن منهم ناسًا طيبين، ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:١٩٩]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة:٨٣-٨٥]؛ كما حصل من النجاشي رَحِمَهُ اللَّهُ، وما حصل من

سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما حصل من عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخلق كثير من اليهود والنصارى يريدون الحق، وقبلوا الحق، وآمنوا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾، لم يعمم؛ بل قال: ﴿فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾، وهكذا المسلم لا يعمم الحكم على الناس، لا يعمم.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ يكتمون الحق، يكتمونه يعني: يجحدونه وهم يعرفونه، فالكتمان هو الجحود لغرض من الأغراض ولهوى من الأهواء، ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦] يعلمون في قلوبهم ما جحدوه بألسنتهم، فهذه مفاصلة مع اليهود والنصارى، وأنهم لم يخالفوا رسول الإسلام ودين الإسلام عن جهل وعن عدم معرفة بحقيقة الإسلام وحقيقة الرسول، وإنما خالفوا ذلك عن عناد وكبر وهوى، ومن كان كذلك فلا حيلة فيه، فلا تكلفوا أنفسكم في مجادلتهم.

الآن يقولون: أقيموا حوارًا بين الأديان، أقيموا حوارًا بين اليهود والنصارى والمسلمين. يا سبحان الله! كيف نقيم حوارًا معهم، وهذا كلام الله فيهم؟! لا يجهلون حتى نقيم معهم حوارًا، هم لا يريدون أن يأتوا معنا، وإنما يريدون أن نذهب نحن معهم، هذا الذي يريدونه، فلا فائدة بالحوار معهم؛ لأنهم يريدون أن يأخذونا إلى دينهم، ولا يريدون أن يأتوا إلى الحق ويقبلوا الحق، أما لو كانوا يبحثون عن الحق، نعم، الذي يبحث عن الحق أنت تحاوره، لكن الذي لا يبحث عن الحق، وإنما يبحث عن العناد والإصرار على ما هو عليه، ويريدك أنك تأتي معه هذا لا تجادله ولا تحاوره؛ لأن أمره قد انتهى، هذا منتهٍ أمره، لا فائدة فيه ولا حيلة فيه، وهل أحد يستطيع أن يجادل الكفار واليهود والنصارى، هل أحد

يستطيع أن يجادلهم مثل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لا أحد يستطيع، ومع هذا لم يجِدِ فيهم، فكيف الآن يقولون: أقيموا الحوار معهم، واعقدوا النوادي أو الندوات؛ لأجل الحوار مع الأديان ومع اليهود والنصارى؟! هذا تضليل وخداع وتلبيس على الناس، وهضم للإسلام ورفع من شأن الكفر، على المسلمين أنهم يتنبهون لهذه الأمور، ولا ينخدعوا بها أبدًا.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينصر ديننا، وأن يعلي كلمته، وأن يرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، ويرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، وألا يجعله ملتبسًا علينا فنضل!

اللهم انصر الإسلام والمسلمين، ودمر أعداء الدين!

اللهم أذل الشرك والمشركين، ودمر أعداء الدين، وانصر عبادك الموحدين في كل مكان يا رب العالمين!

اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك وعبادك المؤمنين!

اللهم أظهر الهدى ودين الحق الذي وعدت ظهوره على الدين كله ولو كره المشركون!

اللهم أصلح ولاة أمورنا، اللهم أصلح بطانتهم، اللهم اجعلهم هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، اللهم أبعد عنهم بطانة السوء والمفسدين ودعاة الضلال يا رب العالمين!

ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، وقنا شر الفتن ما ظهر منها وما بطن!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الشهادتان الركن الأول من أركان الإسلام

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله؛ لأن هذا الركن هو الأساس للدين، فلا تصح جميع الأعمال إلا إذا قام هذا الركن وتحقق، ولذلك يطالب الداخل في الإسلام بأن ينطق بالشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ نطقًا واعتقادًا وعملًا.

فإن أبى أن ينطق بالشهادتين، فليس بمسلم، ولو كان مصدقًا بقلبه ومعتقدًا بقلبه أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولكنه أبى أن ينطق بلسانه، فإنه لا يكون مسلمًا؛ لأن المشركين يعترفون بقلوبهم، يعترفون بقلوبهم أنه لا إله إلا الله، ويعترفون أن محمدًا رسول الله، اليهود والنصارى والمشركون كلهم يعرفون هذا في قلوبهم، لكن يمنعهم الكبر، يمنعهم الاستكبار والحمية لدين آبائهم والغيرة على الأصنام، يمنعهم ذلك أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولذلك لما قال لهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»[1]، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٥/ ٤٠٤)، والحاكم (١/ ٦١)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٣) عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عِبَادٍ الدِّيلِيِّ، وَكَانَ جَاهِلِيًّا أَسْلَمَ، فَقَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي المَجَازِ، يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا**» وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا =

[ص:٥][1]، وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات:٣٥، ٣٦]، فهم يعرفون أنهم إذا قالوا هذه الكلمة، أنهم أبطلوا دين الجاهلية، وأبطلوا ما عليه آباءهم وأجدادهم، فلذلك امتنعوا، امتنعوا من الاعتراف بها؛ لأنهم يعرفون أنهم إذا قالوها، فإنه يلزمهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن يتركوا عبادة الأصنام والأشجار والأحجار وكل ما عبد من دون الله. وهم لا يريدون أن يتركوا عبادة هذه الأشياء، لا يريدون أن يفردوا الله بالعبادة؛ بل يريدون أن يشركوا معه، أن يعبدوا الله ويعبدوا معه غيره.

حتى أبو طالب عم الرسول ﷺ لما حضرته الوفاة «جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ

= وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا، وَهُوَ لَا يَسْكُتُ، يَقُولُ: **أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**، إِلَّا أَنَّ وَرَاءَهُ رَجُلًا أَحْوَلَ وَضِيءَ الْوَجْهِ، ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ، كَاذِبٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ، قُلْتُ: إِنَّكَ كُنْتَ يَوْمَئِذٍ صَغِيرًا، قَالَ: لَا وَاللهِ إِنِّي يَوْمَئِذٍ لَأَعْقِلُ».

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٥٨، ٥/ ٣٩٣)، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٩٠، ١٠/ ٢٣٣)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَكَانَ عِنْدَ رَأْسِهِ، مَقْعَدَ رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ، فَجَلَسَ فِيهِ، فَشَكَوُا النَّبِيَّ ﷺ إِلَى أَبِي طَالِبٍ وَقَالُوا: إِنَّهُ يَقَعُ فِي آلِهَتِنَا قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا؟ قَالَ: **يَا عَمِّ، إِنَّمَا أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، ثُمَّ تُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ**. فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**. فَقَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَٰلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾».

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ، آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[(١)]، ما الذي منعه أن يقول: لا إله إلا الله؟ الذي منعه هو النخوة الجاهلية في أنه لو قالها، لترك ملة عبد المطلب التي هي ملة المشركين، فمنعته الحمية الجاهلية من أن يقول: لا إله إلا الله، ومات على الشرك، فصار من أهل النار.

فدل هذا على أنه لا يكفي أن الإنسان يعترف بقلبه أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، دون أن ينطق بلسانه بهاتين الكلمتين ويعلن بهما، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ، حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». فـ«يقولوا»: ينطقوا، فيقولوا: لا إله إلا الله، «**فَإِذَا قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»[(٢)].

ولما بعث معاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى اليمن قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**»... إلى آخر الحديث[(٣)].

الشاهد منه: أنه أمره أن يدعو أهل الكتاب إلى أن يقولوا: لا إله إلا الله،

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤)، من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٩، ١٤٥٦، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه (ص٢٠).

هل أهل الكتاب -وهم علماء- يجهلون معنى لا إله إلا الله، وهم على دين، يزعمون أنهم على دين موسى وعيسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ؟ يعرفون هذا.

إذًا: لماذا يدعون إلى شهادة أن لا إله إلا الله؟ لأنهم يشركون بالله، اليهود يقولون: عزير ابن الله، والنصارى يقولون: المسيح ابن الله.

فدل على أنه لا يكفي أن الإنسان يعلم بقلبه أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ بل لابد أن ينطق بلسانه.

ثم -أيضًا- ليس المقصود النطق بها مجرد لفظ؛ لأنها كلمة لها معنى، إذا قال: لا إله إلا الله، فلابد أن يترك عبادة ما سوى الله من جميع الأشياء؛ من الأحياء والأموات، والجن والإنس، والملائكة، والأشجار والأحجار والقبور والأضرحة وغير ذلك.

يوحد العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وإلا لا ينفعه قول: لا إله إلا الله بلسانه وهو يشرك بأفعاله ودعائه وغير ذلك.

ولذلك امتنع المشركون من أن يقولوها؛ لأنهم يعرفون معناها في أنه لو قالوها، للزمهم أن يتركوا عبادة الأصنام، فأبوا أن يقولوها، بينما مشركو هذا الزمان يقولون: لا إله إلا الله بألسنتهم، ولكنهم يعبدون غير الله، فيدعون الموتى، يدعون الحسن والحسين، وعبد القادر، والبدوي، وفلانًا وفلانًا من الموتى. يدعونهم ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ويستغيثون بهم، وهم يقولون: لا إله إلا الله، تناقضوا في قولهم وفعلهم.

إذًا: ليس معنى قول لا إله إلا الله مجرد التلفظ بها، لابد من معرفة معناها، ولابد من العمل بمقتضاها.

أما معناها «لا إله إلا الله» أي: لا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا معناها، لا معبود بحق؛ لأن الإله معناه المعبود، «لا إله» أي: لا معبود بحق، وإلا هناك معبودات بالباطل، لا معبود بحق إلا الله، هذا معناها.

وأما مقتضاها فهو أن تفرد الله بالعبادة، تعمل بهذا المعنى، فتجعل جميع عباداتك لله وحده، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، أمر الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول هذا، وأن يعلنه للناس، وهو في القرآن يتلى إلى يوم القيامة، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ من الذي أمره؟ الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أنا أول المنقادين لهذا الأمر العاملين به، فهذا معنى لا إله إلا الله؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ»**(١)، لم يكتفِ بقول: **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»**؛ بل قال: **«وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»**؛ لأن بعض الناس يقول: «لا إله إلا الله»، لكنه لايكفر بما يعبد من دون الله، فيعبد الموتى والمقبورين، ويعكف عند قبورهم، ويذبح لهم، وينذر لهم، ويطوف بقبورهم، ويستغيث بهم، فهذا لم يكفر بما يعبد من دون الله، وإن كان يقول بلسانه: «لا إله إلا الله»، كلمة ليس لها معنى عنده.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣)، من حديث طارق بن أَشْيَم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦]، ﴿يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ قدم الكفر بالطاغوت، والطاغوت هو: كل ما عبد من دون الله، كل ما عبد من دون الله، فهو عبادة للطاغوت الذي هو الشيطان(١).

﴿يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ أولًا: يكفر بالطاغوت، ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ لأن الإيمان بالله لا يصح مع عدم الكفر بالطاغوت، وهذا معنى لا إله إلا الله، ﴿يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ هذا هو معنى «لا إله»، ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ هذا هو معنى «إلا الله»؛ لأن لا إله إلا الله مبنية على ركنين: الركن الأول: النفي «لا إله» هذا نفي. الركن الثاني: الإثبات «إلا الله». فهذا ما تبنى عليه «لا إله إلا الله».

فالذي لا يترك عبادة المخلوقات ويفرد الله جَلَّوَعَلَا بالعبادة هذا ليس بمسلم، وإن كان يقول: «لا إله إلا الله» بلسانه؛ لأن العبرة بالقول والعمل، ليست العبرة بالقول فقط، القول والعمل.

كثير من الناس يرددون «لا إله إلا الله» بألسنتهم، بينما أفعالهم شرك: استغاثة بالموتى، وذبح لغير الله، ونذر لغير الله، وطواف بالقبور، واستنجاد بالأموات في وقت الشدائد، أين لا إله إلا الله؟! أين ذهبت؟! أصبح ليست لها قيمة.

والذي يقول: «لا إله إلا الله» يثبت عليها، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ١٨٣)، وتفسير البغوي (١/ ٣٥٠)، وتفسير ابن عطية (١/ ٣٤٤).

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧]، هذا معنى «لا إله إلا الله»، وأما معنى «محمد رسول الله»، معنى شهادة أن محمدًا رسول الله، فمعناها أن تعترف بقلبك أنه رسول الله، وتنطق بلسانك، وتعلن ذلك: أشهد أن محمدًا رسول الله.

أما من اعترف بقلبه أنه رسول الله، لكنه لم ينطق بلسانه، لم ينطق، أبى أن ينطق ويقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، فهذا لا ينفعه معرفته بالقلب؛ لأن الله أخبر أن المشركين لا يكذبون الرسول ﷺ، ولكنهم يعاندون ويجحدون، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

يعرفون أنه رسول الله في قلوبهم، ولكنهم منعهم الكبر والحسد والعناد منعهم أن يشهدوا له بالرسالة وينطقوا بذلك.

أهل الكتاب يعلمون أنه رسول الله بقلوبهم، لكن تظاهروا بالجحود، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعني الرسول ﷺ، ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]، يكتمون الحق وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، يكتمون الحق يعني: لا يشهدون له بالرسالة، يجحدون رسالته في الظاهر. وأما في قلوبهم فهم معترفون أنه رسول الله؛ لأنهم يجدون هذا في كتابهم، يجدونه في التوراة والإنجيل، يجدون أن محمدًا رسول الله ﷺ، وأنه خاتم النبيين، وأنه رسول الله إلى العالم كله، يجدونه؛ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

أما الذين يعرفون أنه رسول الله، لكنهم لا يتبعونه، فهؤلاء من أهل النار، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١)، فدل على أن أهل الكتاب يعرفون أنه رسول الله، إذًا لماذا لم يشهدوا أنه رسول الله؟ منعهم الحسد والكبر والعناد -والعياذ بالله-، وكذلك كل من سار على منهجهم في الجحود والكتمان وعدم الاعتراف.

فلابد أن تشهد أنه رسول الله، ولا يكفي أنك تشهد بلسانك؛ بل لابد أن تتبعه وتطيعه، مادام أنك شهدت أنه رسول الله، فلابد أن تتبعه، ولابد أن تطيعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أمرك، وتجتنب ما نهاك عنه، وتقدم قوله على قول كل أحد، وتحبه أحب مما تحب نفسك وولدك ووالدك والناس أجمعين، تقدم محبة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد محبة الله، أول شيء محبة الله جَلَّ وَعَلَا ثم محبة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، محبة الله مقدمة، وعلامة محبة الله اتباع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]، فعلامة محبة الله اتباع رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هكذا الشهادتان ليستا مجرد لفظ يقال باللسان، أو معنى يعتقد في القلب؛ بل لابد من الاعتراف بالقلب والنطق باللسان، ولابد من تطبيق الشهادتين، تطبيق معنى الشهادتين.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

شهادة أن لا إله إلا الله معناها إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه، شهادة أن محمدًا رسول الله معناها الاعتراف برسالته ظاهرًا وباطنًا مع اتباعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلا إله إلا الله تبطل الشرك بجميع أنواعه، ومحمد رسول الله تبطل البدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، هذا معنى الشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله تنفي الشرك بجميع أنواعه، شهادة أن محمدًا رسول الله تنفي البدع والمحدثات، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»[(١)]، وقال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»[(٢)].

هكذا، هذا معنى الشهادتين نطقًا وعلمًا وعملًا، بهذا تتحقق الشهادتان بالنطق والعلم بمعناهما والعمل بمقتضاهما.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم لصالح القول والعمل، وأن يجعل عملنا خالصًا لوجهه وصوابًا على سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٥).

الصوفية وموقفهم من تحقيق أصول العبادة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا وأمرنا بالتمسك به إلى الممات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]. وتلك وصية إبراهيم ويعقوب لبنيه، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبيك محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

أصحاب الفضيلة العلماء، أيها الإخوة الحضور: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن الله خلق الجن والإنس لعبادته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. وفي ذلك شرفهم وعزهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم بحاجة إلى ربهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، وهو غني عنهم وعن عبادتهم كما قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ [الزمر:٧]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨].

والعبادة حق لله على خلقه وفائدتها تعود إليهم، فمن أبى أن يعبد الله فهو مستكبر، ومن عبد الله وعبد معه غيره فهو مشرك، ومن عبد الله وحده بغير ما شرع فهو مبتدع، ومن عبد الله وحده بما شرع فهو المؤمن الموحد.

ولما كان العباد لا يمكنهم أن يعرفوا بأنفسهم حقيقة العبادة التي ترضي الله سبحانه وتوافق دينه لم يكلهم إلى أنفسهم؛ بل أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب لبيان حقيقة تلك العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فمن حاد عما بينته الرسل ونزلت به الكتب من عبادة الله، وعبد الله بما يملي عليه ذوقه، وما تهواه نفسه، وما زينته له شياطين الإنس والجن، فقد ضل عن سبيل الله، ولم تكن عبادته في الحقيقة عبادة لله؛ بل هي عبادة لهواه وعبادة للشيطان، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦٠، ٦١].

وهذا الجنس كثير في البشر وفي طليعتهم النصارى، ومن ضل من فرق هذه الأمة كالصوفية الذين نحن بصدد الكلام عنهم، فإنهم اختطوا لأنفسهم خطة في العبادة مخالفة لما شرعه الله في كثير من شعاراتها، وهذا يتفق ببيان حقيقة العبادة التي شرعها الله على لسان رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبيان ما عليه الصوفية اليوم من انحرافات عن حقيقة تلك العبادة.

إن العبادة التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تبنى على أصول وعلى أسس ثابتة تتلخص فيما يلي:

أولًا: أنها توقيفية، بمعنى أنه لا مجال للرأي فيها؛ بل لابد أن يكون المشرع لها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والمبين لها رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال تعالى لنبيه: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ [هود:١١٢]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية:١٨]، وقال عن نبيه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف:٩].

ثانيًا: لابد أن تكون العبادة خالصة لله تعالى من شوائب الشرك، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، فإن خالط العبادة شيء من الشرك أبطلها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦].

ثالثًا: لابد أن يكون القدوة في العبادة والمبين لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلُّوا

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) واللفظ له، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»(١)، وقوله: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»(٢)، إلى غير ذلك من النصوص.

رابعًا: أن العبادة محددة بمواقيت ومقادير لا يجوز تعديها وتجاوزها: كالصلاة مثلًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء:١٠٣]، وكالحج، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ [البقرة:١٩٧]، وكالصيام، قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

خامسًا: لابد أن تكون العبادة قائمة على محبة الله تعالى والذل له وخوفه ورجائه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، وقال تعالى عن أنبيائه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١، ٣٢]، فذكر سبحانه علامات محبة الله وثمراتها، أما علاماتها فاتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعة الله وطاعة رسوله.

وأما ثمراتها فنيل محبة الله سبحانه للعبد، ونيل مغفرة الذنوب والرحمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٩٧)، والبيهقي في سننه الكبرى (٥/ ٢٠٤) (٩٥٢٤)، واللفظ له.

سادسًا: أن العبادة لا تسقط عن المكلف من بلوغه عاقلًا إلى وفاته. قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وقال تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩].

حقيقة التصوف:

لفظ التصوف والصوفية لم يكن معروفًا في صدر الإسلام، وإنما المعروف في صدر الإسلام اسم المؤمن، والبر، والتقي، والفاجر، والفاسق.

وإنما لفظ التصوف والصوفية محدث بعد القرون المفضلة، فهو دخيل على الإسلام من أمم أخرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في (مجموع الفتاوى): أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهورًا في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ: كالإمام أحمد بن حنبل وأبي سليمان الداراني وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري، وتنازعوا في المعنى الذي أضيف إليه الصوفي، فإنه من أسماء النسب: كالقرشي والمدني وأمثال ذلك، فقيل: إنه نسبة إلى أهل الصفة، وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صُفِّيّ، وقيل: نسبةً إلى الصف المقدم بين يدي الله، وهو أيضًا غلط، فإنه لو كان كذلك لقيل: صَفِّي. وقيل: نسبة إلى الصفوة من خلق الله، وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صَفَوِي، وقيل: نسبةً إلى صوفة بن بشر بن أد بن بشر بن طابخة -قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة في الزمن القديم ينسب إليهم النساك- وهذا وإن كان موافقًا للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضًا؛ لأن هؤلاء غير مشهورين

ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافًا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام، وقيل -وهو المعروف-: إنه نسبة إلى الصوف، فإنه أول ما ظهرت الصوفية في البصرة.

وأول من ابتنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قومًا يفضلون لباس الصوف، فقال: إن قومًا يتخيرون لباس الصوف يقولون: إنهم يتشبهون بالمسيح ابن مريم، وهَدْيُ نبينا أحب إلينا، وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلبس القطن وغيره، أو كلامًا نحوًا من هذا، ثم يقول بعد ذلك: وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف فقيل في أحدهم: صوفي، وليس طريقهم مقيدًا بلبس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك، ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه؛ لكونه ظاهر الحال.

إلى أن قال: فهذا أصل التصوف، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع.

وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) يعطي أن التصوف نشأ في بلاد الإسلام على يد عُبَّاد البصرة نتيجةً لمبالغتهم في الزهد والعبادة، ثم تطور بعد ذلك.

والذي توصل إليه بعض الكتاب العصريين، أن التصوف تسرب إلى بلاد المسلمين من الديانات الأخرى؛ كالديانة الهندية والرهبانية النصرانية، وقد

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥، ٧، ١٦، ١٨).

يستأنس لهذا بما نقله الشيخ عن ابن سيرين أنه قال: إن قومًا يتخيرون لباس الصوف يقولون: إنهم يتشبهون بالمسيح ابن مريم، وهَدْيُ نبينا أحب إلينا. فهذا يعطي أن التصوف له علاقة بالديانة النصرانية.

ويقول الدكتور صابر طعيمة في كتابه (الصوفية معتقدًا ومسلكًا): ويبدو أن لتأثير الرهبنة المسيحية التي كان فيها الرهبان يلبسون الصوف، وهم في أديرتهم كثرة كثيرة من المنقطعين لهذه الممارسة على امتداد الأرض التي حررها الإسلام بالتوحيد، أعطى هو الآخر دورًا في التأثر الذي بدا على سلوك الأوائل[١].

وقال الشيخ حسان إلهي ظهير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (التصوف، المنشأ والمصادر): عندما نتعمق في تعاليم الصوفية الأوائل والأواخر وأقاويلهم المنقولة منهم والمأثورة في كتب الصوفية القديمة والحديثة نفسها، نرى بونًا شاسعًا بينها وبين تعاليم القرآن والسنة، وكذلك لا نرى جذورها وبذورها في سيرة سيد الخلق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه الكرام البررة خيار خلق الله وصفوة الكون، بل بعكس ذلك نراها مأخوذة مقتبسة من الرهبنة المسيحية، والبرهمة الهندوكية، وتنسك اليهودية، وزهد البوذية[٢].

ويقول الشيخ عبد الرحمن الوكيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتاب (مصرع التصوف): إن التصوف أدنأ وألأمُ كيدٍ ابتدعه الشيطان؛ ليسخر معه عباد الله في حربه لله ولرسله، إنه قناع المجوس يتراءى بأنه رباني، بل قناع كل عدو صوفي

---

(١) الصوفية معتقدًا ومسلكًا (ص١٧).
(٢) التصوف- المنشأ والمصادر (ص٢٨).

للدين الحق، فتش فيه تجد برهمية وبوذية وزرادشتية ومانوية وديصانية، تجد أفلاطونية وغنوصية، تجد فيه يهودية ونصرانية ووثنية جاهلية[(١)].

ومن خلال عرض آراء هؤلاء الكُتَّاب المعاصرين في أصل الصوفية، وغيرهم مما لم نذكره كثيرون يرون هذا الرأي، يتبين أن الصوفية دخيلة على الإسلام، يظهر ذلك في ممارسات المنتسبين إليها، تلك الممارسات الغريبة على الإسلام والبعيدة عن هديه، وإنما نعني بهذا المتأخرين من الصوفية حيث كثرة وعظمت شطحاتهم.

أما المتقدمون منهم فكانوا على جانب من الاعتدال: كالفضيل بن عياض والجنيد وإبراهيم بن أدهم وغيرهم.

موقف الصوفية من العبادة والدين:

للصوفية -خصوصًا المتأخرين منهم- منهج في الدين والعبادة يخالف منهج السلف، ويبتعد كثيرًا عن الكتاب والسنة، فهم قد بنوا دينهم وعبادتهم على رسوم ورموز واصطلاحات اخترعوها، وهي تتلخص فيما يلي:

١- قصرهم العبادة على المحبة، فهم يبنون عبادتهم لله على جانب المحبة، ويهملون الجوانب الأخرى: كجانب الخوف والرجاء، كما قال بعضهم: أنا لا أعبد الله طمعًا في جنته، ولا خوفًا من ناره[(٢)].

---

(١) مصرع التصوف (ص١٩).

(٢) هذا القول نُسب إلى أحمد بن الموفق أبو الحسن الصوفي، المتوفى سنة خمس وستين ومائتين، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٧٢)، انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (١٢/ ١١٠-١١٣)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٨٦)، وطبقات الحنابلة (١/ ٢٣٠، ٢٣١)، والمقصد الأرشد (٢/ ٢٦٨).

ولا شك أن محبة الله تعالى هي الأساس الذي تبنى عليه العبادة، ولكن العبادة ليست مقصورة على المحبة كما يزعمون، بل لها جوانب وأنواع كثيرة غير المحبة: كالخوف والرجاء والذل والخضوع والدعاء إلى غير ذلك، فهي كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)(١).

ويقول العلامة ابن القيم(٢):

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ   مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ   مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

ولهذا يقول بعض السلف: (مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالحُبِّ وَالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ)(٣).

وقد وصف الله رسله وأنبياءه بأنهم يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، وأنهم يدعونه رغبًا ورهبًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولهذا قد وجد في نوع من المتأخرين من انبسط في دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة والدعوة التي تنافي العبودية.

---

(١) انظر: (رسالة العبودية) ضمن مجموع الفتاوي (١٠/ ١٤٩).

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٢٥٣).

(٣) هذا القول لم أجده فيما بين يدي من كتب قبل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو موجود في كتب كثيرة لشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: أمراض القلوب وشفاؤها (١/ ٧٥)، والتفسير القيم (١/ ٢٦٠).

وقال أيضًا: وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعًا من الجهل بالدين، إما من تعدي حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادِّعاء الدعاوي الباطلة التي لا حقيقة لها.

وقال أيضًا: والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرم كان هذا أصل مقصودهم، ولهذا أنزل الله المحبة محنة يمتحن بها المحب، فقال: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، فلا يكون محبًّا لله إلا من يتبع رسوله، وطاعة الرسول ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية، وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويدعي من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، حتى يظن أحدهم سقوط الأمر، وتحليل الحرام له.

وقال أيضًا: وكثير من الضالين الذين اتبعوا أشياء مبتدعة من الزهد والعبادة على غير علم ولا نور من الكتاب والسنة وقعوا فيما وقع فيه النصارى من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته، وترك المجاهدة في سبيله ونحو ذلك). انتهى.

فتبين بذلك أن الاقتصار على جانب المحبة لا يسمى عبادة، وقد يؤول بصاحبه إلى الضلال بالخروج عن الدين.

٢- الصوفية في الغالب لا يرجعون في دينهم وعبادتهم إلى الكتاب والسنة والاقتداء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يرجعون إلى أذواقهم، وما يرسمه لهم شيوخهم من الطرق المبتدعة، والأذكار والأوراد المبتدعة، وربما يستدلون

بالحكايات والمنامات والأحاديث الموضوعة؛ لتصحيح ما هم عليه بدلًا من الاستدلال بالكتاب والسنة، هذا ما ينبني عليه دين الصوفية.

ومن المعلوم أن العبادة لا تكون عبادة صحيحة إلا إذا كانت مبنية على ما جاء في الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ويتمسكون -يعني الصوفية- في الدين الذين يتقربون به إلى ربهم بنحو ما تمسَّك به النصارى من الكلام المتشابه والحكايات التي لا يعرف صِدْق قائلها، ولو صَدق لم يكن معصومًا، فيجعلون متبوعيهم وشيوخهم شارعين لهم دينًا، كما جعل النصارى قسيسهم ورهبانهم شارعين لهم دينًا). انتهى[(١)].

ولما كان هذا مصدرهم الذي يرجعون إليه في دينهم وعباداتهم، وقد تركوا الرجوع إلى الكتاب والسنة، صاروا أحزابًا متفرقين، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فصراط الله واحد لا انقسام فيه ولا اختلاف عليه، وما عداه فهو سُبل متفرقة تتفرق بمن سلكها، وتبعده عن صراط الله المستقيم، وهذا ينطبق على فرق الصوفية، فإن كل فرقة لها طريقة خاصة تختلف عن طريقة الفرق الأخرى، ولكل فرقة شيخ يسمونه: شيخ الطريقة، يرسم لها منهاجًا يختلف عن منهاج الفرق الأخرى، ويبتعد بهم عن الصراط المستقيم، وهذا الشيخ الذي يسمونه: شيخ الطريقة يكون له مطلق التصرف، وهم ينفذون ما يقول ولا يعترضون

(١) «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١١٤-١١٩).

عليه بشيء، حتى قالوا: المريد مع شيخه يكون كالميت مع غاسله. وقد يدعي بعض هؤلاء الشيوخ أنه يتلقى من الله مباشرةً ما يأمر به مريديه وأتباعه.

٣- من دين الصوفية: التزام أذكار وأوراد يضعها لهم شيوخهم، فيتقيدون بها ويتعبدون بتلاوتها، وربما فضلوا تلاوتها على تلاوة القرآن الكريم، ويسمونها ذكر الخاصة.

وأما الذكر الوارد في الكتاب والسنة فيسمونه: ذكر العامة. فقول (لا إله إلا الله) عندهم هو ذكر العامة، وأما ذكر الخاصة، فهو الاسم المفرد: الله؛ وذكر خاصة الخاصة (هو).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن زعم أن هذا -أي قول لا إله إلا الله- ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة (هو) - أي: الاسم المضمر- فهو ضال مضل.

واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ من أبين غلط هؤلاء، بل من تحريفهم للكلم عن مواضعه فإن الاسم (الله) مذكور في الأمر بجواب الاستفهام في الآية قبلها وهو قوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾، إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩١]، أي: الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

فالاسم: (الله) مبتدأ خبره دل عليه الاستفهام، كما في نظائر ذلك، تقول: من جارك؟ فيقول: زيد، وأما الاسم المفرد مظهرًا ومضمرًا، فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي، ولم يذكر ذلك

أحد من سلف الأئمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ، ولا يعطي القلب نفسه معرفة مفيدة، ولا حالًا نافعًا، وإنما يعطيه تصورًا مطلقًا لا يكم فيه بنفي ولا إثبات..

إلى أن قال: وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر بالاسم المفرد وبـ(هو) في فنون من الإلحاد وأنواع من الاتحاد، وما يذكر عن بعض الشيوخ في أنه قال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات، حال لا يقتدي فيها بصاحبها، فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاء به إذ لو مات العبد في هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه، إذ الأعمال بالنيات، وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر بتلقين الميت لا إله إلا الله، وقال: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1]، ولو كان ما ذكره محظورًا لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتًا غير محمود. بل كان ما اختاره من ذكر الاسم المفرد، والذكر بالاسم المضمر أبعد عن السنة، وأدخل في البدعة، وأقرب إلى إضلال الشيطان، فإن من قال: يا هو يا هو، أو هو هو؛ ونحو ذلك لم يكن الضمير عائدًا إلا إلى ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدي وقد يضل.

وقد صنّف «صاحب الفصوص»[2] كتابًا سماه كتاب (الهو). وزعم بعضهم أن قوله: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران:٧]. معناه: وما يعلم

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٤٤٣)، وأبو داود (٣١١٦) من حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه.

(٢) كتاب «فصوص الحكم» لابن عربي. قال عنه الذهبي في الميزان (٦/ ٢٧٠): (وكذلك من أمعن النظر في فصوص الحكم، أو أنعم التأمل لاح له العجب؛ فإن الذكي إذا تأمل من ذلك الأقوال والنظائر والأشباه فهو أحد رجلين: إما من الاتحادية في الباطن، وإما من المؤمنين بالله الذين يعدون أن هذه النحلة من أكفر الكفر، نسأل الله العفو، وأن يكتب الإيمان =

تأويل هذا الاسم الذي هو (الهو) -وهذا مما اتفق المسلمون، بل العقلاء على أنه من أبين الباطل- فقد يظن هذا من يظنه من هؤلاء. حتى قلت لبعض من قال شيئًا من ذلك: لو كان هذا كما قلته لكتبت الآية وما يعلم تأويل هو منفصلة[1]، أي: كتبت (هو) منفصلة عن: (تأويل)!!

٤- غلو المتصوفة في الأولياء والشيوخ خلاف عقيدة أهل السنة والجماعة.

فإن عقيدة أهل السنة والجماعة موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١].

وأولياء الله: هم المؤمنون المتقون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ويجب علينا محبتهم والاقتداء بهم واحترامهم، وليست الولاية وقفًا على أشخاص معينين. فكل مؤمن تقي فهو ولي الله عَزَّوَجَلَّ[2]، وليس

= في قلوبنا، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فوالله لأن يعيش المسلم جاهلًا خلف البقر لا يعرف من العلم شيئًا سوى سور من القرآن يصلي بها الصلوات، ويؤمن بالله وباليوم الآخر، خير له بكثير من هذا العرفان، وهذه الحقائق، ولو قرأ مائة كتاب، أو عمل مائة خلوة). اهـ. والكتاب مطبوع في مجلد واحد سنة ١٣٦٥هـ بدار إحياء الكتب العربية، مع تعليقات لأبي العلا عفيفي. وانظر كشف الظنون (٢/ ١٢٦١).

(١) (رسالة العبودية) (ص١٣٨، ١٣٩).

(٢) **الولي في اللغة**: هو الناصر والمعين، والوَلاية بالفتح، المحبة والنصرة، والوِلاية بالكسر الإمارة=

معصومًا من الخطأ، هذا معنى الولاية والأولياء، وما يجب في حقهم عند أهل السنة والجماعة، أما الأولياء عند الصوفية فلهم اعتبارات ومواصفات أخرى، فهم يمنحون الولاية لأشخاص معينين من غير دليل من الشارع على ولايتهم، وربما منحوا الولاية لمن لم يعرف بإيمان ولا تقوى، بل قد يُعرف بضد ذلك من الشعوذة والسحر واستحلال المحرمات، وربما فضلوا من يدَّعون لهم الولاية على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، كما يقول أحدهم(١):

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ

ويقولون: إن الأولياء يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول، ويدَّعون لهم العصمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع، فيظن في شخص أنه ولي الله، ويظن أنه ولي الله يقبل منه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يفعله، وإن خالف الكتاب والسنة، فيوافق ذلك الشخص، ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر...

= أو السلطة في غالب استعمال العرب. انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٢٧)، ولسان العرب (١٥/ ٤١١)، ومختار الصحاح (ص٣٠٦).

وفي تعريف أهل العلم قالوا: الولي: هو كل مؤمن تقي ليس بنبي. انظر: منهاج السنة (٧/ ٢٨)، وفتاوى مهمة لعموم الأمة (ص٨٤).

(١) قائل هذا البيت هو ابن عربي كما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منهاج السنة (٨/ ٢٢)، وابن أبي العز في شرح الطحاوية (٥٥٦).

إلى أن قال: وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله فيهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

وفي (المسند) وصححه الترمذي عن عدي بن حاتم في تفسير هذه الآية، لما سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما عبدوهم، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ**»(١)،....

إلى أن قال: وتجد كثيرًا من هؤلاء: في اعتقاد كونه وليًّا لله، أنه قد صار عنده مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة، مثل أن يشير إلى شخص فيموت أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانًا، أو يملأ إبريقًا من الهواء، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب، أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته، أو يخبر الناس بما سرق لهم، أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك، وليس في هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي الله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)عن عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: **يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ**، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قَالَ: **أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ**».

وإن كان قد يكون صاحبها وليًّا لله، فقد يكون عدوًّا لله؛ فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يُظنّ أن كل من كان له شيءٌ من هذه الأمور أنه وليٌّ لله، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويُعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة. مثال ذلك: أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص، ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي الصلوات المكتوبة، بل يكون ملابسًا للنجاسات معاشرًا للكلاب يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل، رائحته خبيثة لا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا يتنظف،....

إلى أن قال: فإذا كان الشخص مباشرًا للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها أو يسجد إلى ناحية شيخه، ولا يخلص الدين لرب العالمين، أو يلابس الكلاب أو النيران، أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة، أو يأوي إلى المقابر ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى والمشركين، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ويؤثر سماع مزامير الشيطان على كلام الرحمن، فهذه علامات أولياء الشيطان، لا علامات أولياء الرحمن(١). انتهى.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢١٠-٢١٦).

ولم يقف الصوفية عند هذا الحد من منح الولاية لأمثال هؤلاء، بل غلوا فيهم حتى جعلوا فيهم شيئًا من صفات الربوبية، وأنهم يتصرفون في الكون، ويعلمون الغيب، ويجيبون من استغاث بهم بطلب ما لا يقدر عليه إلا الله، ويسمونهم الأغواث والأقطاب والأوتاد، يهتفون بأسمائهم في الشدائد، وهم أموات أو غائبون ويطلبون منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وأضفوا عليهم هالة من التقديس في حياتهم، وعبدوهم من دون الله بعد وفاتهم، فبنوا على قبورهم الأضرحة وتبركوا بتربتهم، وطافوا بقبورهم، وتقربوا إليهم بأنواع النذور، وهتفوا بأسمائهم في طلباتهم، هذا منهج الصوفية في الولاية والأولياء!!

٥- من دين الصوفية الباطل تقربهم إلى الله بالغناء والرقص وضرب الدفوف والتصفيق ويعتبرون هذا عبادة لله.

قال الدكتور صابر طعيمة في كتابه: (الصوفية معتقدًا ومسلكًا): أصبح الرقص الصوفي الحديث عند معظم الفرق الصوفية في مناسبات الاحتفال بموالد بعض كبارهم أن يجتمع الأتباع لسماع النوتة الموسيقية التي يُكوِّن صوتُها أحيانًا أكثر من مائتي عازف من الرجال والنساء، وكبار الأتباع يجلسون في هذه المناسبات يتناولون ألوانًا من شرب الدخان، وكبار أئمة القوم وأتباعهم يقومون بمدارسة بعض الخرافات التي تنسب لمقبوريهم، وقد انتهى إلى علمنا من المطالعات أن الأداء الموسيقي لبعض الطرق الصوفية الحديثة مستمد مما يسمى (كورال صلوات الآحاد المسيحية).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينًا وقت حدوث هذا، وموقف الأئمة منه ومن الذي أحدثه: اعلم أنه لم يكن في عنفوان القرون الثلاثة المفضلة لا بالحجاز

ولا بالشام ولا باليمن ولا مصر ولا المغرب ولا العراق ولا خراسان من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصدية لا بدف ولا بكف ولا بقضيب، وإنما أحدث هذا بعد ذلك في أواخر المائة الثانية، فلما رآه الأئمة أنكروه، فقال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خلفت ببغداد شيئًا أحدثه الزنادقة يسمونه: (التغبير) يصدون به الناس عن القرآن، وقال يزيد بن هارون: ما يغبر إلا فاسق، ومتى كان التغبير؟

وسئل الإمام أحمد، فقال: أكرهه هو محدث، قيل: أتجلس معهم؟ قال: لا. وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخي، ولا أبو سليمان الداراني، ولا أحمد بن أبي الحواري، والسري السقطي وأمثالهم.

والذين حضروه من الشيوخ المحمودين تركوه في آخر أمرهم، وأعيان المشايخ عابوا أهله كما فعل ذلك عبد القادر والشيخ أبو البيان، وغيرهما من المشايخ، وما ذكره الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ من أنه من إحداث الزنادقة، كلام إمام خبير بأصول الإسلام، فإن هذا السماع لم يرغب فيه ويدعو إليه في الأصل إلا من هو متهم بالزندقة: كابن الراوندي والفارابي وابن سينا وأمثالهم.......،

إلى أن قال: وأما الحنفاء أهل ملة إبراهيم الخليل الذي جعله الله إمامًا، وأهل دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد دينًا غيره، المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس فيهم من يرغب في ذلك ولا يدعو إليه، وهؤلاء هم أهل القرآن والإيمان والهدى والسعد والرشاد والنور والفلاح، وأهل المعرفة

والعلم واليقين والإخلاص لله، والمحبة لله، والتوكل عليه والخشية له والإنابة إليه.......

إلى أن قال: ومن كان له خبرة بحقائق الدين وأحوال القلوب ومعارفها وأذواقها ومواجيدها، عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلوب منفعة ولا مصلحة إلا وفي ضمن ذلك من الضرر والمفسدة ما هو أعظم منه، فهو للروح كالخمر للجسد؛ ولهذا يورث أصحابه سكرًا أعظم من سكر الخمر، فيجدون لذة بلا تمييز، كما يجد شارب الخمر، بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر، ويصدهم ذلك عن ذكر الله، وعن الصلاة أعظم مما يصدهم الخمر، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء أعظم من الخمر!!

وقال أيضًا: وأما الرقص فلم يأمر الله به، ولا رسوله، ولا أحد من الأئمة، بل قد قال الله في كتابه: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان:١٩]، وقال في كتابه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان:٦٣]. أي: بسكينة ووقار، وإنما عبادة المسلمين الركوع والسجود.

بل الدف والرقص لم يأمر الله به، ولا رسوله، ولا أحد من سلف الأمة، قال: وأما قول القائل: هذه شبكة يصاد بها العوام، فقد صدق فإن أكثرهم إنما يتخذون ذلك شبكة لأجل الطعام والتوانس على الطعام، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٤].

ومن فعل هذا فهو من أئمة الضلال الذين قيل في رؤوسهم: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٦٧، ٦٨].

وأما الصادقون منهم فهم يتخذونه شبكة لكن هي شبكة مخرقة يخرج منها الصيد إذا دخل فيها، كما هو الواقع كثيرًا، فإن الذين دخلوا في السماع المبتدع في الطريق ولم يكن معهم أصل شرعي شرعه الله ورسوله، أورثهم أحوالًا فاسدة). انتهى كلامه[١].

فهؤلاء الصوفية الذين يتقربون إلى الله بالغناء والرقص يصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف:٥١].

٦- ومن دين الصوفية الباطل ما يسمونه بالأحوال التي تنتهي بصاحبها إلى الخروج عن التكاليف الشرعية نتيجة لتطور التصوف، فقد كان أصل التصوف، كما ذكره ابن الجوزي: رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق.

قال: وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم، فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني، فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن، وكان أصل تلبيسه عليهم أن صدهم عن العلم، وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة، فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس حتى إنه كان فيهم من لا يضطجع، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة، وفيهم من كان لقلة

---

(١) المرجع السابق.

علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري، ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك، مثل الحارث المحاسبي، وجاء آخرون فهذبوا مذهب الصوفية وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق، ثم ما زال الأمر ينمو، والأشياخ يضعون لهم أوضاعًا ويتكلمون بمواقعاتهم، وبعدوا عن العلماء ورأوا ما هم فيه أوفى العلوم حتى سموه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر، ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة، فادَّعى عشق الحق والهيمان فيه، فكأنهم تخايلوا شخصًا مستحسن الصورة فهاموا به، وهؤلاء بين الكفر والبدعة، ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء من قال بالحلول، ومنهم من قال بالاتحاد، وما زال إبليس يخطبهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننًا. انتهى[(١)].

هذا كلام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تطور التصوف على مدى القرون، وهذا في وقته وزاد الأمر على ما قاله أضعافًا مضاعفة.

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قوم داوموا على الرياضة مرة فرأوا أنهم قد تجوهروا، فقالوا: لا نبالي الآن ما علمنا، وإنما الأوامر والنواهي رسوم العوام، ولو تجوهروا لسقطت عنهم، وحاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة، والمراد منها ضبط العوام، ولسنا نحن من العوام، فندخل في حجر التكليف؛ لأنا قد تجوهرنا وعرفنا الحكمة.

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٥٧، ١٥٨).

فأجاب: لا ريب عند أهل العلم والإيمان أن هذا القول من أعظم الكفر وأغلظه، وهو شر من قول اليهود والنصارى، فإن اليهودي والنصراني آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وأولئك هم الكافرون حقًّا، كما أنهم يقرون أن لله أمرًا ونهيًا، ووعدًا ووعيدًا، وأن ذلك متناول لهم إلى حين الموت، هذا إن كانوا متمسكين باليهودية والنصرانية المبدلة المنسوخة، وأما إن كانوا من منافقي أهل ملتهم، كما هو الغالب على متكلميهم ومتفلسفيهم كانوا شرًّا من منافقي هذه الأمة، حيث كانوا مظهرين للكفر ومبطنين للنفاق، فهم شر ممن يظهر إيمانًا ويبطن نفاقًا.

والمقصود أن المتمسكين بجملة منسوخة فيها تبديل خير من هؤلاء الذين يزعمون سقوط الأمر والنهي عنهم بالكلية، فإن هؤلاء خارجون في هذه الحال من جميع الكتب والشرائع والملل، لا يلتزمون لله أمرًا ولا نهيًا بحال، بل هؤلاء شر من المشركين المتمسكين ببقايا من الملل، كمشركي العرب الذين كانوا متمسكين ببقايا من دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فإن أولئك معهم نوع من الحق يلتزمونه، وإن كانوا مع ذلك مشركين، وهؤلاء خارجون عن التزام شيء من الحق بحيث يظنون أنهم قد صاروا سدى لا أمر عليهم ولا نهي،......

إلى أن قال: ومن هؤلاء من يحتج بقوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]. ويقول معناها: اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة، فإذا حصل ذلك سقطت العبادة، وربما قال بعضهم: اعمل حتى يحصل لك حال، فإذا حصل لك حال تصوفي سقطت عنك العبادة، وهؤلاء فيهم من إذا ظن حصول مطلوبه من المعرفة والحال استحل ترك الفرائض وارتكاب المحارم، وهذا كفر، كما تقدم.......

إلى أن قال: فأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]، فهي عليهم لا لهم، قال الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعمل المؤمنين أجلًا دون الموت، وقرأ قوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]؛ وذلك أن اليقين هنا: الموت وما بعده، باتفاق علماء المسلمين، وذلك مثل قوله: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾ [المدثر:٤٢، ٤٣]، إلى قوله: ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ [المدثر:٤٥-٤٧]، فهذا قالوه وهم في جهنم، وأخبروا أنهم كانوا على ما هم عليه من ترك الصلاة والزكاة، والتكذيب بالآخرة، والخوض مع الخائفين حتى أتاهم اليقين. ومعلوم أنهم مع هذا الحال لم يكونوا مؤمنين بذلك في الدنيا ولم يكونوا مع الذين قال الله فيهم: ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:٤]، وإنما أراد بذلك أنه أتاهم ما يوعدون وهو اليقين. انتهى[(١)].

فالآية تدل على وجوب العبادة على العبد منذ بلوغه سن التكليف عاقلًا إلى أن يموت، وأنه ليس هناك حال قبل الموت ينتهي عندها التكليف كما تزعمه الصوفية.

الخاتمة:

وبعد: فهذا هو دين الصوفية قديمًا وحديثًا، وهذا موقفهم من العبادة، ولم ننقل عنهم إلا القليل مما تضمنته كتبهم وكتب منتقديهم، وما تدل عليه ممارساتهم المعاصرة، ولم أتناول إلا جانبًا واحدًا من جوانب البحث حولهم هو جانب العبادة وموقفهم منها، وبقيت جوانب أخرى تحتاج إلى محاضرات

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠١، ٤٠٢، ٤١٧، ٤١٨).

ومحاضرات، كموقفهم من التوحيد، وموقفهم من الرسالات، وموقفهم من الشريعة والقدر، إلى غير ذلك.

هذا وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يثبتنا وأياكم على دينه إلى يوم نلقاه، غير مبدلين ولا مغيرين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحلل ويحرم ويشرع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٨-١٧١].

في هذه الآيات الكريمة ينادي الله جَلَّ وَعَلَا عباده عمومًا -المسلمين والكفار؛ لأنهم كلهم عباد الله العبودية العامة، وأما المؤمنون فإنهم عباد الله العبودية الخاصة.

فيقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميع بني آدم يقال لهم: الناس، والإنس، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨]، وعلاقة هذه الآية بما قبلها أنه لما ذكر سبحانه أنه هو الرب الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وأنه الإله المستحق للعبادة، بين في هذه الآية أن التحليل والتحريم حق لله جَلَّ وَعَلَا، هو الذي يحلل ويحرم لعباده لأنه ربهم.

فلا أحد يملك التشريع والتحليل والتحريم إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن توحيد الإلهية توحيد العبادة ألا يكون التحليل والتحريم إلا لله، من حلل شيئًا أو حرمه من دون الله، فهذا إشراك في الألوهية؛ لأنه يجب على العباد أن يخضعوا لما شرعه الله لهم، وينتهوا عما نهاهم الله عنه، فإذا جاء أحد يريد أن يحلل ويحرم، فهذا يدعي أنه شريك لله جَلَّ وَعَلَا، ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١].

التشريع حق لله جَلَّ وَعَلَا، فهو الذي يحل الحلال، ويحرم الحرام، فلا حلال إلا ما أحله الله، ولا حرام إلا ما حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلغ عن الله جَلَّ وَعَلَا، إذًا فيجب أن يتلقى التحليل والتحريم من شرع الله جَلَّ وَعَلَا، ولا يتلقى من أقوال الناس واختراع الناس؛ كما كانوا في الجاهلية يحللون ويحرمون من عند أنفسهم ما أنزل الله بذلك من سلطان، ولهذا قال: ﴿كُلُواْ ﴾ هذا أمر منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أمر إباحة، ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ من عموم ما في الأرض من النبات والحبوب والثمار والفواكه وما عليها من الحيوانات.

﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هذا عام يدل على أن الأصل في الأشياء الحل، وأنه لا يحرم مما في الأرض إلا ما حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:٢٩]، ﴿خَلَقَ لَكُم ﴾ الله خلق ما في الأرض من النباتات والحبوب والثمار والفواكه والحيوانات، خلقها لكم تنتفعون بها.

﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ بهذين الشرطين، فما ليس بحلال، فإنه لا يؤكل، وما لم يكن طيبًا، فإنه لا يؤكل، يشترط فيما يؤكل ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يكون حلالًا، **الشرط الثاني:** أن يكون طيبًا، الشرط الثالث: ألا يكون ضارًا، فإذا توافرت هذه الشروط، فإنه يباح كل ما توافرت فيه، وإذا اختل شرط منها، فإنه يحرم ما اختل فيه هذا الشرط أو هذه الشروط.

فقوله: ﴿حَلَٰلًا﴾ يخرج بذلك الحرام، حلالًا أي: من جهة المكسب، يخرج بذلك الكسب المحرم، فإنه حرام، وذلك مثل الربا، هذا من أشد المحرمات، الربا والميسر والرشوة والغش في المعاملات كل هذا مما نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه.

الربا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٣٠]، وقال سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَكَاتِبَهُ**»[١].

الربا حرام بالإجماع[٢]، ومن استحله فهو كافر مرتد عن دين الإسلام، ومن أكله ولم يستحله، يعترف أنه حرام، لكنه أكله، فهذا فاعل لكبيرة من

---

(١) أخرجه أحمد -واللفظ له- (٦/ ٣٥٨)، ومسلم بلفظ مقارب (١٥٩٧)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال الماوردي: (أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَحْرِيمِ الرِّبَا وَإِنِ اخْتَلَفُوا فِي فُرُوعِهِ وَكَيْفِيَّةِ تَحْرِيمِهِ) الحاوي الكبير (٥/ ٧٤). وانظر: مراتب الإجماع (ص٨٩)، واختلاف الأئمة العلماء لابن هبيرة (١/ ٣٥٧)، وشرح النووي على مسلم (١١/ ٩)، ورياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام (٤/ ٣٨١).

كبائر الذنوب ومتوعد بالوعيد الشديد(١).

وكذلك الميسر وهو قرين الربا، والميسر هو القمار، وهو المراهنات والمغالبات والمسابقات التي يؤخذ عليها أموال، هذا هو الميسر؛ لأنه أكل للمال بالباطل، بالمراهنة أو المسابقة، وقد يسمونه بالجوائز على المسابقات، هذا من أكل المال بالباطل، وهو الميسر، وهو القمار، إلا ما استثناه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المسابقات، وهي ثلاثة أشياء، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا سَبْقَ إِلَّا فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ**»(٢).

النصل المراد به: المسابقة بالرماية، أخذ الجائزة على المسابقة بالرماية، هذا جائز؛ لأنه فيه تدرب على الجهاد.

«**أَوْ خُفٍّ**»، وهو ركوب الإبل، المسابقة على الإبل هذا يجوز أخذ الجائزة عليه؛ لأنه من التدرب على الجهاد؛ لأن الإبل من دواب الجهاد.

«**أَوْ حَافِرٍ**»، والمراد به: الخيل، ركوب الخيل، يجوز أخذ الجائزة على ركوب الخيل؛ لأن هذا تدرب على الجهاد في سبيل الله.

هذه الثلاث يجوز أخذ الجوائز عليها، وما عداها من المسابقات والمراهنات، فإنه حرام؛ لأنه من الميسر، وألحق بعض العلماء بهذه الثلاث مسائل العلم الشرعي، أخذ الجوائز على المسائل الشرعية أن يجعل مسابقة في مسائل فقهية أو

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ**».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٧٤)، والترمذي (١٧٠٠)، والنسائي (٣٥٨٥)، وابن ماجه (٢٨٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على تعلم القرآن أو مسائل الفقه هذا لا بأس؛ لأنه داخل في الجهاد؛ لأن تعلم العلم من الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فما عدا هذه الأمور فلا يجوز أخذ الجوائز عليها؛ لأنه من الميسر ومن أكل المال بالباطل من جميع المغالبات والمراهنات.

كذلك الرشوة، والرشوة: ما يدفع للموظف من قبل المراجعين وأصحاب المعاملات، يدفعون له مالًا لأجل أن ينجز معاملاتهم، وأن يقدمهم على غيرهم من المستحقين من قبله، فيأخذ منهم الرشوة من أجل أن ينجز معاملاتهم أو يقدمهم على غيرهم، أو أشد من ذلك أن يعطيهم ما ليس لهم من حقوق الآخرين، يدخل في هذا القاضي، ويدخل في هذا المدير، ويدخل في هذا الموظف، يدخل فيه كل من تولى شأنًا من شؤون المسلمين، فإنه يجب عليه العدل بين الناس، وألا يأخذ منهم شيئًا في مقابل إنجاز معاملاتهم، هذا هو الرشوة، سواء سميت رشوة أو هدية أو غير ذلك، فهي الرشوة، ولو سميت بغير اسمها، سواء سميت رشوة أو هدية أو إكرامية أو غير ذلك، فكل موظف يجب عليه أن يؤدي العمل الذي وكل إليه بدون أن يأخذ من الناس شيئًا؛ لأن له راتبًا في بيت المال، هو موظف يعطى في مقابل عمله الراتب من بيت المال، وهو مؤتمن على أعمال الناس ومعاملاتهم بأن يقوم بها على الوجه المطلوب، من غير أن يأخذ من الناس رشاوى، الرشوة سحت، وقد وصف الله اليهود بأنهم أكّالون للسحت، والسحت هو الرشوة، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ**»[(١)]، الراشي هو الذي يدفع الرشوة، والمرتشي الذي يأخذ الرشوة،

---

(١) أخرجه أحمد (١٥/ ٨، ١١)، والترمذي (١٣٣٦)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ فِي الْحُكْمِ**».

وكذلك الساعي بينهما ملعون -أيضًا-، وهو الرائش[١]، ثلاثة لعنهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرشوة: الآخذ والمعطي والمتوسط بينهما، وهو الرائش، كلهم ملعونون على لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالرشوة حرام، سحت، وهي من كبائر الذنوب، وقد تساهل فيها كثير من الناس اليوم، وسموها بغير اسمها، واحتالوا عليها، وهي سحت وحرام قرينة الربا، فكما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن آكل الربا وموكله لعن الراشي والمرتشي، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا﴾ [البقرة:١٦٨]، وهذا حرام ليس حلالًا.

وكذلك الغش في المعاملات، الذي يغش الناس في معاملاتهم، ويكذب عليهم في البيع والشراء ويخدعهم، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»[٢].

فالواجب على من يبيع ويشتري أن يكون صادقًا، يكون صادقًا مع الناس، لا يأخذ أكثر من ثمن السلعة، ولا يخفي ما فيها من العيوب؛ بل عليه أن يبين ما فيها من العيوب، ولا يكتم العيوب ويبيعها بيع السليم.

مر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بائع طعام، فأدخل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده في الطعام، فوجد بللًا في أسفل الطعام لم يبينه البائع، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟**

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٣٧/ ٨٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ٤٤٤)، والطبراني في الكبير (٢/ ٩٣)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١١٥)، عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ، يَعْنِي الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمَا».

(٢) أخرجه مسلم (١٠١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ -يعني المطر-، قَالَ: **أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**»(١).

فيجب على البائع والمشتري الصدق في البيع والشراء، لا يكتم عيبًا، ولا يرفع الثمن أكثر مما يستحق ويغرر بالمشتري ويخدع المشتري أو يحلف له، فالذي ينفق سلعته بالأيمان الكاذبة من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، وهم المنان والمسبل والمنفق سلعته بالأيمان الكاذبة(٢).

فيجب على من يبيع ويشتري أن يتعامل بالصدق مع الناس، والصدق فيه بركة، والغش فيه محق للبركة، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»(٣).

فيجب على الذي يبيعون ويشترون في الأسواق أن يتعاملوا بالصدق مع الناس والأمانة، ولا يخدعوا الناس، أو يكذبوا عليهم، أو يغشوهم، أو يخونوهم؛ لأن أخاك وثق منك، وقبل قولك، واشترى سلعتك، فلابد أن تكون صادقًا.

وكذلك من الغش أن الموظف لا يقوم بالعمل، يتوظف ويأخذ الراتب، ولكنه لا يقوم بالعمل، لا يحضر في الدوام، أو يحضر ويشتغل بغير العمل، ويترك أعماله الوظيفية، ويعمل بغيرها، يطالع الصحف والجرائد، يستقبل

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٠٦)، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: المَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الْفَاجِرِ، وَالمُسْبِلُ إِزَارَهُ**».

(٣) أخرجه البخاري (٢١١٠)، ومسلم (١٥٣٢)، من حديث حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الناس أصدقاءه، ويمزح معهم، ويمضي الوقت بدون عمل، وأعماله مكدسة عنده، ولا يهتم بذلك، أو يخرج من مكان العمل قبل نهاية الدوام، أو يتأخر في الحضور، ويأخذ الراتب كاملًا، هذا من الغش -والعياذ بالله!

الواجب على الموظف أن يكون أمينًا على عمله، يحضر في أول الدوام، ويستمر إلى آخر الدوام، ويعمل، لا يمضي وقته في غير ما جاء من أجله، وهو العمل الوظيفي إلا أمورًا لابد منها، عذر شرعي فلا بأس به.

﴿**كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا**﴾ بهذا الشرط، تنبهوا يا عباد الله، ﴿**حَلَـٰلًا**﴾ لا تدخل في كسبك شيئًا من الحرام، وتأكل من الحرام، قال ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:** ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ [المؤمنون:٥١] **وَقَالَ:** ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ**﴾ [البقرة:١٧٢] **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**»(١)، أكل الحرام يمنع قبول الدعاء، الذي يأكل الحرام لو يدعو الليل والنهار، لا، الباب مسدود، لا يجاب دعاؤه -والعياذ بالله-، الصلة مقطوعة بينه وبين ربه بسبب أكل الحرام، وجاء في الحديث: «**أن كل جسم نبت من السحت -يعني: الحرام-، فالنار أولى به**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٢٢/ ٣٣٢)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: «... **إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ النَّارُ، أَوْلَى بِهِ**».

فلا يتغذى الإنسان بالحرام ويغذي أولاده وأهل بيته بالحرام والكسب الحرام.

﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا﴾، هذا الشرط الأول: لا يكون من المعاملات المحرمة في الإسلام، ﴿طَيِّبٗا﴾ لا يكون خبيثًا، لا يكون هذا المأكول من الخبائث، وذلك مثل الميتة ولحم الخنزير، هذه خبائث، خبائث ومحرمات.

فلا يأكل الإنسان من الأشياء الخبيثة كالميتة التي لم تذك ذكاة شرعية، يعني: ماتت حتف أنفها، أو ذكيت ذكاة غير شرعية، أو ذكاها كافر ليس من أهل الكتاب، هذه ميتة، ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣]، هذه كلها خبائث، الميتة خبيثة، الدم هذا خبيث حرام، لا يجوز للإنسان أنه يأكل الدم أو يستعمل الدم إلا في حالة الضرورة، لو أن مريضًا احتاج إلى إسعاف بالدم، لا بأس هذه ضرورة، يسعف بالدم؛ لأن هذا من باب الضرورة، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، حتى الميتة إذا اضطر الإنسان إلى أكلها، يعني: دار الأمر بين كونه يموت أو يأكل من هذه الميتة، يأكل من الميتة ما يبقي عليه حياته؛ لأن هذا من الضرورة، ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾، هذه خبائث، ﴿وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾، هذا خبيث، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ يعني: ما ذبح للقبور، للأصنام، ما ذبح للشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ كالذي يذبح للقبور والأموات، أو يذبح للأصنام، أو يذبح للجن.

هذا كله مما أهل به لغير الله، فهو حرام، خبيث لا يجوز الأكل منه، وكذلك سائر الخبائث مثل الحشرات كالحيات والعقارب وكل الحشرات؛ لأنها خبيثة لا يجوز أكلها، وكذلك الدخان هذا خبيث، وكذلك القات هذا خبيث، وأشد

من ذلك الخمر والحشيش والمخدرات، كل هذه خبائث لا يجوز للإنسان أن يتغذى بها؛ لأن الله حرم الخبائث؛ كما في قوله تعالى في وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فكل ما كان خبيثًا مستخبثًا فإنه لا يجوز للإنسان أن يأكل منه؛ لأنه إذا تغذى منه، أثر ذلك في جسمه، وأثر ذلك في دينه، وكل جسم نبت من السحت النار أولى به.

قلنا: من الخبائث أشياء يستعملها الناس الآن، وهي خبائث بإقرارهم واعترافهم هم أنها خبائث. الدخان هذا لا أحد يقول: إنه من الطيبات أبدًا، حتى الذين يتعاطونه ويشربونه لا يمكن يقولون: إنه من الطيبات، وإن قالوا، فهم كذبة، ليس هو من الطيبات، هو خبيث.

وكذلك أشد منه القات، أشد من الدخان؛ لما يؤثر على الجسم وعلى الفكر، نوع من المخدرات، وكذلك سائر المخدرات والحشيش والأفيون وغير ذلك هذه من الخبائث التي حرمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكل ما يعد من الخبائث فإنه حرام؛ لأن الله قال: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة:١٦٨]، يخرج بالطيب الخبيث، ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة:١٠٠]، الخبيث لا يجوز أكله ولا شربه ولا تعاطيه، وهناك ضوابط للخبيث والطيب يعرفها الناس، الطيب طيب في أثره، وطيب في طعمه، وطيب في ريحه، وطيب في تغذيته.

والخبيث خبيث بجميع أوصافه: في طعمه، ورائحته، وفي تأثيره على الجسم، وفي تغذيته، فهو خبيث لا يصلح غذاء للمسلم، المسلم يتغذى بالطيبات، وفيها

بركة، وفيها خير، وفيها غنى، يتغذى بالطيبات، ويترك الخبائث، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وكل خبيث من الأطعمة أو الأشربة فإنه حرام بنص هذه الآية الكريمة، وكذلك يشترط في المأكول والمشروب ألا يكون ضارًا للجسم كالسموم القاتلة والسموم التي تضر الجسم، هذه لا يجوز للإنسان أن يأكلها؛ لأنها ضارة، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، ويقول سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء:٢٩]، والأشياء الضارة تقتل كالسموم والمخدرات والدخان، كل هذه تفضي إلى التلف؛ لأنها تؤثر أمراضًا فتاكة، خصوصًا الدخان الذي يتساهل الناس فيه مع كونه من الخبائث، فهو -أيضًا- مضر ضررًا واضحًا يعرفه الناس؛ يرون المدخن كيف يكون جسمه، كيف يكون رائحته، كيف يكون عند الناس، الناس ينفرون منه لخبث رائحته، من المضرات بالبدن، شخَّص الأطباء في العالم أن في الدخان أمراضًا كثيرة خطيرة، كلها خطيرة، فهو محرم من ناحتين؛ بل من نواحٍ كثيرة؛ من ناحية أنه من الخبائث، من ناحية أنه مضر، من ناحية أنه لا نفع فيه أبدًا، وإنما هو ضرر محض، ليس فيه نفع بأي وجه من الوجوه، وإنما هو ضرر مائة في المائة، ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ بهذه القيود.

ويدخل في الخبائث الحيوانات التي نهى الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن أكلها، نهى صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن كل ذي مخلب من الطيور، وكل ذي ناب من السباع[1]،

(١) أخرجه مسلم (١٩٣٤) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، وَعَنْ كُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ».

السباع حرام، والطيور الجارحة التي تفترس حرام، الطيور التي تأكل الجيف حرام؛ لأنها من الخبائث، تتغذى بالجيف، نهى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كل ذي ناب من السباع يفترس به، وعن كل ذي مخلب من الطير يفترس به، هذه حرام، هذه سباع البهائم وسباع الطيور حرام.

﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ لما أمر بالأكل من الطيبات والحلال، نهى عن اتباع خطوات الشيطان، الشيطان هو إبليس -لعنه الله-، وكذلك ذريته من شياطين الجن؛ لأن الشيطان كل من تمرد على أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو شيطان، كل من تمرد على طاعة الله فهو شيطان، سواء كان من الجن أو من الإنس، قال تعالى: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢]، قدم شياطين الإنس على شياطين الجن؛ لأنهم أشد خطرًا، فمن تمرد على أوامر الله، فهو شيطان، سواء كان من الجن أو من الإنس.

ويقول جَلَّ وَعَلَا هنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾، هذا يشمل الشيطان الذي هو إبليس، ويشمل كل شيطان من الجن والإنس، والله حذرنا من الشيطان في آيات كثيرة، وأخبرنا أنه عدو لنا منذ ما جرى بينه وبين أبينا آدم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن تقوم الساعة، وهو عدو لنا، يجرنا إلى ما يضرنا دائمًا وأبدًا، ويحاول يبعدنا عن طاعة الله ويخرجنا عن طاعة الله، يحاول أن يوقعنا في الأضرار، يحاول أن يدعونا إلى النار وأن ندخل معه السعير والنار، هذا عمله دائمًا وأبدًا، فعلينا أن نحذر منه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي: طرق الشيطان؛ لأن الشيطان يدعو الناس إلى الباطل بطرق كثيرة هي خطواته.

علينا أن نحذر من الشيطان وأعوانه من الجن والإنس، نحذرهم لأنهم يجروننا من السلامة إلى الهلاك، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، هذا قصده أن يورد الناس النار، ﴿يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ أي: أتباعه، ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وذلك بما يزينه من الباطل وينفر من الحق، الشيطان دائمًا ينفر من الحق، ويزين الباطل، هذا عمله؛ ينفرك من الصلاة، ينفرك من أداء الزكاة، ينفرك من الصيام، ينفرك من الحج والعمرة، ينفرك من الطاعات، يكسلك عنها، يثبطك عنها، ويزين لك المعاصي، ويزين لك الشهوات والمحرمات، يحاول أنك لا تأكل من الحلال، وإنما تأكل من الحرام؛ من الربا، من السرقة، من الغصب، من الظلم، من أكل أموال الناس بالباطل، يزين لك هذه الأمور، ويبغض عليك الحلال والكسب الحلال، هذه خطوات الشيطان، فهو يبعدك عن الطاعات، ويحبب إليك ويرغبك في المعاصي، هذا عمله مع بني آدم دائمًا وأبدًا؛ كما تعهد بذلك، فقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾، يقول لربه عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ يعني: آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]، توعد، ويقول: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢، ٨٣]، ويقول: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

فإذا وجدت في نفسك نفرة عن الطاعة، فاعلم أن هذا بسبب الشيطان، وإذا وجدت في نفسك محبة للمعصية، فاعلم أن هذا من الشيطان، هذه خطوات

الشيطان، إذا وجدت في نفسك محبة للغيبة والنميمة والتحريش بين الناس، فهذه خطوات الشيطان.

ووجدت من نفسك نفرة عن الإصلاح والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجدت نفسك لا تريد هذه الأمور، فاعلم أن هذا من الشيطان، إذا وجدت من نفسك أنك ترغب أنك تدعو الناس إلى المعاصي وإلى الشرور وإلى السفور وإلى خلع الحجاب وإلى تبرج المرأة وإلى خروج النساء عن آداب الشرع، فاعلم أن هذه خطوات الشيطان.

فعلينا أن نحذر منها، فهو ينهى عن كل طاعة، ويأمر بكل معصية، هذا عمله؛ لأنه يريد لنا الهلاك، قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ يعني: الشيطان، ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

كيف الإنسان يعرض عن الله ويذهب مع الشيطان الذي هو عدوه؟! يعرض عن الله الذي يريد له الخير ويريد له السعادة في الدنيا والآخرة، ويأمره بكل خير وينهاه عن كل شر، ويذهب مع الشيطان الذي هو عدوه؟! هذا من العجائب.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، ومن خطوات الشيطان في هذا الباب أنه يأمر بأكل الحرام، وينهى عن أكل الحلال، ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، فهو يأمر بأكل الحرام، وينهى عن أكل الطيبات، وينفِّر منها، ثم قال جَلَّوَعَلَا معللًا هذا النهي: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨].

لماذا نهانا الله عن اتباع خطوات الشيطان؟ لأنه عدو لنا، وليست عداوته يسيرة، وإنما هي عداوة عظيمة متناهية، ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيّن العداوة، واضح، ومع هذا يتبعه كثير من بني آدم، ويتبعون خطواته، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فكيف تتبعونه وهو لكم عدو؟! كيف تطيعونه فيما يأمركم به وفيما ينهاكم عنه وفيما يزينه لكم، وأنت تعلمون أنه عدو لكم؟! ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩]، هذه أوامر الشيطان لبني آدم.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾، وهو المعاصي، المعاصي تسمى سوءًا؛ لأنها تسوء الإنسان يوم القيامة -والعياذ بالله!

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ سائر المعاصي، ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ أشد من السوء، الفحشاء هي: ما تناهى قبحه من المعاصي(١)، وهي الكبائر؛ الزنا، السرقة، شرب الخمر، أكل الربا، أخذ الرشوة، هذه فواحش الشيطان يأمر بها.

﴿يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ يعني: بسائر المعاصي، ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهي الكبائر، كبائر الذنوب، وأشد من ذلك يأمركم: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذه المصيبة، القول على الله بلا علم هذه أشد من الشرك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، فجعل القول على الله بغير علم فوق الشرك وأشد، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

---

(١) انظر مادة (فحش) في: العين (٣/ ٩٦)، وتهذيب اللغة (٤/ ١١١)، والصحاح (٣/ ١٠١٤)، ومقاييس اللغة (٤/ ٤٧٨)، ولسان العرب (٦/ ٣٢٥).

وذلك بأن يقول الإنسان: هذا حلال، وهذا حرام. من غير دليل من كتاب الله ولا من سنة رسول الله، هذا من القول على الله بلا علم؛ أن يشرك الإنسان بالله ويقول: إن الله أمر بهذا، أمر أننا نتخذ وسائط ووسائل بيننا وبينه، هذا من القول على الله بلا علم.

المشرك يقول على الله بلا علم، الذي يأكل المحرمات ويفتي بها هذا يقول على الله بغير علم، الذي ينهى عن الطاعات وينفر منها يقول على الله بغير علم، وكم من المنتسبين إلى العلم من يقول على الله بغير علم! ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يحلل ويحرم من دون دليل من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، هذا شأن العالم، فكيف بالجاهل؟! الرسول ﷺ يقول: «**إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ**»[1].

«**زلة العالم**» العالم خطر زلته، علينا أننا لا ننساق وراء أقوال الناس، حتى نعرف أدلتها، حتى نعرف دليلها من الكتاب والسنة.

أما الإنسان الذي يطلق لسانه، ويقول: هذا حلال وهذا حرام. بدون أن يقول: الدليل كذا. هذا نتوقف في كلامه، ولا نأخذه على الفور.

الناس الآن في وسائل الإعلام سلطوا على مسألة الفتاوى والتحليل والتحريم بغير علم، إما عن جهل وإما عن هوى -والعياذ بالله-، بعضهم ليس عنده علم، ولا عنده فقه، ويتكلم بالحلال والحرام، ويقول على الله بلا علم.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية مرسلًا من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١/ ٢١٩)، ووصله الطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٢٦٤)، والبيهقي في القضاء والقدر (١/ ٢٨٥).

بعضهم عنده علم، لكنه صاحب هوى، يريد أن يضل الناس -والعياذ بالله-، فالأمر خطير جدًّا، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩].

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١١٦، ١١٧].

فالذي يقول على الله بغير علم يفتري على الله الكذب، الإنسان في عافية، لا يدخل نفسه في المخاطر، ولا يسارع إلى الفتوى إلا عند الضرورة، وإذا لم يوجد غيره ممن هو أعلم منه، فإذا ابتلي وهو عنده شيء من العلم، وليس هناك من يسند الفتوى إليه ويحيل عليه، فإنه يتقي الله عَزَّوَجَلَّ، ويجتهد، يتقي الله ويجتهد، ويقول ما توصل إليه، فإن كان حقًّا، فهو من الله، وإن كان خطأً، فهو من الشيطان.

هذا عند الضرورة، أما الإنسان الذي في عافية، فلا يورط نفسه، كان الصحابة يتدافعون الفتوى مع ما أعطاهم الله من العلم والبصيرة لايتسارعون إلى الفتوى، يدفعها بعضهم إلى بعض، يقول: اذهب إلى فلان، اذهب إلى فلان، اذهب إلى فلان؛ لأنهم يعلمون خطر الفتوى.

وأما نحن، فنحن نتسارع إلى الفتوى، ونتدافع عليها -ولا حول ولا قوة إلا بالله!-، هذا من قلة الورع ومن قلة الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الغفلة عن المصير يوم القيامة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هذا من أمر الشيطان، ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩]، إذا صرت

لا تعلم -يا أخي- أنت في عافية، الله مكلفك تقول شيئًا وأنت لا تعلم، لا يجوز لك هذا الشيء، توقف؛ ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة:١٧٠].

انظروا! ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: للمشركين والكفار، المشركين الذين يعبدون الأصنام والذين يعبدون القبور والأضرحة اليوم، والصوفية الذين يعبدون المشايخ ويطيعونهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ما أنزل الله من القرآن والسنة، ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، هذا شرعهم؛ ما وجدوا عليه آباءهم ومشايخهم ومن يعظمونهم ولو خالفوا الكتاب والسنة.

تقول له: هذا القول مخالف للكتاب والسنة، يقول: لا، هذا قال به فلان، وهو شيخي أو إمامي، أو هذا ما عليه أجدادي وآبائي لن أغير طريقتي.

آباؤه على الشرك وعلى البدعة وعلى الخرافة وعلى المعاصي، فإذا قلت: يا فلان، اتق الله، هذا الذي أنت عليه خطأ، والصواب أنك ترجع إلى كتاب الله وسنة رسوله، يقول لك: لا، أنا ليس علي، هذا بذمتهم -يقول-. ليس بذمتهم، هذا بذمتك أنت، ليس بذمتهم، هم لم يجبروك على هذا.

على المسلم أنه إذا دعي إلى كتاب الله وسنة رسوله أن يترك ما هو عليه مما يخالف الكتاب والسنة، هذا هو المسلم، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١]،

أما أهل الهوى وأهل الضلال، فيتبعون آباءهم ولو كانوا على الباطل، وهذا ما يسمى بالتعصب الأعمى والتقليد الأعمى.

التقليد الأعمى أنه يتبع من سبقه، ولو كان على الباطل، هذا تقليد أعمى -والعياذ بالله-، هذا ما عليه المشركون من قبل، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة:١٧٠] ما أدركنا آباءنا يفعلونه.

هل آباؤك يشرعون ويحللون ويحرمون؟! هل هم أرباب من دون الله عَزَّوَجَلَّ؟! لا يصلح الجواب هذا، هذا ما يسمى بالتقليد الأعمى والتعصب الأعمى للآباء والأشياخ والأجداد وأصحاب المذاهب المنحرفة، نسأل الله العافية!

الواجب على الإنسان المسلم أن يقبل الحق ممن جاء به، سواء كان عند آبائه أو عند غيرهم، يقبل الحق، «الحق ضالة المؤمن، أين وجده أخذه»(١).

هذا هو المؤمن، أما إذا كان الآباء والأجداد على حق، فلا بأس باتباعهم وتقليدهم، قال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٣٨]، هذا يسمى اتباعًا، لا يسمى تقليدًا، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠]، فاتباع أهل الحق والسير على منهج أهل الحق هذا لا يسمى تقليدًا، هذا يسمى اتباعا واقتداءً؛ كما قال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا».

الله ذكر هذا من باب المدح له صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٧، ٣٨].

فعلينا أن نسلك منهج أهل الحق ممن سبقونا من السلف الصالح، ولانسمي هذا من باب التقليد، وإنما نسميه من باب الاقتداء والاتباع لأهل الحق ومنهج أهل الحق، أما إذا كانوا على الباطل، فلا يجوز أن نتبعهم ولو كانوا أقرب الناس إلينا، إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ تبرأ من أبيه أقرب الناس إليه» لأنه ليس على الحق، تبرأ من أبيه أقرب الناس إليه، هذا الطريق الصواب وطريق الحق، ولهذا قال: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا﴾ يعني: لا يفهمون شيئًا من شرع الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠]، فدل على أنهم لو كانوا يعقلون ويهتدون أننا نتبعهم، إنما الذين ﴿لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ لا يجوز لنا نتبعهم.

﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا﴾ لا يفهمون شيئًا من شرع الله، ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ إلى الصواب؛ بل هم ضلال، هؤلاء لا يجوز اتباعهم.

أما لو كانوا يعقلون كتاب الله وسنة رسوله، ويهتدون إلى الحق، فإننا نتبعهم، ونقتدي بهم، ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

نعم التقليد عرفناه، تقليد الباطل هذا لا يجوز، أما الاقتداء بأهل الحق، فهذا جائز، وهذا هو الواجب.

العامي الذي لا يعرف شيئًا ماذا يعمل؟ يسأل أهل الذكر، يسأل أهل العلم، لا يقول: والله وجدت أهل بلدي على كذا وآبائي يعملون كذا وأنا على طريقهم. لا، الواجب عليه أنه يسأل أهل العلم، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، فالعامي لا يبقى على ما عليه آباؤه وأجداده وأهل بلده وقبيلته، وإنما يسأل أهل العلم، فإن كان ما عليه آباؤه وأجداده صوابًا، فإنه يسير عليه، وإن كان ما هم عليه خطأ وضلال، فإنه يتركه، هذا الواجب؛ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

ثم ضرب لهم مثلًا، ضرب لهؤلاء الذين يتبعون آباءهم وأجدادهم بغير هدى وغير حق ضرب لهم مثلًا بالبهائم، البهائم التي تتبع صوت الراعي وهي لا تفهم ما يقول، هؤلاء مثل البهائم يتبعون أصوات آبائهم وأجدادهم وهم لا يفهمون، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة:١٧١]، البهائم تسير على صوت الراعي في الليل، إذا أصدر لها صوتًا وهي لا تفهم ماذا يقول، إنما تسمع الصوت فقط.

فهؤلاء الذين يتبعون آباءهم وأجدادهم على الضلال مثل البهائم التي تسير خلف الراعي وهي لا تدري أين يذهب، هل سيذهب بها إلى المراعي أو يذهب بها إلى المجزرة؟ لا تدري، تسير وراء هذا الراعي فقط.

هؤلاء مثل البهائم -والعياذ بالله-، أين عقولهم؟ أين أفكارهم؟ هذا قول في الآية.

والقول الثاني: أن المراد بهذا المثل أن مثل الدعاة إلى الحق من الرسل

وأتباعهم مع أهل الباطل كمثل الذي يصوت على البهائم لا تفهم صوته، لاتفهم معنى كلامه، وإنما تسمع صوته فقط[(١)].

فالرسول يدعوهم، وهم لا يفهمون، يقرأ القرآن يسمعون الصوت، لكن لا يفهمون المعنى؛ لأنهم لا يريدون الفهم، أعطاهم الله عقولًا، وأعطاهم أسماعًا وأبصارًا، لكن لا يريدون أن يتفقهوا، لأنهم مستغنون بما عليه آباؤهم وأجدادهم، فلا يستمعون للرسول، ولا يستمعون للدعاة إلى الحق، وإنما صوت الرسول وصوت الدعاة مثل صوت الراعي مع البهائم -لا حول ولا قوة إلا بالله!-، وهذا واقع يا عباد الله!

الآن أهل الضلال وأهل الباطل وعباد القبور والأضرحة وغير ذلك يقرؤون القرآن ويسمعونه، وهو ينهى عن الشرك، وهم لا يفهمون، مستمرون على ما عليه آباؤهم وأجدادهم وبلدهم من عبادة القبور، والقرآن يتلى عليهم ويسمعونه، لكن لا يتفقهون فيه، وإنما يقرؤونه للبركة أو للعلاج أو للحروز والوقاية من العين، أما أنهم يقرؤونه ويسمعونه للانتفاع هذا قليل في الناس.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ﴾ أي: يصوت، ﴿بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ صوت فقط، هذا مثل أهل الضلال مع القرآن اليوم ومع الدعاة لا يستجيبون ولا يصغون.

وقد يتلذذ بالقرآن وتلاوة القرآن، يتلذذ بالتلاوة وبالصوت، لكن المعنى لا يلتفت إليه، القرآن ينهى عن الشرك، وهو يذهب يدعو الضريح ويدعو القبر

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٤-٤٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٨٢)، وتفسير الماوردي (١/ ٢٢١)، وتفسير البغوي (١/ ١٩٩).

مثل البهيمة لا تدري، فهذا مثل في غاية المطابقة لحالة الذين لا ينتفعون بالقرآن، ولا ينتفعون بأحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رغم أنهم يسمعونها ويقرؤونها ليلًا ونهارًا، ولكنهم لا يتحولون عما هم عليه من الضلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾، ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ صُمٌّۢ ﴾ يعني: آذانهم لا تسمع، لا تسمع سماع قبول، تسمع الصوت، لكنها لا تفقه ولا تدري ما معنى هذا الصوت؛ لأنها لا تريد الفهم.

﴿ صُمٌّۢ ﴾ عن سماع الحق، إذا قلت: هذا شرك، هذا بدعة، هذا خرافة. لا يسمعون، إذا أثنيت على ما هم عليه ومدحتهم، فرحوا؛ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٥]، إذا مدحت ما هم عليه من الباطل وما عليه آباؤهم، وقلت: هذا صحيح. يفرحون بهذا، لكن لما تقول لهم: لا، هذا لا يجوز -يا عباد الله-، أنقذوا أنفسكم من النار. لا يسمعون، يقفلون أسماعهم.

﴿ صُمٌّۢ ﴾ عن سماع الحق، لكنهم يسمعون الباطل، ويصغون إليه، يقفلون أسماعهم عن الحق، ويفتحونها للباطل.

ومثال ذلك الآن الذي لا يستمع للقرآن ويستمع للأغاني، هذا يصم سمعه عن القرآن، ويفتح سمعه للأغاني والمزامير، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:٦].

توحيد الألوهية

الحمد لله رب العالمين، أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لبيان الهدى من الضلال، فأوضح المحجة، وأقام الحجة؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزًا حكيمًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد خاتم الرسل، ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، وحذرها من الانحراف والتحريف، وحثها على التمسك بالكتاب والسنة؛ ضمانًا لنجاتها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تمسك بسنته، وسار على نهجه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن العقيدة هي الأساس الذي يقوم عليه بنيان الأمم، فصلاح كل أمّة ورقيّها مربوط بسلامة عقيدتها وسلامة أفكارها، ومن ثَمَّ جاءت رسالات الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تنادي بإصلاح العقيدة قبل شيء، فكل رسول يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وذلك لأن الله -سبحانه- خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

والعبادة حق الله على عباده؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟** قال:

اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(١)، وهذا الحق هو أول الحقوق على الإطلاق، لا يسبقه شيء، ولا يتقدمه حق أحد، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١]، الآيات.

ولأسبقية هذا الحق وأوليته على سائر الحقوق، وكونه الأساس الذي تبني عليه سائر أحكام الدين، نرى النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو النّاس إلى القيام بهذا الحق ونفي الإشراك عنه.

وجاء القرآن الكريم في معظم آياته بتقرير هذا الحق ونفى الشُّبَه عنه.

وكل مصلٍّ -فرضًا أو نفلًا- يعاهد الله على القيام بهذا الحق في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وهذا الحق العظيم يسمى توحيد العبادة أو توحيد الإلهية، أو توحيد الطلب والقصد، أسماء لمسمى واحد.

وهذا التّوحيد مركوز في الفطر؛ فـ«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»، وإنّما يطرأ الانحراف عنه بسبب التربية الفاسدة؛ «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(٢).

وهذا التوحيد أصيل في العالم، والشرك طارئ عليه ودخيل فيه؛ قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقال

---

(١) سبق تخريجه (ص٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس:١٩]. قال ابن عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ»(١).

قال العلاّمة ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذا هو القول الصّحيح في الآية)(٢)، وذكر ما يعضده من القرآن، وصححه أيضًا الحافظ ابن كثير في تفسيره.

وأوّل ما حدث الشرك في الأرض في قوم نوح، حين غلوا في الصالحين، واستكبروا عن دعوة نبيهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح:٢٣]، قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا -أي تماثيل- وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»(٣).

قال الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال غير واحد من السّلف: لمّا ماتوا -يعني: هؤلاء الصالحين في قوم نوح-، عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم)(٤).

ثمّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد تلاعب الشّيطان بالمشركين في عبادة الأصنام فكل قومٍ على قدر عقولهم، فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين

(١) سبق تخريجه (ص٦٦).
(٢) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٠٤).
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).
(٤) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٨٤).

صوّروا تلك الأصنام على صورهم، كما في قوم نوح، وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين.

وأمّا خواصّهم فاتخذوا الأصنام على صور الكواكب المؤثرة في العالم بزعمهم، وجعلوا لهم بيوتًا، وسدنةً، وحجّابًا، وقربانًا. ولم يزل هذا في الدنيا قديمًا وحديثًا.

وأصل هذا المذهب من مشركي الصابئة، وهم قوم إبراهيم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الذين ناظرهم في بطلان الشّرك وكسر حجّتهم بعلمه وآلهتهم بيده، فطلبوا تحريقه.

وطائفة أخرى اتخذت للقمر صنمًا، وزعموا أنه يستحق العبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي.

وطائفة تعبد النار وهم المجوس، فيبنون لها بيوتًا كثيرةً، ويتخذون لها الوقوف والسّدنة والحجّاب، فلا يدعونها تخمد لحظةً واحدةً.

وطائفة تعبد الماء، تزعم أنّ الماء أصل كلّ شيء وبه كلّ ولادةٍ ونمو، ونشوء، وطهارة، وعمارة.

وطائفة تعبد الحيوانات: فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر، وطائفة عبدت البشر -الأحياء والأموات- وطائفة تعبد الجنّ، وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبد الملائكة)، انتهى كلام ابن القيّم رَحِمَهُٱللَّهُ(١).

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٢).

أيها الأخوة! ومن هذا الأثر الذي مرَّ من رواية البخاري عن ابن عبّاس في بيان سبب حدوث الشرك في قوم نوح ندرك:

أولًا: خطورة التصوير، وخطورة تعليق الصور على الجدران، وخطورة نصب التماثيل في المجالس والميادين، وأن ذلك يؤول بالناس إلى الشرك، بحيث يتطور تعظيم تلك الصور والتماثيل إلى عبادتها واعتقاد جلب الخير ودفع الشّر منها، كما حدث لقوم نوح.

وندرك ثانيًا: مدى حرص الشيطان على إضلال بني آدم ومكره بهم، وأنه قد يأتيهم من ناحية استغلال العواطف ودعوى الترغيب في الخير؛ فإنه لما رأى في قوم نوح ولعهم في الصالحين ومحبتهم لهم، دعاهم إلى الغلو في هذه المحبة، بحيث أمرهم بنصب صورهم على المجالس، وهدفه من هذا الخروج بهم عن جادة الصّواب.

وندرك ثالثًا: أن الشيطان لا يقصر نظره على إغواء الأجيال الحاضرة، بل يمتد نظره إلى إغواء الأجيال المستقبلة، فإنه لما لم يتمكن من إيقاع الشرك في الجيل الحاضر من قوم نوح، طمع في الجيل المستقبل، ونصب له الحيل حتى أوقعه في الشرك.

وندرك رابعًا: أنّه لا يجوز التساهل في وسائل الشّر، بل يجب قطعها وسد بابها؛ لئلا تفضي إلى المحظور.

وندرك خامسًا: فضل العلماء العاملين، وأن وجودهم في الناس خير، وفقدانهم شر، فإن الشيطان لم يتمكن من إغواء القوم حتى فقد العلماء.

أيها الأخوة! جدير بنا أن نبين أنواع التوحيد، فأنواع التوحيد:

التوحيد نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية، المتمثل بالإقرار بالخالق، والإقرار بانفراده بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة وجلب الخير ودفع الشّر، وهذا النوع لا يكاد ينازع فيه أحد من الخلق، حتى إن المشركين كانوا يقرّون به مع شركهم ولا ينكرونه؛ كما ذكر الله تعالى عنهم ذلك في قوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١]، وأمثالها من الآيات في القرآن كثير، وفيها البيان الواضح أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وإنما كانوا يجحدون توحيد العبادة، وهو النوع الثاني المتمثل في إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الطلب والقصد في كل ما يصدر من العبد من أنواع العبادة؛ كما تدل عليه وتعبّر عنه كلمة «لا إله إلا الله»؛ فإن هذه الكلمة تثبت العبادة بجميع أنواعها لله وحده، وتنفيها عما سواه، ولهذا لما طلب النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المشركين أن يقولوها، امتنعوا وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥]؛ لعلمهم أن من قال: «لا إله إلا الله»، فقد اعترف ببطلان عبادة كل ما سوى الله، وأثبت العبادة لله وحده، فإن الإله معناه: المعبود، والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة[1]، فمن نطق بلا إله إلا الله وهو مع هذا يدعو غير الله، فقد تناقض مع نفسه.

---

(١) هذا تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية للعبادة، انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

والعلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية هي التلازم، بمعنى: أن الإقرار بتوحيد الربوبية يوجب الإقرار بتوحيد الإلهية، والقيام به ظاهرًا وباطنًا، ولهذا كان الرّسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- يطالبون أممهم بذلك، ويحتجّون عليهم بما يعترفون به من توحيد الربوبيّة؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام:١٠٢]، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨]، فالإقرار بتوحيد الربوبية مركوز في الفطر، لا يكاد ينازع فيه أحد من المشركين، ولم يعرف عن أحد من طوائف العالم إنكار هذا النوع إلا الدهرية الذين يجحدون الخالق، ويزعمون أن العالم يسير بنفسه من غير مدبّر له؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]، فهم لم يبنوا إنكارهم هذا على برهان دلهم عليه، بل على مجرد ظن، والظن لا يغني من الحق شيئًا؛ كما أنهم لم يستطيعوا الإجابة عن قوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥، ٣٦]، ولا الإجابة عن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان:١١]، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأحقاف:٤].

ومن تظاهر بجحد هذا النّوع من التّوحيد كفرعون، فهو مقرٌّ به في الباطن؛ كما قال الله تعالى عنه: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤]، وقال تعالى عن الأمم الأولى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٨].

والحاصل: أن إثبات توحيد الربوبية محل وفاق، والشرك فيه قليل، ولكن الإقرار به وحده لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد مع ذلك أن يأتي بلازمه، وهو: توحيد الإلهية، فإن الأمم الكفرية كانت تقر بتوحيد الربوبية، خصوصًا مشركي العرب الذين بُعِثَ فيهم خاتم الرّسل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكونوا بإقرارهم بتوحيد الربوبية مسلمين لمّا لم يأتوا بتوحيد الإلهية.

والمستقرئ لآيات القرآن الكريم يجد أنّها تطالب بتوحيد الإلهية، وتستدل عليه بتوحيد الربوبيّة، فهي تطالب المشركين بما جحدوه، وتستدل عليهم بما أثبتوه، فهي تأمر بتوحيد العبادة، وتخبر عن توحيد الربوبية، فتذكر توحيد العبادة في سياق الطلب، وتذكر توحيد الربوبية في سياق الخبر.

وأوّل أمرٍ جاء في القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢].

وكثيرًا ما نجد في القرآن الكريم الدعوة إلى توحيد العبادة، والأمر به، والجواب عن الشُّبه الموجهة إليه، وكل سورة في القرآن، بل كل آية في القرآن فهي داعية إلى توحيد العبادة؛ لأن القرآن:

- إما خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا هو توحيد الربوبيّة.

- وإما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له، وترك ما يعبد من دونه، وهذا هو توحيد الإلهية.

- وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وأهل الطاعة في الدنيا والآخرة، وهذا جزاء توحيد الإلهية.

- وإما خبر عن أهل الشرك وعن جزائهم في الدنيا والآخرة، وهذا جزاء من خرج عن حكم هذا التوحيد.

وهذا التوحيد بجميع أنواعه وحقوقه تضمّنته كلمةٌ واحدةٌ هي: «لا إله إلا الله»، فإنها تتضمّن نفيًا وإثباتًا؛ نفي الإلهيّة الحقّة عن كل ما سوى الله وإثباتها لله وحده؛ كما تتضمّن: ولاءً وبراءً؛ ولاءً لله، وبراءً مما سواه.

ودين التوحيد قائمٌ على هذين الأساسين؛ كما قال الله تعالى عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف:٢٦، ٢٧].

وهذا منهاج كل رسول يبعثه الله؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النّحل:٣٦]، قال تعالى: ﴿ فَمَن

يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة:٢٥٦].

فمن قال: «لا إله إلاّ الله»، فقد أعلن البراءة من عبادة كل ما سوى الله، والتزم القيام بعبادة الله، وذلك عهد يقطعه الإنسان على نفسه، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:١٠].

فـ«لا إله إلا الله» إعلان لتوحيد العبادة؛ لأن الإله معناه: المعبود، أي: لا معبود بحقٍ إلا الله.

فمن قال هذه الكلمة عارفًا لمعناها، عاملًا بمقتضاها من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله، مع اعتقاد ذلك والعمل به، فهو المسلم حقًّا.

ومن قالها وعمل بمقتضاها ظاهرًا من غير اعتقاد في القلب، فهو المنافق.

ومن قالها بلسانه وعمل بخلافها من الشرك المنافي لمدلولها، فهو الكافر، ولو قالها مرارًا وتكرارًا، كحال عُبّاد القبور اليوم، الذين ينطقون بـ«لا إله إلا الله»، ولكن لا يفقهون معناها، ولا يكون لها تأثير في تعديل سلوكهم وتصحيح أعمالهم، فتراه يقول: «لا إله إلا الله»، ويكثر من ذلك، ثم يقول: المدد يا عبد القادر، المدد يا بدوي، المدد يا فلان يا فلان، يستنجد بالأموات، ويستغيث بهم في الملمات.

إن المشركين الأولين عرفوا من معنى هذه الكلمة ما لم يعرفه هؤلاء، حيث أدركوا أن الرسول ﷺ حينما قال لهم: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(١)، فقد

(١) سبق تخريجه (ص٩٤).

طلب منهم ترك عبادة الأصنام، وعبادة الله وحده، ولهذا قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص:٥](١).

وقد قال قوم هود له: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأعراف:٧٠]، وقال قوم صالح له: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [هود:٦٢]، وقال قوم نوح له من قبل: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا ﴾ [نوح:٢٣].

هذا ما فهمه الكفار من معنى «لا إله إلا الله»؛ أنه ترك لعبادة الأصنام، وإقبالٌ على عبادة الله وحده، فلهذا أَبَوا النطق بها؛ لأن النطق بها لا يجتمع، لايليق مع عبادة اللات والعزّى ومناة.

وعُبّاد القبور اليوم لا يدركون هذا التناقض، فهم ينطقون بها مع بقائهم على عبادة الأموات، وبعضهم يفسّر الإله بأنّه: القادر على الاختراع والخلق والإيجاد، فيكون معنى «لا إله إلّا الله» عند هؤلاء: لا قادر على الاختراع إلّا الله.

وهذا من أفحش الخطأ، فإن من فسّرها بذلك لم يزد على ما أقر به الكفار، فإنّهم كانوا يقرّون بأنه: لا يقدر على الاختراع وعلى الخلق والرّزق والإحياء والإماتة إلا الله، كما ذكر الله تعالى ذلك عنهم، ولم يصيروا بهذا الإقرار مسلمين.

نعم، هذا المعنى الذي يذكرونه داخل في معنى لا إله إلا الله، ولكن ليس هو المقصود من هذه الكلمة.

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٢).

والشرك في العبادة هو صرفها أو صرف شيء منها لغير الله، وقد ألمحنا فيما سبق إلى مبدأ حدوث الشرك في الأرض، ولا زال مستمرًا في الخلق إلا من رحم الله.

والشرك نوعان:

* شرك أكبر يخرج من الملة كالذبح والنذر لغير الله ودعاء غير الله، أو صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله.

* وشرك أصغر لا يخرج من الملة، لكنه ينقص التوحيد، وربما يتمادى بصاحبه حتى يقع في الشرك الأكبر، وذلك كالحلف بغير الله، وكيسير الرياء، وكقول: «ما شاء الله وشئت»، وقول: «لولا الله وأنت»، وما أشبه ذلك من الألفاظ التي تجري على اللسان، ولا يقصد المتكلم بها معناها، فهي من الشرك الأصغر.

وقد كثر الشرك في هذه الأمة، واستشرى أمره بسبب ابتعاد أكثر الناس عن الكتاب والسنة وتقليدهم للآباء والأجداد على غير هدى، وبسبب الغلو في تعظيم الموتى والبناء على قبورهم، وبسبب الجهل بحقيقة دين الإسلام الذي بُعِث به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الجَاهِلِيَّةَ»(١).

---

(١) هذا الأثر ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١، ١٥/ ٥٤)، وفي منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٩٨، ٤/ ٥٩٠)، وأصل هذا الأثر عند ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤١٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٧٥)، وأبي نعيم في الحلية (٧/ ٢٤٣)، وابن كثير =

وبسبب رواج هذه الشبه والحكايات التي ضل بها أكثر الناس، واعتبروها أدلة يستندون إليها في تبرير ما هم عليه، بسبب هذه الشبه ضل كثير من الناس، وهذه الشبه منها ما أدلى به مشركو الأمم السابقة، ومنها ما أدلى به مشركو هذه الأمة.

ومن هذه الشبه:

أولًا: شبهة تكاد تكون مشتركة بين طوائف المشركين في مختلف الأمم قديمًا وحديثًا، وهي شبهة الاحتجاج بما عليه الآباء والأجداد، وأنهم ورثوا هذه العقيدة عن آبائهم، وإن خالفت ما جاء به الرسل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهذه حجة يلجأ إليها كل من يعجز عن إقامة الدليل على دعواه، وهي حجة داحضة، لا يقام لها وزن في سوق المناظرة؛ فإن هؤلاء الآباء الذين قلدوهم ليسوا على هدى، ومن كان كذلك؛ لا تجوز متابعته والاقتداء به، قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

وإنما يكون الاقتداء بالآباء محمودًا إذا كانوا على حق، قال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ

= في مسند الفاروق (٢/ ٤٢٨): عَنِ الْمُسْتَظِلِّ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: «خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ مَتَى تَهْلِكُ الْعَرَبُ»، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: مَتَى يَهْلِكُونَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «حِينَ يَسُوسُ أَمْرَهُمْ مَنْ لَمْ يُعَالِجْ أَمْرَ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَمْ يَصْحَبِ الرَّسُولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف:٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور:٢١].

وهذه الشبهة -شبهة الاحتجاج بما عليه الآباء وإن خالف الحق- متغلغلة في نفوس المشركين، يقابلون بها دعوات الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقد قال قوم نوح له، لما قال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٣، ٢٤]، فانظر إلى قولهم: ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، احتجاج بما عليه الآباء.

وقال قوم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له: ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [هود:٦٢].

وقال قوم شعيب له: ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود:٨٧].

وقال قوم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له، لما أفحمهم بالحجة، وقال لهم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء:٧٠-٧٤].

وقال فرعون لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه:٥١].

وهكذا الكفر ملة واحدة لا يملك أهله حجة يدفعون بها الحق إلا هذه الحجة الواهية.

ثانيًا: الشبهة التي أدلى بها مشركو قريش وغيرهم، وهي الاحتجاج بالقدر على تبرير ما هم عليه من الشرك، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] الآية، وقال في سورة النّحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل:٣٥]، وقال في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف:٢٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند آية الأنعام: (هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموه، بأن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك). قال: (وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه. ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي: فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال. ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨]، تكذبون على الله فيما ادعيتموه)[1].

وقال عند تفسير آية النحل: (ومضمون كلامهم -أي: المشركين-: أنه لو كان الله تعالى كارهًا لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكننا منه. قال الله تعالى رادًّا عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥]، أي:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٧- ٣٥٨).

ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: في كل قرن وطائفة من الناس ﴿رَسُولًا﴾، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فلم يزل- تعالى- يرسل إلى الناس من الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أوّل رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي طبقت دعوته الإنس والجن، والمشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فكيف يسوغ لأحدٍ من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:٣٥]؟! فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا فلا حجة لهم فيها)، قال: (ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرّسل لهم) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

فهم لم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح؛ لأنهم لا يعتقدون قبح أفعالهم، بل هم ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، وأنهم إنما

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٠).

يعبدون الأصنام ليقرِّبوهم إلى الله زلفى، فلم يريدوا بذلك إلّا الاحتجاج على أن ما ارتكبوه حقٌّ ومشروع ومرضي عند الله، فردّ الله عليهم سبحانه بأنه لو كان الأمر كذلك، لما بعث الرسل لإنكاره، ولما عاقبهم عليه.

ومن شبههم: ظنّهم أنّ مجرّد النطق بـ«لا إله إلاّ الله» يكفي لدخول الجنّة، ولو فعل الإنسان ما فعل، متمسكين بظاهر الأحاديث التي ورد فيها: أن من نطق بـ«لا إله إلّا الله» حرمَ على النار.

والجواب على هذه الشبهة: أن الأحاديث المذكورة محمولة على من قال: «لا إله إلا الله» ومات عليها، لم يناقضها بشرك، وفيمن قالها خالصًا من قلبه مع كفره بما يعبد من دون الله؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث عتبان: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(١)، وفي صحيح مسلم: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرَّمَ اللهُ مَالَهُ وَدَمَهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»(٢). فعلّق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عصمة الدم والمال بأمرين:

الأمر الأول: قول لا إله إلّا الله.

والأمر الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله.

فلم يكتفِ باللفظ المجرد عن المعنى، بل لا بد من قولها والعمل بها.

فقول: لا إله إلّا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتضٍ لذلك، ولكن السبب والمقتضي لا يعمل عمله إلا إذا تحققت شروطه وانتفت موانعه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).
(٢) سبق تخريجه (ص٩٦).

قِيلَ لِلْحَسَنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ أُنَاسًا يَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَأَدَّى حَقَّهَا وَفَرْضَهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(١).

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أَلَيْسَ مِفْتَاحُ الجَنَّةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ قَالَ: «بَلَى، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ مِفْتَاحٍ إِلَّا وَلَهُ أَسْنَانٌ، مَنْ أَتَى الْبَابَ بِأَسْنَانِهِ فُتِحَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ الْبَابَ بِأَسْنَانِهِ لَمْ يُفْتَحْ لَهُ»(٢).

فكيف يقال: إن مجرد النطق بـ«لا إله إلاّ الله» يكفي لدخول الجنّة، ولو كان الناطق بها يدعو الأموات، ويستغيث بهم في الملمات، ولا يكفر بما يعبد من دون الله؟! هل هذا إلا عين المغالطة بالباطل؟!

رابعًا: ومن شبههم: دعواهم أنه لا يقع في هذه الأمة المحمدية شرك، وهم يقولون: لا إله إلا الله محمّد رسول الله، وأن هذا الذي يقع من بعضهم مع الأولياء والصالحين عند قبورهم ليس بشرك.

والجواب عن هذه الشبهة: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر أنه سيحصل في هذه الأمة مشابهة لليهود والنصارى فيما هم عليه، ومن جملة ذلك اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ. قَالُوا**: يَا رَسُولَ اللهِ! الْيَهُودُ، وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: **فَمَنْ؟**»(٣).

---

(١) أخرجه الشجري في ترتيب الأمالي الخميسية (١/ ١٦).
(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٩٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٦٦)، وفي صفة الجنة (٢/ ٣٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٢٧٤).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فأخبر ﷺ أنّ هذه الأمة ستفعل ما فعلته الأمم قبلها من الديانات والعادات والسياسات مطلقًا، وقد وُجِد في الأمم قبلنا الشرك، فكذلك يوجد في هذه الأمة، وقد وقع ما أخبر به ﷺ، فها هي القبور اليوم تعبد من دون الله بأنواع العبادات، ويصرف لها كثيرٌ من القربات.

وأخبر ﷺ: «... **وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ**...». رواه أبو داود وابن ماجه(١).

وقد حدث في هذه الأمة من الشرك والمبادئ الهدامة والنِّحَل الضالة ما خرج به كثير منهم عن دين الإسلام.

خامسًا: ومن شُبههم: تعلقهم بقضية الشفاعة، حيث يقولون: نحن لانريد من الأولياء والصالحين في تعلقنا بهم، لا نريد منهم قضاء الحاجات من دون الله، ولكن نريد منهم أن يشفعوا لنا عند الله؛ لأنهم أهل صلاح ومكانة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والشفاعة ثابتة بالكتاب والسنّة، فهذا الذي نريده منهم.

والجواب عن هذه الشبهة:

أن هذا هو عين ما قاله المشركون من قبل في تعليل تعلقهم بالمخلوقين من دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٣٧/ ٧٧) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصله في مسلم (٢٨٨٩).

فالشفاعة حق، ولكنها ملكٌ لله وحده: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر:٤٤]، فهي تُطلب من الله لا من الأموات ولا من غيرهم، والله قد أخبرنا أنها لا تحصل إلا بشرطين:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع؛ كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

والشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه ممن رضي الله قوله وعمله، وهو المؤمن الموحِّد؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه:١٠٩].

فالله لم يرخص في طلب الشفاعة من الملائكة، ولا من الأنبياء، ولا من الأصنام؛ لأنها ملكه وحده، ومنه تطلب؛ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ [الزمر:٤٤]، فهو الذي يأذن للشافع أن يشفع، وإن لم يأذن له لم يتقدم في الشفاعة.

وليس الأمر كما يحصل عند المخلوقين من تقدم الشفعاء إليهم وإن لم يأذنوا لهم، ويقبلون شفاعتهم ولو لم يرضوا بها، فإن المشفوع عنده من المخلوقين يحتاج إلى الشافع في معاونته، فيضطر لقبول شفاعته وإن لم يأذن له فيها، وأما الله -سبحانه- فهو الغنيّ عما سواه، فليس بحاجةٍ إلى أحدٍ، بل كل أحدٍ محتاج إليه.

وأيضًا المخلوق لا يدري عن كل أحوال رعيته حتى يبلغه عنها الشفعاء لديه، والله -سبحانه- بكل شيءٍ عليم، لا يخفى عليه شيءٌ من أحوال خلقه في السماوات ولا في الأرض، فليس هو بحاجةٍ إلى من يُبلِّغه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وحقيقة الشفاعة الصحيحة عند الله -سبحانه-: أن الله -سبحانه- هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيعفو عنهم ويغفر لهم، بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك.

سادسًا: ومن شُبههم قولهم: إن الأولياء والصالحين لهم مكانة عند الله، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٢-٦٤]، قالوا: والتعلق بهم والتّبرّك بآثارهم من تعظيمهم ومحبتهم، وكذلك سؤال الله بجاههم وحقهم، كل ذلك تعظيم لهم.

والجواب عن هذه الشبهة: أن نقول: إن المؤمنين كلهم أولياء الله، وهم يتفاوتون في هذه الولاية بحسب تفاوتهم في الإيمان والأعمال، ولكن الجزم لمعين بأنه ولي لله يحتاج إلى دليل من الكتاب والسنة، فمن شهد له الكتاب والسنة بالولاية، شهدنا له بالولاية، ومن لم يشهد له الكتاب والسنة، فإننا لانجزم له بالولاية، ولكن نرجو للمؤمنين الخير. وحتى من ثبت بالكتاب والسنة أنه من أولياء الله، فإنه لا يجوز لنا الغلو فيه والتبرك به، وسؤال الله بجاهه وحقه، فإن ذلك من وسائل الشرك ومن البدع المحرمة.

فنحن نحب الصالحين والأولياء، ونقتدي بهم في الأعمال الصالحة والخصال الطيِّبة، ولكن لا نغلو فيهم ونرفعهم فوق منزلتهم، فإن الغلو في الصالحين هو مبدأ الشرك؛ كما حصل في قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما غلوا في صالحيهم، فآل بهم الأمر إلى أن عبدوهم من دون الله، وكما وقع في هذه الأمة بسبب الغلو في الصالحين من الشرك في العبادة.

وقد حذر الله ورسوله ﷺ من الغلو، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧]، وقال النبي ﷺ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»(١).

والإطراء: هو مجاوزة الحد في المدح(٢). فالله تعالى قد أمرنا أن ندعوه وحده بدون واسطة ولي أو غيره، ووعدنا أن يستجيب لنا، وهو لا يخلف وعده، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤]، وهكذا كل الآيات فيها الأمر بدعائه مباشرةً من دون واسطة أحد، والأولياء والصالحون عبادٌ محتاجون، فقراء إلى الله.

قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا»(٣)، فقال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: الملائكة المعبودة لهم، يتبادرون إلى طلب القربة إلى الله، فيرجون رحمته ويخافون عذابه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥، ٦٨٣٠) من حديث عمر رضي الله عنه.
(٢) انظر: الغريبين في القرآن والحديث (٤/ ١١٦٩)، ومشارق الأنوار (١/ ٣١٩)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٢٣)، ولسان العرب (١٥/ ٦).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٨٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والآية عامة، تعم كل من كان معبوده عابدًا لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر، فالآية خطاب لكل من دعا دون الله مدعوًا، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه.

فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها، فقد تناولته الآية كما تتناول من دعا الملائكة والجن»(١).

خامسًا: ومن شُبههم: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، وفي قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء:٥٧]؛ حيث فهموا من الآيتين: مشروعية اتخاذ الوسائط بينهم وبين الله من الأنبياء والصالحين، يتوسلون بذواتهم وبحقهم وجاههم.

والجواب عن ذلك: أن الوسيلة في الآيتين الكريمتين ليست كما فهموا، بل المراد بها التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصّالحة.

فالتوسل قسمان: توسلٌ مشروعٌ، وتوسلٌ ممنوع.

فالتوسل المشروع أنواع:

أولًا: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ كأن يقول المسلم: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا حنّان يا منّان، يا ذا الجلال والإكرام، أسألك كذا وكذا.

---

(١) انظر: الرد على البكري (ص٢٩١).

ثانيًا: التوسل إلى الله بإظهار الفقر والحاجة إليه سبحانه؛ كما قال أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]، وكما قال زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:٤] الآيات، وكما قال ذو النّون عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

ثالثًا: التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة؛ كما في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣]، وكما في قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فسدت عليهم الغار، ولم تترك لهم منفذًا يخرجون منه، فدعوا الله تعالى بصالح أعمالهم، ففرّج عنهم[1]، وهذا هو التوسل المذكور في الآيتين الكريمتين، فهو التقرّب إلى الله تعالى بالأعمال الصّالحة.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢١٥، ٢٢٧٢، ٢٣٣٣، ٣٤٦٥، ٥٩٧٤)، ومسلم (٢٧٤٣): عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا للهِ صَالِحَةً، فَادْعُوا اللهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ. فَفَرَجَ اللهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ. وَقَالَ الثَّانِي: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى =

رابعًا: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الصالحين، بأن تأتي إلى عبدٍ صالحٍ حيٍ، وتقول له: ادع الله لي؛ كما قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعض أصحابه: «يَا أَخِي أَشْرِكْنَا فِي صَالِحِ دُعَائِكَ وَلَا تَنْسَنَا»(١)، وكما كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يطلب بعضهم من بعض الدعاء(٢)، وكما كانوا يطلبون من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حي أن يدعو الله لهم(٣)، فأن تأتي إلى عبد صالح حي وتطلب منه أن يدعو الله لك هذا من التوسل المشروع.

= آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَلَقِيتُهَا بِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الخَاتَمَ، فَقُمْتُ عَنْهَا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا. فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ البَقَرِ وَرَاعِيهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَهْزَأْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ البَقَرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ مَا بَقِيَ. فَفَرَجَ اللهُ عَنْهُمْ».

(١) أخرجه أحمد (٩/ ١٨٦)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ٣٧٦، ٤٠٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٣٣)، عَنْ صَفْوَانَ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ صَفْوَانَ وَكَانَتْ تَحْتَهُ الدَّرْدَاءُ قَالَ: «قَدِمْتُ الشَّامَ فَأَتَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي مَنْزِلِهِ فَلَمْ أَجِدْهُ، وَوَجَدْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ فَقَالَتْ: أَتُرِيدُ الحَجَّ الْعَامَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ قَالَتْ: فَادْعُ اللهَ لَنَا بِخَيْرٍ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: دَعْوَةُ المَرْءِ المُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ. فَقَالَ رَجُلٌ: =

أما التوسل المنوع: فهو التوسل بذوات المخلوقين وحقهم وجاههم، والتوسل بالأموات؛ كأن يقول قائل: «أسألك بفلان، أو بحق فلان، أو جاهه»، فإن هذا بدعة محرمة، ووسيلة من وسائل الشرك، وإن صاحبه تقرب إلى المخلوق بشيء من أنواع العبادة، فهو الشرك الأكبر -نعوذ بالله من ذلك- كأن يذبح للولي، أو ينذر لقبره، أو يناديه ويطلب منه المدد، وغير ذلك.

نسأل الله أن يبصر المسلمين بدينهم، وأن ينصرهم على أعدائهم، ويهدي ضالهم.

أيها الأخوة! إن الشرك هو أعظم أنواع الظلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

إن الشرك لا تتناوله مغفرة الله لمن مات عليه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

إن المشرك تُحرّم عليه الجنة تحريمًا مؤبدًا، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

إن المشرك نجس لا يحلُّ له دخوله في حرم الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨].

إنّ المشرك حلال الدم والمال، ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥].

=يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: **اللهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**. ثُمَّ قَامَ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: **سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».

إنّ المشرك قد ضل ضلالًا مبينًا، وافترى إثمًا عظيمًا؛ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

إنّ المشرك لا تحِلُّ مناكحته، ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

إنّ المشرك لا يقبل منه عمل، ولا تصح منه عبادة، ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

نعوذ بالله من الشك والشرك، والكفر والنفاق، وسوء الأخلاق، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد.

اللّهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٣].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

توحيـــد الألوهيـــة

الحمد لله أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة وهدانا للإسلام، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد خاتم النبيين والمبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات الكريمة الحكمة في خلقه الجن والإنس، وأنه لم يخلقهم من أجل أن ينفعوه بشيء، وإنما خلقهم لعبادته، والمصلحة في العبادة عائدة إليهم؛ لأنه غني عنهم وعن عبادتهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨]، فمصلحة العبادة ومنفعتها راجعة إلى العباد؛ لأنها تصلهم بالله عَزَّوَجَلَّ، وتقربهم من الله، وتسبب لهم رحمة الله، وتسبب لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

ولما كانت عبادة الله لا يمكن معرفتها بالعقول؛ لأن العقول قاصرة، وإن كانت العقول ترشد العباد إلى المنافع والمضار في الجملة، لكنها قاصرة عن معرفة التفاصيل وقاصرة عن معرفة العبادة الصحيحة من العبادة الباطلة، من أجل ذلك اقتضت حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرسل الرسل، وينزل الكتب لبيان عبادة الله التي يحبها الله ويرضاها، وبيان ما يضاد هذه العبادة ويبطلها من أنواع الكفر والشرك، أو ينقصها من المعاصي والفسوق والعصيان.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين أهبط آدم وزوجه إلى الأرض: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]، في الآية الأخرى يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٣، ١٢٤] إلى آخر الآيات، فهذا وعد من الله سبحانه حين أهبط آدم وذريته إلى الأرض أن يرسل إليهم من يبين لهم طريق الهدى والرشاد، ويحذرهم من طريق الغواية والضلال، وهذا فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإرسال الرسل وإنزال الكتب نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحاجة البشرية إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب حاجة الأبدان، أما الرسالة والكتب الإلهية، فإنها تحتاجها القلوب، وحياة القلوب أولى من حياة الأبدان، وحاجة الناس إلى حياة القلوب أشد من حاجتهم إلى حياة الأبدان؛ لأن الأبدان إذا فقدت الطعام والشراب تموت، والموت لابد منه، ولكن القلوب إذا فقدت الهداية الإلهية، فإنها تضل، وإذا ضلت خابت وخسرت في الدنيا والآخرة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]، ثبت عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال:

«كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ»(١)، يعني: ألف سنة، كانوا على التوحيد في هذه الفترة ما بين آدم ونوح، كانوا على التوحيد وعلى دين أبيهم آدم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعبدون الله على شريعة آدم أبيهم، موحدين لله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم لما جاء قوم نوح، كان فيهم أناس صالحون، ثم مات هؤلاء الصالحون في عام واحد، فحزن قومهم عليهم حزنًا شديدًا لفقدهم وموتهم، فدب إليهم الشيطان لما رأى من حزنهم على هؤلاء الصالحين، استغل الفرصة عدو الله وعدو بني آدم، استغل الفرصة فوسوس إليهم أن صوروا صور هؤلاء الصالحين الذين فقدتموهم وحزنتم عليهم، صوروا صورهم، وانصبوها -أي: الصور- على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها، حتى إذا رأيتموها، تتذكرون هؤلاء الصالحين، وتنشطون على العبادة.

فاستجابوا لهذا الإيحاء الشيطاني، فصوروا صور الصالحين، ونصبوها على مجالسهم، ولم تعبد في عهد هذا الجيل؛ لأن الناس لا يزالون على التوحيد والملة المستقيمة، ولكن لما مات هذا الجيل، وجاء جيل متأخر، ومات العلماء، دب الشيطان إليهم -إلى هؤلاء المتأخرين-، وقال: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلا ليتبركوا بها وليستغيثوا بها وبها كانوا يسقون المطر، فوقع ذلك القول وهذا الإيحاء الشيطاني، وقع من نفوس هؤلاء الجهال موقعه، فعظموا تلك الصور، وتبركوا بها، وعبدوها من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، فصارت أصنامًا.

هي صور على أشكال الرجال الصالحين، لكنها أصبحت أصنامًا تعبد من دون الله، فعند ذلك حدث الشرك في الأرض، فبعث الله نبيه نوحًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٦).

وكان أول رسول إلى أهل الأرض يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له والرجوع إلى دين التوحيد والقضاء على هذا الشرك الذي حدث.

ولكن قوم نوح أصروا على عبادة هذه الأصنام إلا القليل منهم، وقد ذكر الله ذلك عنهم في قوله في سورة نوح التي ذكر الله فيها دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه وصبره على أذاهم، وأنه دعاهم سرًّا وجهارًا وليلًا ونهارًا، وأنه ذكرهم بالله عَزَّوَجَلَّ إلا أنهم أصروا على الشرك، ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نوح:٢٣]، ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢١-٢٣]، هذه أسماء هؤلاء الصالحين التي صوروا هذه الصور على أشكالهم، ونصبوها على مجالسهم، وأصبحوا يعبدونها، ولما جاءهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ونهاهم عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله وحده، أصروا على شركهم بالله وعلى عبادة هذه الأصنام، ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]، وقد لبث نبي الله نوح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعوهم إلى التوحيد ويخوفهم بالله، المدة التي ذكرها الله جَلَّ وَعَلَا في قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]، ولما قيل له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦]، وهم قليل، عند ذلك دعا عليهم، دعا عليهم دعوته التي ذكرها الله في آخر السورة: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح:٢٦-٢٨]، عند ذلك أمر الله نبيه نوحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصنع السفينة

وأن يركب فيها هو ومن آمن معه، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، ثم إن الله أغرق أهل الأرض بالطوفان الذي غطى على جميع الأرض وعلا على الجبال، حتى أهلكهم الله بالغرق.

ثم تتابعت الرسل من بعد نوح إلى الأمم يدعونهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، تتابعت الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: متتابعة، ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:٤٤].

فما زالت الرسل تتوالى على البشرية من بعد نوح، منهم من سمى الله لنا في القرآن، ومنهم من لم يسمه لنا؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤].

والإيمان بالرسل من أولهم إلى آخرهم من سمى الله منهم ومن لم يسمِّ، الإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان الستة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

يجب علينا أن نؤمن بجميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، فمن جحد أو أنكر رسالة واحد من الرسل، فإنه كافر بالجميع؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١]، فيجب الإيمان بجميع الرسل من أولهم إلى آخرهم؛ لأنهم رسل من عند الله عَزَّوَجَلَّ، كلهم جاؤوا لإصلاح البشرية وهدايتها ورحمة الله بها.

ومن رحمته سبحانه أن جعل هؤلاء الرسل من جنس البشر، أرسل إلى البشر رسلًا من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبتهم والتفاهم معهم ويأنسوا بهم، وهذا من رحمة الله، لم يجعل الرسل من الملائكة؛ لأن الملائكة من غير جنس بني آدم، ولا يتمكن بنو آدم من مخاطبة الملائكة ورؤية الملائكة، بل الله جَلَّوَعَلَا جعل الرسل من جنس المرسل إليهم حتى تتم الفائدة، وتحصل الحكمة من الرسالة، كما قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف:١٠٩].

والآيات في هذا كثيرة، يمتن الله عَزَّوَجَلَّ أنه أرسل إلينا رسلًا من جنسنا، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم:٤]، فهذا من تمام نعمة الله عَزَّوَجَلَّ، ولما اقترح المشركون أن تكون الرسالة في غير البشر، واستنكروا أن تكون الرسالة في البشر، رد الله عليهم، رد الله تعالى عليهم في آيات كثيرة، وبين أن رسالة البشر إلى البشر أتم في الحكمة وأنفع للمرسل إليهم.

وقالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الفرقان:٢١، ٢٢]؛ لأن الملائكة حين تنزل إنما تنزل بالهلاك، وحين تنزل الملائكة ويرى الناس الملائكة، فإن الأمر قد انتهى؛ لأنها تنزل بالعذاب، أو تنزل عند قيام الساعة؛ ﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ

ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٥]، ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان:٢٢]، فمن رحمته سبحانه أن جعل الرسالة في البشر إلى البشر؛ لتحصل المصلحة وتحصل الفائدة والبيان.

الرسل عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانوا قبل إبراهيم من أمم مختلفة وكثيرة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرسل الرسل بحسب الحاجة إلى إرسالهم، فكلما دَرَسَتْ رسالة نبي من الأنبياء، أرسل الله رسولًا آخر، وقد يرسل الله جَلَّ وَعَلَا رسلًا متعاصرين إلى أمم متعاصرة في وقت واحد، ويشرع للرسل ولأممهم شرائع تفي بمصلحتهم، ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينسخ هذه الشرائع بشرائع أخرى بحسب حاجة البشر.

هذه سنة الله عَزَّ وَجَلَّ في الرسل وشرائعهم؛ ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨].

وقبل إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت رسالات كثيرة إلى قوم نوح، إلى عاد، إلى ثمود، إلى مدين قوم شعيب، وهكذا كانت رسالات كثيرة إلى أمم متنوعة، ولما جاء إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرسله الله إلى قومه، خليل الله أرسله إلى قومه وقام مقامات عظيمة، قام إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقامات عظيمة، وصبر وصابر في ذات الله عَزَّ وَجَلَّ، وابتلي وامتحن، وصبر وصابر، عند ذلك اتخذه الله خليلًا، وجعل الأنبياء من ذريته.

كل الأنبياء الذين جاؤوا بعد إبراهيم كلهم من ذريته؛ ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٧]، ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة:١٢٤]، جعله الله إمامًا للناس، وكما في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ

أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:١٢٠، ١٢١]، كل الأنبياء الذين جاؤوا بعد إبراهيم كلهم من ذرية إبراهيم، لكن إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له ابنان إسماعيل وإسحاق؛ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبرهيم:٣٩]. كل الأنبياء الذين جاؤوا بعد إبراهيم كلهم من ذرية إسحاق، إلا محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه من ذرية إسماعيل. وهم أنبياء بني إسرائيل؛ لأن إسرائيل هو يعقوب، إسرائيل معناه: عبد الله بلغتهم، وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن إسحاق ابن إبراهيم الخليل عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فالأنبياء الذين جاؤوا بعد إبراهيم أغلبهم من ذرية إسحاق، وهم أنبياء بني إسرائيل، منهم موسى وهارون وداوود وسليمان وزكريا ويحيى، كلهم هؤلاء من ذرية إسحاق ابن إبراهيم عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

آخرهم المسيح عيسى ابن مريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو آخر أنبياء بني إسرائيل.

أما بنو إسماعيل، فكانوا في مكة عند البيت العتيق، كانوا في هذا الموطن في هذا الوادي، وهذا موطنهم الأصلي، وربما تفرقت منهم قبائل في جزيرة العرب، لكن مهد مقامهم وأصل وجودهم هو في هذا الوادي المبارك، حيث يقول إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ يعني: إسماعيل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذريته، ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم:٣٧]، دعا لهم ودعا لموطنهم، وقد دعا إبراهيم وإسماعيل عند بناء الكعبة أن يبعث الله في هذه الذرية رسولًا منهم؛ ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا

نَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩]، هذه دعوة إبراهيم وإسماعيل -عليهما الصلاة والسلام- أن يبعث الله لهذا الحي وهذه الذرية القاطنة في هذا الوادي عند هذا البيت العتيق، أن يبعث الله إليهم رسولًا منهم.

فتحقق ذلك، وأجاب الله دعوتهما ببعثة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خاتم النبيين، وهو من ذرية إسماعيل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، خاتم النبيين وإمام المرسلين صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فهو دعوة إبراهيم؛ كما في الحديث أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**أَنَا دعوةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وبُشْرى أَخِي عِيسَى**»[(١)]؛ لأن الله سبحانه ذكر أن عيسى ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦]، ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ هو هذا الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، يسمى أحمد، ويسمى محمدًا، وله أسماء كثيرة صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ كما جاءت في الأحاديث[(٢)]،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٩- ٣٨٠)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣١٢)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٥٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٣)، عَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إِنِّي عَبْدُ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ** عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ **لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ تَرَيْنَ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ رَءُوفًا رَحِيمًا**».

فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمه لما رأت أنها خرج منها نور، يعني: رأت قبل ولادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، فكان ذلك هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [السجدة:١-٣]، يعني بذلك: العرب الذين هم من ذرية إسماعيل، لم يبعث فيهم رسول إلا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بنو إسماعيل لم يأتهم رسول بعد إسماعيل إلا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [السجدة:٣].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:١-٦]، فكان محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين لا نبي بعده إلى أن تقوم الساعة، ولم يبعث في بني إسماعيل نبي غيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكانت حاجة البشرية إلى بعثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجة شديدة، وبين بعثة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين عيسى فترة طويلة تزيد على خمسمائة سنة، ولهذا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ يعني: محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة:١٩]، هذه الفترة كانت طويلة بين عيسى وبين بعثة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هذه الفترة اندرست الرسالات، وظهر الشرك في الأرض، حتى في بلاد الحجاز موطن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ومكان البيت

العتيق الشرك فيها انتشر انتشارًا ذريعًا وفظيعًا، حتى جعلت الأصنام فوق الكعبة المشرفة، ولم تزل هذه الأصنام إلا يوم أن فتح محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة في السنة الثامنة من الهجرة، فحطم هذه الأصنام وأحرقها، وكانت تبلغ ثلاثمائة وستين صنمًا، كلها على الكعبة المشرفة وعلى الصفا والمروة إيساف ونائلة، وهناك الأصنام الثلاثة الكبرى اللات والعزى ومناة، وهناك أصنام منتشرة في جزيرة العرب، وقد قضى الله تعالى عليها كلها ببعثة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعادت الحنيفية السمحة ملة إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما كانت على يد هذا الرسول الكريم والنبي الكريم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولهذا يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصور لنا حالة أهل الأرض قبل بعثته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**»[(١)]، وهذه البقايا من أهل الكتاب انقرضت قبل بعثته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعم الظلام وجه الأرض والشرك والكفر والفساد.

فلما أشرقت رسالة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه الأرض، وبدأ نورها من بلاد الحرمين، انتشر على الآفاق وامتد إلى المشارق والمغارب، ولا تزال -والحمد لله- ولن تزال إلى قيام الساعة؛ لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث إلى الناس كافة، وهذا من خصائصه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن رسالته عامة، في حين أن رسالات الأنبياء من قبله كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، أما رسالة هذا الرسول، فإنها عامة؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا**﴾ [الفرقان:١]؛ للعالمين، جميع العالم من أقصاه إلى أقصاه، جميع الدول، جميع الأمم،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

جميع الأجناس، من بعثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن تقوم الساعة من لم يستجب له، فإنه لن يدخل الجنة.

لا يدخل الجنة أحد إلا باتباع هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مهما كان ومهما ادعى أنه على دين، فإنه من أهل النار، إلا أن يطيع هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»(١)، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(٢).

فبعد بعثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهت الرسالات، وتوحدت في رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل الله عليه كتابًا يكفي للبشرية من وقت نزوله إلى قيام الساعة، هو هذا القرآن العظيم وهذه السنة المطهرة.

وقد شهد الله لهذا الدين بالكمال، والكمال معناه: أنه الوافي الكفيل بمصالح البشر كلهم عربهم وعجمهم في مختلف أزمانهم وأوطانهم إلى أن تقوم الساعة؛ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]، وفي الآية الأخرى يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

هذه رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين وإمام المرسلين رسالة عامة لجميع البشر؛ بل لجميع الثقلين الجن والإنس، حتى الجن لابد أن يطيعوا هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن:١، ٢]، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢].

هكذا رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت رسالة عامة للثقلين الجن والإنس، ورسالة باقية لا تنسخ إلى أن تقوم الساعة، وهي وافية وكفيلة بمصالح العباد من أولهم إلى آخرهم، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠]، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]، فكل مشكلة وكل معضلة وكل حادثة ففي هذا القرآن وهذه السنة النبوية حلها وبيانها، وكل إشكال وكل نزاع وخصام ففي هذه الشريعة ما ينهي هذا النزاع وهذا الخصام، ويحكم بالعدل بين الناس إلى أن تقوم الساعة فهذا من نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نعود مرة ثانية فنقول: إن إرسال الرسل من أكبر النعم من الله على عباده؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل هؤلاء الرسل أدلاء عليه، يبينون للناس طريق الجنة، ويبينون لهم طريق الهدى، وينهونهم عن طريق الغي والردى، فما من خير إلا دلوا الأمة عليه، وما من شر إلا حذروا الأمة منه.

وواجب على كل مسلم أن يؤمن بهؤلاء الرسل من أولهم إلى آخرهم؛ كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما سأله جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فقال: «**فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

فذكر أن من أركان الإيمان الإيمان بالرسل، هذا ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا وإياكم من أتباع هؤلاء الرسل المؤمنين بهم، المصدقين برسالاتهم، وأن يجعلنا وإياكم من أمة هذا الرسول الكريم، وأن يحشرنا في زمرته وتحت لوائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأن يلحقنا به في دار الآخرة من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة!

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومسلم (٨)، من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

حفظ الإسلام للضروريات الخمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٨، ١٧٩].

الإسلام جاء بحفظ الضروريات الخمس؛ حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ العقل، حفظ العرض، وحفظ المال، هذه ضروريات جاء الإسلام بحفظها والمنع من الاعتداء عليها، ووضع لذلك العقوبات الرادعة لمن اعتدى على واحدة من هذه الضروريات الخمس.

الأولى: حفظ الدين؛ وذلك بقتل المرتد، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢١٧]، هذا جزاؤه في الآخرة، أما في الدنيا فإنه يقتل، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»**[1]، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ**

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث عكرمة عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَتَارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»(١).

الثانية: النفس؛ وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حمى نفوس عباده المؤمنين، وحرم الاعتداء عليها، قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣]، هذا جزاؤه في الآخرة، أما في الدنيا فإن الله أوجب القصاص من القاتل عمدًا إذا توفرت شروط القصاص، وهذا هو الذي ذكره الله في هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة:١٧٨].

الثالث: العقل؛ الله جَلَّ وَعَلَا جعل لهذا الإنسان عقلًا يتميز به عن غيره، يتميز به عن البهائم؛ لأن الله خلقه لعبادته، وجعل له عقلًا يميز به بين الضار والنافع، والحق والباطل. فهذا العقل منة عظيمة على الإنسان، فإذا اعتدى الإنسان على عقله بشرب المسكر، بشرب الخمر؛ فإن الله أوجب إقامة الحد عليه، وذلك بأن يجلد ثمانين جلدة، وإذا عاد يجلد، وكلما عاد إلى الشرب، فإنه يجلد ثمانين جلدة؛ حماية للعقل.

وكذلك الذي يتعاطى المخدرات -والعياذ بالله-، وهي أشد من المسكرات؛ لأنها تفسد العقل، وتفسد البدن، وتؤول إلى الخبال والهلاك، المخدرات أشد من الخمر، فيجب عقوبة من يتعاطاها، ومن يروجها، ومن يبيعها، ومن يجلبها لبلاد المسلمين يقتل؛ لأنه من المفسدين في الأرض.

وكذلك الدخان، الدخان لا يسكر، ولكنه يفسد البدن، ويقضي على

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصحة، وفيه أمراض كثيرة شخصها الأطباء، فهو -أيضًا- اعتداء على النفس، واعتداء على العقل؛ لأنه يفتر، يفتر الإنسان.

وقد نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كل مسكر ومفتر، وهو من الخبائث، الله جَلَّ وَعَلَا يقول في وصف نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، الدخان من الخبائث، كذلك القات أشد من الدخان، أضراره أشد من أضرار الدخان، فهذه تحرم ويعاقب عليها؛ لأن فيها اعتداءً على العقل واعتداءً على النفس والبدن.

الرابع: العرض -عرض الإنسان-، وهو شرفه ونزاهته ونقاؤه من الزنا واللواط والاستمتاع المحرم، هذا فيه إفساد للأعراض، والزنا فيه خلط للأنساب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ**»[1]؛ لأن هذا فيه حماية للعرض، والزاني بين الله حكمه إذا كان بكرًا لم يتزوج، إذا زنى وهو لم يسبق له أن تزوج واستمتع بالحلال، فإنه يجلد مائة جلدة، ويغرب عن بلده عامًا، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢]، هذا إذا كان بكرًا لم يسبق له أن وطئ في نكاح صحيح، أما إن كان ثيبًا، إذا كان الزاني ثيبًا، وهو الذي سبق أن جامع في نكاح صحيح ثم زنى، فهذا يرجم بالحجارة حتى يموت، وقد

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٦٤)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

رجم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزناة وأمر برجمهم(١)، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ**»، هذا في القرآن جلد المائة، والتغريب هذا في السنة، «**وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ**»(٢)، يجمع له بين الجلد ثمانين جلدة ويرجم بالحجارة حتى يموت، «**جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ**».

وقد رجم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدة من الزناة، أقام عليهم الحد؛ حفظًا للأعراض من العبث، وحفظًا للذرية من اختلاط الأنساب.

والخامس: حفظ المال؛ وقد أوجب الله قطع يد السارق الذي يسرق أموال الناس، قال تعالى: ﴿**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ**﴾ [المائدة:٣٨]، وقد نفذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القطع، فقطع أيدي عدد من السراق، واستمر العمل عليه إلى يوم القيامة،

---

(١) كما في حديث العسيف الذي أخرجه البخاري (٢٧٢٤)، ومسلم (١٦٩٧) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللهِ، الْوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، اغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا**. قَالَ: فَغَدَا عَلَيْهَا، فَاعْتَرَفَتْ، فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرُجِمَتْ».

وكما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟** فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ؛ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ، فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرُجِمَا، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَجْنَأُ عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ».

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩٠)، من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذلك من أجل حفظ أموال الناس من الاعتداء عليها، وفي هذه الآية يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾ [البقرة:١٧٨]، هذا نداء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمؤمنين؛ لأن المؤمنين هم الذين يمتثلون أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿كُتِبَ﴾ معناه: فرض، فالقصاص فرض واجب إذا توفرت شروطه، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ والقصاص هو: أن يفعل بالجاني كما فعل بالمجني عليه، فيقتل، إذا قتل عمدًا عدوانًا، فإنه يقتل، وإذا اعتدى على طرف من الأطراف، فإنه يؤخذ طرفه؛ كما قال سبحانه: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ [المائدة:٤٥]، فيقتص من الجاني عمدًا عدوانًا في النفس وما دونها بنص القرآن الكريم، وذلك من أجل حفظ النفوس من الاعتداء عليها، ومن أجل حقن الدماء.

كانوا في الجاهلية يتخبطون في الدماء، ليس لهم ضابط شرعي يمشون عليه، ولكنهم يتخبطون ويظلمون في الدماء، فإذا قتل قتيل في الجاهلية، فإن أهله لا يرضون بقتل القاتل فقط، وإنما يقتلون عددًا من الأبرياء من قبيلة القاتل، وقد يقتلون رئيس القبيلة، ويقولون: لا نرضى بالفرد هذا، ويقتلون رئيس القبيلة التي منها القاتل، وهذا ظلم وعدوان، الله جَلَّ وَعَلَا أبطل هذا، وأوجب القصاص على القاتل، وأما الأبرياء فلا يجوز الاعتداء عليهم.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾، ولماذا قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾؟ عمم، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ هذا خطاب للأمة.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾؛ لأن الأمة يجب عليها أن تتعاون في تنفيذ الحد، يجب على الأمة أن تتعاون مع ولي الأمر في تنفيذ الحدود، ولا يجوز لأحد من الأمة أن يدافع عن المجرم ويمنع إقامة الحد عليه، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[١]؛ ولهذا قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾، هذا خطاب للأمة، فيجب على الأمة أن يتعاونوا مع ولي الأمر في تنفيذ القصاص، وألا يحولوا دون إقامة الحدود إذا كان الجاني له مكانة، أو كان من أقاربهم يمنعون إقامة القصاص عليه، هذا حرام. حتى ولا بالشفاعة، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعَافُّوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ»[٢]، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، فَقَدْ ضَادَّ اللهَ فِي أَمْرِهِ»[٣]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا بَلَغَتْ الْحُدُودُ السُّلْطَانَ، فَلَعَنَ اللهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفَّعَ»[٤].

فلا يجوز التهاون في إقامة الحدود، ولهذا قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾، لم يقل: كتب على ولاة الأمور فقط؛ بل قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾، هذا عام لجميع الأمة في أنها تقوم بهذا الأمر، ولا تتساهل مع القاتل، بل تسلمه للسلطة لإقامة القصاص عليه؛ لأن في ذلك الرحمة للمجتمع وحقن الدماء؛ كما يأتي في آخر الآية الثانية.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ﴾ الحر غير المملوك، ﴿وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ وهو المملوك، ﴿وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ وهي المرأة، ﴿بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ هذا رد على أهل

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠)، من حديث عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٧٦)، والنسائي في المجتبى (٤٨٨٥)، من حديث عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٩/ ٢٨٣)، وأبو داود (٣٥٩٧)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٢٩) (٢/ ٨٣٥)، بلفظ مقارب، من حديث الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا اللفظ ورد في مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٨/ ٢٩٩).

الجاهلية الذين لا يتقيدون بالقصاص من القاتل، وإنما يقتلون غيره، فإذا قتلت امرأة رجلًا، لا يقتلون المرأة، يرون أن هذا من المهانة، وإنما يقتلون رجلًا من أقاربها، وإذا قتل العبد حرًّا، لا يرضون بقتل العبد، يقولون: هذه دناءة. ويأخذون من الأحرار الأبرياء، ويقتلونهم.

هذا من دين الجاهلية، ففي هذه الآية رد عليهم أن الجاني يقتص منه، ولا ينظر إلى مستواه ومرتبته في المجتمع، لا ينظر إلى أنه شريف أو أنه عبد أو أنه امرأة؛ بل الجاني يقتل، سواء كان حرًّا أو عبدًا أو امرأة، هذا حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:١٧٨]، لما أمر بالقصاص من القاتل، جعل الخيار لأولياء الدم؛ إن شاءوا اقتصوا من القاتل، وإن شاءوا عفوا مجانًا، أو عفوا إلى الدية، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُفْدَى، وَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ»(١)، فالخيار لولي القتيل من عصبته، لهم الحق في أنهم يقتصون من قاتل قريبهم، وهذا هو العدل، ولهم أن يعفوا عن القصاص إما مجانًا وإما بأخذ الدية، والعفو أفضل، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠]. فإذا عفوا كلهم عن القاتل، سقط القصاص، أو عفا بعضهم، إذا كان للقاتل عدة ورثة، فعفا واحد من الورثة -ولو كانت امرأة-، فإن القصاص يسقط، فالعفو من الجميع أو العفو من البعض يسقط القصاص؛ كما جاءت بذلك السنة(٢)، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ﴾ يعني: إذا تنازل أولياء الدم عن القصاص إلى الدية، فلهم ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٨٠)، ومسلم (١٣٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٨١٩٤) (١٠/ ١٤) عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: «إِذَا عَفَا أَحَدُ الْأَوْلِيَاءِ، فَإِنَّهَا تَكُونُ دِيَةً، وتَسْقُطُ عَنِ الْقَاتِلِ بِقَدْرِ حِصَّةِ هَذَا الَّذِي عَفَا».

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿لَهُۥ﴾ القاتل، ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ المقتول، فجعل القتيل أخًا للقاتل، مع أن القاتل مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، ولكن الكبائر التي دون الشرك لا تخرج من الإيمان، فالقاتل لا يخرج من الإيمان، وإن كان مرتكبًا لكبيرة من كبائر الذنوب، بدليل هذه الآية: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، فجعل المقتول أخًا للقاتل.

الأخوة الإيمانية، ليست الأخوة النسبية أو القبلية؛ بل الأخوة الإيمانية، ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ يعني: بالإيمان. فهذا دليل أهل السنة والجماعة على أن مرتكب الكبيرة التي هي دون الشرك لا يخرج من الملة؛ بل يكون فاسقًا بكبيرته مؤمنًا بإيمانه؛ كما في الآية الأخرى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات:٩]، قال: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، مع أنهم يقتتلون، يقتل بعضهم بعضًا، وسماهم مؤمنين، فدل على أن كبيرة القتل لا تخرج من الإيمان، لكنها تنقص الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون الشرك، ومنه القتل؛ لأن القتل دون الشرك.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يعني: من الدم، كلمة ﴿شَيْءٌ﴾ تعطي أنه لو عفا بعض الورثة أنه يسقط القصاص؛ لأن هذا شيء من العفو.

أما لو عفوا كلهم، أو كان ولي الدم واحدًا وعفا، هذا لا إشكال فيه، لكن إذا كان أولياء الدم جماعة، وعفا واحد منهم -ولو كان نصيبه من الإرث قليلًا-، فإنه يسقط القصاص.

لو فرضنا أن زوجة القتيل عفت، يسقط القصاص؛ لأنها وارثة، أو عفا أي واحد من ورثة القتيل، فإنه يسقط القصاص، وينتقل إلى الدية، ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يعني: عفا أولياء القتيل، سواء كلهم أو بعضهم.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ تتعين الدية على القاتل الذي عفي عنه، ولكن لايكون فيه إساءة من أحد الطرفين -من صاحب الدية، أو من الذي عليه الدية-، لا يسيء واحد إلى الآخر؛ فالقاتل الذي عليه الدية لا يماطل بدفع الدية؛ بل يبادر بدفعها، ولا يشق على أصحاب الدية بالمطالبة.

ولا يجوز لأصحاب الدية أن يضيقوا على القاتل بدفع الدية؛ بل يمهلوه حتى يتمكن من دفعها.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ هذا من أولياء الدم، ﴿وَأَدَآءٌ﴾ هذا من القاتل، ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى صاحب الدية، ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ فلا مماطلة من القاتل، ولا مضايقة من أولياء القتيل؛ بل يكون بالتعامل الحسن.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يعني: يتابعه، يطالبه بالدية، لكن مطالبة ليس فيها تضييق ولا إحراج.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ما تعارف عليه الناس من السهولة والإحسان وعدم العنف، ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ يجب على المتحمل للدية ألا يماطل بدفعها؛ لأن هذا إساءة إلى أصحاب الدية، والإسلام جاء بالعدل وعدم الإحراج.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: أن العفو عن القصاص وأخذ الدية هذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتخفيفه على المسلمين،

لم يحتم عليه القصاص؛ بل جعل لهم الخيار بين أن يقتصوا أو يأخذوا الدية، هذا تخفيف من الله؛ لأن اليهود حتم الله عليهم القصاص، وليس هناك دية عند اليهود، هذا من التشديد عليهم، والنصارى حتم الله عليهم أخذ الدية، ولم يجز لهم القصاص.

أما هذه الأمة المحمدية، فإن الله خيرها بين القصاص -وهذا هو الأصل-، وبين أخذ الدية إذا رضي أولياء القتيل، هذا تخفيف على هذه الأمة مما كان على اليهود من وجوب القصاص وعدم أخذ الدية، وما كان على النصارى من وجوب أخذ الدية وعدم القصاص، هذا هو التخفيف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن هذا الدين -ولله الحمد- دين الحنيفية السمحة، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ رحمة بالناس أنه شرع لهم القصاص؛ لأجل حقن الدماء وحماية الأنفس، هذا من رحمة الله.

فالقصاص ليس عذابًا ولا قسوة، وإنما هو رحمة، رحمة يعيش المسلمون في ظله آمنين على دمائهم، فهذا رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٨].

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أين ترجع الإشارة؟ اختلف المفسرون:

* منهم من يقول: ترجع الإشارة إلى العفو، فمن اعتدى بعد العفو، فإذا عفا عن القصاص وأخذ الدية، ثم بعد ذلك قتل، فهذا توعده الله بالعذاب الأليم، وما هو العذاب الأليم؟ قيل: عذاب أليم في الدنيا في أنه يتحتم قتله،

ولا يجوز العفو عنه. فالذي يعفو عن القصاص ويأخذ الدية، ثم بعد ذلك يقتل القاتل الذي عفا عنه وأخذ منه الدية، هذا يتحتم قتله، ولا يجوز العفو عنه، هذا هو العذاب الأليم.

* **والقول الثاني**: أن العذاب الأليم في الآخرة، أما في الدنيا، فإن الذي يقتل بعد أخذ الدية كغيره، يخير أولياء القتيل بين القصاص منه أو أخذ الدية، لكن عليه عذاب أليم في الآخرة ووعيد شديد؛ لأنه تلاعب بأحكام الشريعة؛ كيف يعفو ويأخذ الدية ثم يعود ويقتل؟! هذا عليه وعيد شديد إما بأنه في الدنيا بأنه يقتل حتمًا، ولا يعفى عنه، وإما في الآخرة عند الله سبحانه؛ لأنه تلاعب بأحكام الله عَزَّوَجَلَّ.

* **وقيل**: الإشارة ترجع إلى القصاص، ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعدما شرع الله القصاص بين المسلمين، فمن اعتدى وتهاون، اعتدى على دماء الناس، وتهاون بالقصاص ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ لأن هذا يدل على ضعف إيمانه وعلى عدم خوفه من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ(١).

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة:١٧٩].

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ﴾: ﴿وَلَكُمۡ﴾ الخطاب للأمة الإسلامية، أي: للمسلمين حياة في القصاص.

القصاص قتل، موت، كيف يكون فيه حياة؟ نعم، فيه حياة؛ لأنه إذا قتل القاتل، ارتدع المجرمون، فسلمت دماء المسلمين وحياتهم، فالقصاص فيه حياة

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١١٥-١١٩)، وتفسير الماوردي (١/ ٢٣٠-٢٣١)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٩١- ٤٩٢).

للمجتمع، لا أحد يعتدي بعد القصاص، فإذا تذكر الذي يهم بالقتل، إذا تذكر أنه سيقتل، فإنه يمتنع عن القتل، فيسلم دمه هو، ويسلم دم الذي همَّ بقتله، فيكون هذا فيه حماية للدماء؛ كما في أول الكلام أن الشرع جاء بحماية النفوس، فالقصاص حماية للنفوس وحياة للمجتمع، فإذا طبق القصاص، تأمنت حياة الناس من المجرمين والمعتدين؛ لأن القصاص حد زاجر رادع.

فإذا قُتل القاتل، امتنع غيره من الذين يريدون القتل، إذا شاهدوا القاتل جيء به أمام الناس، وقطعت رقبته أمام الناس، فإنهم يرتدعون، كل منهم يخاف أنه يعمل معه ما عمل مع هذا، فيرتدعون، فتحقن دماء الناس، ولهذا قال: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾، فالقصاص يؤمن الحياة للمجتمع، ويمنع الاعتداء على النفوس وعلى الدماء، وأنتم تشاهدون الآن -ولله الحمد- في هذه البلاد التي يطبق فيها القصاص، ترون -والحمد لله- قلة الذين يعتدون على الناس، ترونهم قلة.

لو كان ليس هناك قصاص، لرأيتم العجب العجاب، لرأيتم العدوان على الدماء، ورأيتم القتلى في الشوارع، رأيتم القتلى في الطرقات؛ لأن كل من غضب على شخص يريد أن يقتله، لكن القصاص يمنعه من ذلك، وبذلك تأمن المجتمع -ولله الحمد.

أما في البلاد التي لا يطبق فيها القصاص -إما لكونها كافرة أصلًا، أو لكونهم يتسمون بالإسلام، ولكنهم لا يحكمون بالشريعة، ولا يطبقون القصاص- ترون الدماء مهدرة فيها، ترون العدوان على الدماء، ترون المجتمع خائفًا، ترى المجتمعات الأخرى خائفة، وإن كان عندهم أسلحة، وعند تقنيات، وعندهم أنظمة دقيقة،

وعندهم مخابرات دقيقة، لكن هم في خوف على دمائهم وهم في بيوتهم؛ لأنهم فقدوا هذه النعمة، فقدوا نعمة إقامة القصاص، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾، فإذا فقد القصاص، فإن الحياة تختل، ويسود الخوف والقلق، وكل من أراد قتل شخص قتله، ولا يحصل عليه أي ضرر، غاية ما يعمل معه أنه يسجن.

الدول القانونية لا تعاقب بالقصاص، وإنما تعاقب بالسجن، السجن سهل يأكل ويشرب ويكون في مأمن، محمي من أحد يعتدي عليه في السجن، ولو طال سجنه لا يهمه هذا، يهمه أنه ينفذ رغبته، فيقتل من يريد، وغاية ما يكون أنه يسجن، السجن ليس بعقوبة رادعة؛ بل ربما أن بعضهم يفتخر بالسجن ويقول: أستريح، أجلس بالسجن ويطعموني ويسقوني ويحموني، ولو بقيت فيه مدة، هل هذه عقوبة يا عباد الله؟! أو بعد هناك شيء آخر، وهو أنه إذا جاءت مناسبة، وجاء عفو يعفى عنه، ويخرج، إذ إن الرئيس جاء وقت احتفال أو مناسبة أو احتفال بجلوسه على الحكم، إذا جاء احتفال، فإنه يطلق السجناء ومنهم القاتلون يطلقهم، هم يذهبون يتقنصون في الناس، هذه حياتهم -والعياذ بالله-، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

﴿ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ يعني: يا أصحاب العقول، أصحاب العقول الذين يفكرون في أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتدبرونها، إذا تدبروا القصاص، وجدوه في غاية الحكمة وغاية الرحمة، غاية الرحمة بالمجتمع.

وحتى القاتل إذا أقيم عليه القصاص، فهذا من مصلحته؛ لأنه يعاقب في الدنيا أهون عليه من أنه يعاقب في الآخرة، كونه يعاقب في الدنيا ويقام عليه القصاص أخف عليه من أنه يعاقب في الآخرة -والعياذ بالله!

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ يا أصحاب العقول، ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ يعني: يا أصحاب العقول، أما الذين ليس عندهم عقول سليمة، فإنهم يسخرون من الحدود في الإسلام، ويقولون: إن الحدود قسوة ووحشية، هكذا يقولون الآن.

يقولون: إن الحدود قتل القاتل، وقطع يد السارق، ورجم الزاني، وجلد الشارب، هذه يقولون: قسوة، لماذا تقسون على هذا الإنسان؟!

طيب، يرحمون الجاني، ولا يرحمون المجني عليه، يعني: الجاني لم يفعل قسوة، وإذا أقيم عليه الحد صار قسوة؟!! لا ينظرون إلى القسوة التي عملها الجاني؟! لا ينظرون إلى القسوة التي تكون على المجتمع من ترك الجاني يسرح ويمرح؟! لا يرون القسوة التي يعيشها المجتمع الذي لا تقام فيه الحدود؟!

يرحمون الجاني، ولا يرحمون المجني عليه؟! يرحمون المجرم ولا يرحمون المجتمع الذي أصبح في خوف وقلق من هؤلاء الجناة الذين يعيشون بينهم؟!

القسوة في الحقيقة هي عدم إقامة الحدود، أما إقامة الحدود، فإنها رحمة، رحمة للمجتمع.

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ تتقون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذا تدبرتم أحكام الله بعقولكم وفكرتم فيها، فإن هذا يبعث على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومحبة الله جَلَّ وَعَلَا.

فالذي شرع هذه الشرائع العادلة، هذه الشرائع الرحيمة التي أكسبتكم الأمن والاستقرار على دينكم وعلى نفوسكم وعلى عقولكم وعلى أعراضكم

وعلى أموالكم، تدبروا هذا التشريع الحكيم، فإن هذا يكسبكم تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا فيه الحث على التدبر في أحكام الشريعة والتأمل فيها؛ لأنها ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

أما قوانين البشر وأنظمة البشر، فإنها يدخلها الهوى، ويدخلها الظلم، ويدخلها النقص؛ لأنها من أعمال البشر.

أما أحكام الله جَلَّ وَعَلَا فإنها لا يعتريها نقص، ولا يعتريها ظلم، ولايعتريها أي: ملاحظة؛ لأنها ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعلم مصالح عباده، يعلم ما يصلحهم، ولذلك شرع لهم هذه الحدود؛ رحمة بهم وحماية لهم من عبث العابثين وإفساد المفسدين.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينصر دينه، ويعلي كلمته!

نسأل الله أن يديم على هذه البلاد الحكم بهذه الشريعة العادلة الرحيمة!

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يحفظ علينا أمننا واستقرارنا، وكذلك نسأله سبحانه أن ينصر الإسلام والمسلمين في كل مكان، وأن يولي علينا وعلى المسلمين خيارنا، وأن يكفينا شر شرارنا!

نسأله أن يصلح ولاة أمورنا، وأن يهديهم سبل السلام، وأن يجعلهم هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، نسأله أن يصلح بطانتهم، وأن يبعد عنهم بطانة السوء والمفسدين!

اللهم من أراد الإسلام والمسلمين بسوء، فأشغله بنفسه، ورد كيده في نحره، واجعل تدميره في تدبيره، إنك على كل شيء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

حقيقة الدين الإسلامي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

نلتقي في هذه الليلة المباركة لنواصل الدروس في مثل هذه الأيام كما كان سابقًا والحمد لله.

أيها الإخوة، إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣]، والهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح؛ لأن العلم والعمل قرينان لايفترقان، فإذا وجد العلم بدون عمل، فإنه لا فائدة فيه؛ بل يكون حجة على صاحبه، وإذا وجد العمل بدون علم، فإنه ضلال، ولا ينفع صاحبه شيئًا.

فلابد من العلم والعمل، وهذا هو الذي بعث الله به رسوله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعثه بالهدى ودين الحق، لم يبعثه بالهدى فقط، ولم يبعثه بالدين فقط، وإنما بعثه بالأمرين الهدى ودين الحق.

وهذا هو الإسلام الذي اختاره الله لعباده ورضيه لهم؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فالله رضي لنا الإسلام دينًا، وأخبرنا أنه أكمله، أنه أكمل الإسلام، ولم يتوفَ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بعدما أكمل الله به الإسلام بشرائعه وأحكامه.

فمن جاء بزيادة على هذا الإسلام يتقرب بها إلى الله، فهي مردودة؛ كما قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»(١)، قال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(٢).

فالذين يأتون بالبدع والمحدثات يتقربون بها إلى الله بزعمهم، هؤلاء زادوا على الإسلام شيئًا ليس منه، والإسلام لا يقبل الزيادة؛ لابد أن يكون الإسلام على وفق ما جاء به الرسول ﷺ؛ لأن الله أكمله، عند وفاة الرسول ﷺ أكمل الله هذا الدين، فلم يبقَ لأحد زيادة يأتي بها بعد الرسول ﷺ، فمن جاء بزيادة، فهي مردودة لا تقبل؛ «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»، هذا هو الإسلام، الله شهد له بالكمال، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، لم يتوفَ الرسول ﷺ إلا بعد أن أكمل الله به الدين، فالذي لم يكن على عهده ﷺ دينًا لا يكون بعده دينًا أبدًا.

وهذا الإسلام أمرنا الله جَلَّ وَعَلَا أن نتمسك به إلى الممات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، من مات على غير الإسلام، فإنه من أهل النار، ومن مات على الإسلام، فهو من أهل الجنة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، والعبرة بالخواتيم، العبرة بما يختم للإنسان به من خير أو شر، فمن مات على الإسلام، فإنه يكون من الفائزين من أهل الجنة.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).
(٢) سبق تخريجه (ص١٠٥).

ومن مات على غير الإسلام، فإنه يكون من الخاسرين، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وكما أن الله وصانا بأن نموت على الإسلام، كذلك إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإسحاق أوصيا ذريتهما أن يموتوا على الإسلام، ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢].

هذا الإسلام بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه خمسة أركان؛ كما في حديث جبريل لما جاء، وسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حضرة أصحابه، فقال: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»(١).

هذه الخمسة هي أركان الإسلام، ليست هي كل الإسلام، الإسلام كثير، عبادات كثيرة وطاعات وقربات كثيرة، لكن هذه الخمسة هي أركانه التي يقوم عليها؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الآخر: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»(٢).

ففي حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ»، ذكر هذه الخمسة، وفي حديث ابن عمر بين أن هذه الخمسة هي أركانه التي يبنى عليها، وما زاد عن هذه الخمسة من الطاعات، فإنه مكمل لها.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٧).

(٢) سبق تخريجه (ص١٧).

هذه الخمسة أولها الشهادتان؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، هذا هو الركن الأول من أركان الإسلام، وهو الأساس الذي تبنى عليه بقية الأركان، هذا الركن الشهادتان هو الأساس، فلا تصح الصلاة إلا بعد تحقق الشهادتين، ولا يصح الزكاة إلا بعد تحقق الركن الأول، وهو الشهادتان.

ولا يصح الصيام إلا بعد أن يتحقق الركن الأول، وهو الشهادتان، ولايصح الحج إلا بعد أن يتحقق الركن الأول، وهو الشهادتان، ولا تصح جميع الأعمال إلا إذا صح الركن الأول.

شهادة أن لا إله إلا الله ما معناها؟ معناها: إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه، ليس معناه أن تعبد الله فقط؛ بل لابد مع عبادة الله أن تترك عبادة ما سواه، فالذي يعبد الله ويعبد معه غيره هذا مشرك لم يشهد أن لا إله إلا الله؛ لأن معنى «لا إله إلا الله»: لا معبود بحق إلا الله، فجميع المعبودات التي تعبد مع الله باطلة، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج:٦٢]، فلا تصح عبادة الله إلا مع الإخلاص، وهو ترك الشرك الأكبر والأصغر؛ بأن تخلص أعمالك وعباداتك لله، لا تجعل منها شيئًا لغير الله، فلا تدعُ غير الله، ولا تستغث بالأموات والمقبورين، ولا تذبح لغير الله، ولا تنذر لغير الله، ولا تطف إلا ببيت الله العتيق، لا تطف بالقبور والأضرحة، لا تذبح للأموات، لا تنذر للأموات، لاتستغث بالأموات وتدع الأموات.

فإذا فعلت ذلك، فإنك لم تشهد أن لا إله إلا الله، وإن تلفظت بها بلسانك، التلفظ باللسان لا يكفي؛ لابد من العمل الموافق لما تلفظ به لسانك.

أنت تقول: لا إله إلا الله، أو أشهد أن لا إله إلا الله، إذا قلت هذا، يجب أن تخلص جميع أعمالك لله عَزَّوَجَلَّ، فإن صرفت منها شيئًا لغير الله، فإنك لم تشهد أن لا إله إلا الله حقيقة، لم تشهد حقيقة، وإن تلفظت بها بلسانك فقط، ناقضتها بأفعالك وأقوالك.

فليس «لا إله إلا الله» أو «أشهد أن لا إله إلا الله» مجرد لفظ يقال باللسان؛ بل لفظ له معنى، وله حقيقة، أنت اعترفت أنه لا إله إلا الله، كيف تتخذ آلهة أخرى، وأنت تقول: لا إله إلا الله؟! هذا تناقض.

فلابد إذا قلت: «لا إله إلا الله» أو «أشهد أن لا إله إلا الله» أن تخلص العبادات كلها لله عَزَّوَجَلَّ، فلا تعبد أحدًا غير الله، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤] أي: الدعاء، الدين هو الدعاء، سماه دينًا؛ لأنه أعظم أنواع العبادة؛ كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ»(١)، فهو أعظم أنواع العبادة، فإذا دعوت غير الله، فقد هدمت الشهادة التي شهدتها، وقلت: أشهد أن لا إله إلا الله.

لاحظوا هذا؛ لأن كثيرًا ممن يتلفظون بـ«لا إله إلا الله» يناقضونها ويبطلونها بعبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ.

وأما شهادة أن محمدًا رسول الله، أنت تعترف أن محمدًا رسول الله، فإذا اعترفت بذلك، وجب عليك أن تتبعه، وأن تطيعه، وألا تخالف أمره، وإلا فما معنى شهادة أنه رسول الله؟!

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٣٤٠)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٢٤٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

إذا كنت تشهد أنه رسول الله ولا تطيعه، فأنت لم تشهد أنه رسول الله، إذا أطعت غيره وعصيت الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنت في الحقيقة لم تشهد أنه رسول الله؛ لأن الذي يشهد أنه رسول الله يجب عليه طاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يجب عليه أن يطيع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور:٥٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ يعني: الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤]، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، فإذا شهدت أنه رسول الله، فإنه يجب عليك أن تطيعه، ولهذا يقول العلماء في تفسير «أشهد أن محمد رسول الله» يقولون: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا تعبد الله إلا بما شرع(١).

كذلك من معنى شهادة أن محمدًا رسول الله ألا تعمل عملًا إلا إذا كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد شرعه، وما لم يشرعه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبتعد عنه؛ لأنه بدعة، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»(٢).

قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾، يقول الله لرسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١، ٣٢].

---

(١) انظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع (ص١٥).
(٢) سبق تخريجه (ص٢٥).

فهذا معنى شهادة أن محمدًا رسول الله، أن تتبعه وتقتدي به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما إذا اتبعت غيره، واقتديت بغيره في العبادات، فإنك أبطلت شهادتك أنه رسول الله، ليس «أشهد أن محمدًا رسول الله» مجرد لفظ يقال باللسان، أنت تشهد أنه رسول الله، فلماذا لا تطيعه؟ لماذا لا تتبعه؟ لماذا لا تجتنب ما نهاك عنه؟ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فشهادة أن لا إله إلا الله تنفي الشرك، وشهادة أن محمدًا رسول الله تنفي البدع والمحدثات، فإذا أردت أن تحقق الشهادتين، فأخلص العبادة لله، وتجنب الشرك، وإذا أردت أن تحقق شهادة أن محمدًا رسول الله، تجتنب البدع والمحدثات، واجعل قدوتك هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، فهو القدوة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا أردت الجنة، فاتبع هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا إذا لم تتبعه، فأنت من أهل النار، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»(٢).

هذا واضح جدًّا، فالعلماء والأئمة إنما يطاعون ويتبعون إذا كانوا متبعين للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومقتدين بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما من كان

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) سبق تخريجه (ص١٨٩).

منهم مخالفًا للرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإنه لا يطاع، ولا يتبع، إنما يتبع إذا اتبع الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويقتدى به إذا اقتدى بالرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فيجب أن نعرف هذا الأصل العظيم، وإلا فإن عباداتنا كلها لا تصح، إذا لم نحقق الشهادتين، فإن عباداتنا لا تصح أو تكون ناقصة لا تنفع نفعًا كثيرًا.

فلابد من المسلم أن يعرف معنى الشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله، لا يكون الإنسان يتلفظ بألفاظ وهو لا يعرف معناها، أو يعرف معناها لكن لا يعمل به، الدين إنما يقوم على الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ والمتابعة للرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلا يقبل عمل من الأعمال إلا بهذين الشرطين:

الشرط الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يكون فيه شرك.

والشرط الثاني: الاتباع للرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلا يكون فيه بدعة أو ضلالة، وليس هناك طريق إلى الجنة إلا هذا الطريق.

من كان يريد الجنة، فليسلك هذا الطريق؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله علمًا وعملًا ونية وقصدًا، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فيجب أن نعرف هذا، ونكون في هذه الليلة نقتصر على معرفة الشهادتين، كل منكم يفكر في معنى الشهادتين، ويستحضر هذا الكلام الذي قلناه، ويطبقه على نفسه وعلى أعماله، فإن كان على صواب، فليحمد الله، وليتزود من الخير، وإن كان على خطأ، فإنه يتوب إلى الله، والله يتوب على من تاب، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

والمسلم إذا تبين له الحق، بادر إلى الأخذ به، وفرح به، الحق ضالة المؤمن أنَّى وجده، أخذه.

الحمد لله الحق واضح، بين أيدينا كتاب الله، وبين أيدينا سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبين أيدينا أهل العلم الذين هم ورثة الأنبياء، الذين يدعون إلى الله ويبصروننا للطريق الصحيح، فنحن لا عذر لنا إذا أهملنا أو قلدنا فلانًا وعلانًا دون بصيرة، أنت لا تتبع إلا من هو متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

انظر في هذا الذي تتبعه، فإن كان على سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعلى الرأس والعين، أما إن كان مخالفًا لسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تستمر معه؛ بل ارجع إلى الحق وإلى الصواب، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

حقيقة توحيد العبادة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الموضوع الذي نتحدث عنه في هذا اللقاء المبارك موضوع مهم لكل مسلم، ألا وهو موضوع توحيد العبادة الذي هو صلب العقيدة الإسلامية، وهو الأساس الذي ينبني عليه الدين، وتصح معه الأعمال، وينجو به المؤمن، ويفوز بالجنة ورضوان الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وإن موضوعًا كهذا الموضوع يجب الاهتمام به والعناية به؛ ليعلم ويعمل به.

التوحيد -أيها الإخوة- هو اعتقاد وحدانية الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وانفراده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فالتوحيد مصدر وحد توحيدًا، بمعنى أنه اعتقد أن الله واحد لا شريك له، وهو نوعان إجمالًا:

النوع الأول: توحيد الربوبية، ويسمى بتوحيد المعرفة والإثبات، ومعناه: اعتقاد أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر لكل شيء.

وبعبارة مختصرة توحيد الربوبية هو توحيد الله تعالى بأفعاله، بأفعاله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من الخلق والرزق، والإحياء والإماتة، وتدبير الأمور في السماء والأرض وفي الكون كله من أوله إلى آخره.

فلا أحد يشارك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في شيء من ذلك، فلا أحد يخلق مع الله، ولا أحد يرزق مع الله، ولا أحد يقدر مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويدبر مع الله؛ بل هو الذي انفرد بذلك كله.

وهذا النوع يقر به جميع الأمم -مؤمنهم وكافرهم-، فالكفار يقرون بتوحيد الربوبية؛ كما ذكر الله تعالى عنهم ذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس:٣١-٣٥]، مثل قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ يعني: الكفار، يقول الله لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ولئن سألت الكفار الذين يعبدون الأصنام والأحجار والأشجار، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧].

إذًا: فالكفار كانوا معترفين بتوحيد الربوبية تمامًا، والله تعالى يتحداهم في كثير من الآيات بأن يبينوا هل أحد خلق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئًا، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١]، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ﴾ [فاطر:٤٠].

والآيات في هذا كثيرة، لو تتبعناها لاستغرقت وقتًا طويلًا، ومن أراد معرفتها، فالقرآن موجود -ولله الحمد- بين أيدينا.

ومن ذلك نعرف ونعلم أن المشركين -كأبي جهل وأبي لهب- من أئمة الكفر كانوا مقرين بتوحيد الربوبية إقرارًا تامًا، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، ولم يخرجهم من حظيرة الكفر والشرك، فالإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يكفي، والاعتراف بالربوبية لا يكفي، حتى إبليس الذي هو رأس الكفر والضلال معترف بأن الله ربه، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ [الحجر:٣٩]، ويحلف بالله فيقول: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢، ٨٣]، ولم ينكر توحيد الربوبية أحد من البشرية، إلا من تظاهر بإنكاره في الظاهر ومع اعترافه به في الباطن كفرعون، فرعون ادعى الربوبية، وجحد وجود الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وادعى أنه رب الناس؛ كما حكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، فهذا لإنكار منه إنما هو في الظاهر، لكنه معترف في الباطن وقرارة

نفسه أنه كاذب في دعوى الربوبية، وإنما أراد أن يغرر بالناس، وإلا فكل عاقل يعلم أن أحدًا من الخلق لا يستطيع -لا فرعون ولا غيره- أن يخلق مثقال ذرة في الكون، لا يستطيع أن يدبر شيئًا من أمور السماوات والأرض، لا يستطيع أن ينظم الأفلاك والشمس والقمر، ولهذا قال له موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾، قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:١٠١، ١٠٢]، ففرعون يعلم أن ما جاء به موسى حق، وأنه من عند الله، ولكنه كابر وعاند في الظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤].

هذا هو توحيد الربوبية وكل العالم من أولهم إلى آخرهم مقرون به إلا من تظاهر بالجحود مع اعترافه في الباطن بأن الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الخالق الرازق هو الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا لما ناظر إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ناظر الجبار المعطل في ذلك ماذا قال؟ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ ﴾ يعني: الجبار، ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾، وهذا من باب المغالطة؛ لأنه لا يقصد أنه يوجد الحياة، وأنه يوجد الموت، لكنه يقصد بذلك -كما ذكر المفسرون- أنه يأتي بشخصين قد استحقا القتل، فيقتل أحدهما، ويعفو عن الآخر، فالذي قتله يقال: أماته، والذي عفا عنه يقال: أحياه.

أما إيجاد الحياة في الجسم وسلبها من الجسم هذا لا يقدر عليه إلا الله، لكن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يدمغه بحجة لا يقدر أن يكابر فيها، قال: ﴿ فَإِنَّ

﴿ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، هنا لا يستطيع الجبار أن يدعي أنه يأتي بالشمس من المغرب، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فعرفنا من هذا أن جميع الأمم -حتى الجبابرة، والمعطلة[1]- يقرون بتوحيد الربوبية، لكن ذلك لم يدخلهم في الإسلام؛ لأنه لا يكفي الاعتراف بتوحيد الربوبية، فلابد من النوع الثاني، وهو توحيد العبادة، أو توحيد الألوهية، ومعناه: إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة التي يتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ من الدعاء فلا يدعى إلا الله عَزَّوَجَلَّ، والصلاة والذبح؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ يعني: ذبيحتي التي يذبحها تقربًا كالأضحية والهدي والنذر والصدقة، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٤].

وكذلك الخوف والرجاء والرغبة والرهبة والتوكل والاستعاذة والإنابة والاستغاثة، وجميع أنواع النذر من ذبح وصدقة وصلاة وصوم، كل أنواع العبادة يجب إخلاصها لله عَزَّوَجَلَّ؛ فلا يدعى غير الله عَزَّوَجَلَّ، ولايصلى لغير الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يذبح لغير الله عَزَّوَجَلَّ تقربًا إليه، ولايخاف ولا يرجى ولا يتوكل إلا على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولا يرغب ويحب محبة العبودية إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

---

(١) المعطلة هم الذين عطلوا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عن صفاته، ونفوها عنه، ويسمون أيضا بالنفاة، وهم كثير، فمنهم الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية. انظر: قَانون التَّأْويل (١/ ٣٥٤)، وتبيين كذب المفتري (ص١٤٩)، والفتاوى الكبرى (٦/ ٣٣٧)، ومجموع الفتاوى (١٢/ ٥٩٨،١٦/ ٢٤١).

وهذا النوع الذي هو توحيد العبادة هذا جحده أكثر الخلق، أكثر الخلق جحدوا توحيد العبادة، وعبدوا غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عبدوا الأشجار والأحجار والقبور والأضرحة والجن والشياطين، عبدوا أنواعًا كثيرة.

وحياة الناس اليوم وحياة العالم اليوم تعج بكثير من الوثنيات التي لاتخفى، هذا كله شرك في توحيد العبادة، وهذا النوع هو الذي دعت إليه الرسل عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإن الرسل كلهم دعوا إلى توحيد الألوهية، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة بجميع أنواعها؛ بألا يصرف منها شيء لغير الله، فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله، فهو مشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة، وإن كان يقول: «لا إله إلا الله» بلسانه، وإن كان يدعي أنه مسلم بلسانه، فإذا كان يصرف شيئًا من العبادة لغير الله -كأن ينذر للقبور والأضرحة والأولياء والصالحين، أو يذبح لهم، أو يطوف بقبورهم، أو يتمسح بتربتهم-، فهذا هو الشرك الأكبر، هذا صرف للعبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كل الرسل جاؤوا يدعون إلى هذا النوع، جاؤوا يدعون إلى توحيد العبادة، ويطالبون الأمم بأن يفردوا الله بأنواع العبادة، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: أخلصوا له العبادة، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، والطاغوت المراد به: ما عبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد[1].

(١) انظر: العين (٤/ ٤٣٥)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٥٣)، والصحاح (٦/ ٢٤١٢)، ولسان العرب (١٥/ ٧).

فكل ما عبد من دون الله من شجر أو حجر أو بشر إذا كان البشر راضيًا بالعبادة من دون الله، إذا عبده الناس ورضي بذلك أو دعاهم إلى ذلك، فإنه طاغوت، أما الذي يعبد من دون الله وهو لم يرضَ بذلك ولم يدعُ الناس إلى ذلك، فهذا ليس بطاغوت، فقد عُبد المسيح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي الله، وهو ينهى عن عبادة غير الله، يقول إذا سأله الله يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾؛ لأن العبادة حق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليست حقًّا للمسيح ولا لمريم ولا لأي مخلوق، ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٦، ١١٧].

إذًا فالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يرضَ أن يعبد من دون الله، وكان ينهى عن ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

فالذين عُبدوا من دون الله وهم لم يرضوا بذلك، وكانوا ينكرون ذلك في حياتهم، هؤلاء لا يتناولهم الذم؛ لأنهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ونصحوا الناس، ولكن الناس أساؤوا من بعدهم.

إنما من عبد وهو راضٍ بذلك هذا هو الطاغوت، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]؛ لأن عبادة الله لا تصح مع وجود الشرك، حتى لو أن الإنسان يصلي الليل والنهار، ويحج كل سنة، ويعتمر كل شهر، ويتصدق بأمثال الجبال من الأموال، لو كان يفعل ذلك مع أنه يشرك بالله، فإن عمله باطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ هذا خطاب للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦].

ولما ذكر رسله أو جملة من رسله في سورة الأنعام، قال سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، فالشرك يحبط جميع الأعمال -والعياذ بالله-، لا يصح معه عمل، ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٣٦]، لم يقتصر على قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، بل قال: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾؛ لأن العبادة لا تصح مع وجود الشرك فيها، وهذا هو معنى لا إله إلا الله؛ لأن «لا إله» هذا نفي لجميع المعبودات وإبطال لجميع المعبودات ولجميع الشركيات، «إلا الله» هذا إفراد لله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبادة، فكلمة «لا إله إلا الله» مثل قوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا هو معنى الإثبات «إلا الله»، ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، هذا هو معنى النفي «لا إله».

وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦، ٢٧]، هذا معنى «لا إله إلا الله»،

﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، هذا هو معنى النفي في «لا إله إلا الله»، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هذا هو معنى الإثبات في «لا إله إلا الله».

هذا هو توحيد العبادة، وهذا النوع هو الذي دعت إليه الرسل، قال نوح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومه: وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، وقال هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥]، وقال صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣]، وقال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥].

إذًا دعوات الرسل كلها منصبة على الأمر بتوحيد العبادة، وتوحيد العبادة هو حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العبيد؛ كما في حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي في الصحيح قال: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ: **يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟** قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.** قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، **أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟** قَالَ: **لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»(١).

إذًا: حق الله على العباد هو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، لا تقف عند قوله: «**أَنْ يَعْبُدُوهُ**»؛ لأن هذا لا يكفي، «**وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»، لابد من الأمرين؛ من وجود العبادة والبراءة من الشرك.

وهذا الحق -حق الله جَلَّ وَعَلَا- هو أول الحقوق، أول الحقوق حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم يأتي بعده حق الوالدين، ثم يأتي بعده حق القرابة، ثم حق

---

(١) سبق تخريجه (ص٧).

اليتامى والمساكين؛ كما في آية الحقوق العشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣٦]، هذه عشرة حقوق في هذه الآية، أولها حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكما في قوله تعالى في قصة لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٣، ١٤]، فذكر حق الله أولًا، ثم حق الوالدين؛ لأن حق الله مقدم على كل الحقوق، وكما في آية الوصايا العشر من آخر سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣]، هذه وصايا عشر، يقولون: أجمعت عليها الشرائع، أجمعت الشرائع السماوية على هذه الوصايا العشر، هي في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن، وأولها الوصية بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام:١٥٢].

هذه الوصايا العشر أول وصية فيها الوصية بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذًا ما العلاقة بين توحيد الربوبية الذي عرفناه وبين توحيد الألوهية؟ نقول: نعم، العلاقة أن توحيد الربوبية دليل وبرهان لتوحيد الألوهية، فإذا كان الله هو الخالق، وهو الرازق، وهو المحيي، وهو المميت، وهو المدبر لجميع شؤون الكون، فإنه هو الذي يستحق العبادة.

فتوحيد الربوبية برهان على أنه يجب ألا يعبد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الذي لا يقدر على الإحياء والإماتة هذا لا يصلح للعبادة، وإنما الذي يصلح للعبادة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهكذا في القرآن الكريم نجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يذكر توحيد الربوبية؛ ليستدل به على وجوب توحيد العبادة؛ كما في أول نداء في القرآن، أول نداء في القرآن في سورة البقرة، وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢]، لاحظوا معي أنه سبحانه أمر أولًا بتوحيد العبادة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾، هذا توحيد العبادة، ثم استدل عليه بقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾، هذا توحيد الربوبية، ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ يعني: شركاء، ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر هذه الأمور إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهل هذه المعبودات التي يعبدها الناس قديمًا وحديثًا هل هي تقدر على خلق شيء في السماوات أو في الأرض؟! تقدر على خلق ذرة؟! لا، لا تقدر على خلق ذرة، إذًا هي لا تصلح للعبادة، ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧]، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل:٢٠، ٢١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٧٣، ٧٤]، فالذي يشرك مع الله أحدًا من خلقه لم يقدر الله حق قدره؛ حيث إنه ساوى الضعيف العاجز بالقوي القادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ساوى بينهم، ساوى بين الخالق والمخلوق، ساوى بين القادر والعاجز، ساوى بين الرب والعبد، ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾، فالمشركون ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾؛ إذ لو قدروه حق قدره، لم يشركوا به أحدًا في عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالذي يستحق العبادة هو الذي يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويدبر الأمور، هل الأصنام تقدر على تدبير شيء في السماوات أو في الأرض؟! سواء كانت أصنامًا جمادات، أو كانت أصنامًا من البشر -كالذين يعبدون الأولياء والصالحين-، أو كانت من الشياطين، أو من الملائكة، أو من جميع المخلوقات، كلها لا تقدر على خلق شيء في السماوات ولا في الأرض.

إذًا فتوحيد الربوبية هو برهان على توحيد الألوهية، وهو وسيلة وطريق إليه، فمن وقف مع توحيد الربوبية، وترك توحيد الألوهية، فهذا لا يعتبر

موحدًا، ولا يعتبر مؤمنًا، ولا يعتبر مسلمًا؛ لأن الكفار كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، ولم ينفعهم ذلك، وقاتلهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يعترفون بما اعترفوا به من توحيد الربوبية، ولهذا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا -أو: إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ- وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»(١) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

مع أنهم يعترفون بان الله هو الخالق الرازق، المحيي المميت، الرسول يطالبهم بأن يقولوا: لا إله إلا الله. فدل على أنهم ليسوا مسلمين وأنهم لم يعترفوا بأنه لا إله إلا الله؛ لأنهم يعبدون من دون الله الأصنام والأنداد، ولهذا لما قال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(٢)، قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥](٣).

يعني: لما طالبهم أن يخلصوا العبادة لله وحده، وأن يتركوا عبادة الأصنام، تعجبوا من ذلك، قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾، يعني: يطلب منا أن نترك الأصنام، ونترك عبادة الأوثان، ونخلص العبادة لله؟! هذا شيء عجاب لم يعرفوه؛ بل أنكروه غاية الإنكار.

إذًا فالفاصل بين المؤمن والكافر هو الاعتراف بتوحيد الألوهية، أما توحيد الربوبية، فالكل معترف به المؤمن والكافر، والمشرك والموحد كلهم يعترفون بتوحيد الربوبية، لكن افتراق الطريق هو عند توحيد العبادة، هذا هو الذي ضل

(١) سبق تخريجه (ص٩٦).
(٢) سبق تخريجه (ص٩٤).
(٣) سبق تخريجه (ص٧٢).

فيه أكثر الأمم، وهذا هو الذي أوجب لكثير من الخلق أوجب لهم دخول النار، ولم ينفعهم اعترافهم بتوحيد الربوبية.

فهذا أمر يجب أن نتفطن له غاية التفطن، ونهتم به غاية الاهتمام.

نحن عندما نصلي إذا قرأنا سورة الفاتحة -التي قراءتها ركن في كل ركعة- ماذا نقول؟ نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]؛ نعاهد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ألا نعبد إلا إياه، ولا نستعين إلا به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا عهد بين العبد وبين ربه، يعاهد الله في كل ركعة من صلاته -فريضة أو نافلة- ألا يعبد إلا الله، ولا يشرك به شيئًا.

فمن الناس من يفي بهذا الوعد، ويخلص العبادة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن الناس من لا يفي بهذا الوعد، فيشرك مع الله في عبادته، زاعمًا أن أحدًا يجلب له النفع أو يدفع عنه الضر من المخلوقين الأموات أو الأحياء أو الأشجار أو الأحجار.

فهذا أمر عظيم -أيها الإخوة الكرام-، يجب أن نتفطن له؛ لأنه هو الأساس المصحح لجميع العبادات.

وأول ما يجب على العبد أن يتعلمه هو توحيد العبادة، يعرف كيف يعبد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يعرف ما الذي يصحح العبادة وما الذي يبطلها، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، فأمر بأن يعلم أن لا إله إلا الله قبل كل شيء، ومعنى ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يعني: تعلم معنى هذه الكلمة؛ لأنها ليست لفظًا يقال باللسان من غير معرفة لمعناها ومن غير عمل بمقتضاها.

كثير من يقولون: «لا إله إلا الله»، لكن هل يخلصون العبادة لله؟ هل يوفون بمعنى «لا إله إلا الله»؟ هذا لا يمكن أن يقوم به إلا من عرفه أولًا حتى يمكنه أن يقوم به، أما الذي يجهل معنى «لا إله إلا الله»، فهذا حري ألا يفي بمعنى هذه الكلمة، وألا يعمل بها؛ لأنه جاهل بمعناها، والجاهل لا يمكن أنه يعمل عملًا صحيحًا وهو على جهل، ولهذا في آخر سورة الفاتحة -أيضًا-: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، من هم الذين أنعم الله عليهم؟ هم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:٦٩]، هؤلاء هم أهل معنى «لا إله إلا الله»، وهم أهل توحيد العبادة.

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ من هم المغضوب عليهم؟ المغضوب عليهم هم الذين عرفوا الحق ولم يعملوا به، كاليهود مثلًا، وكل عالم لا يعمل بعلمه فهو مغضوب عليه بحسب ما ترك، قد يكون الغضب -والعياذ بالله- غضبًا شديدًا، أو يكون غضبًا دون ذلك، بحسب ما ترك من الحق الذي يعلمه.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ من هم الضالون؟ هم الذين يعبدون الله على الجهل وعلى الضلال كالنصارى مثلًا، وكل من تعبد على غير علم وعلى غير طريق الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فهو ضال؛ لأن الضلال معناه الضياع عن الطريق الصحيح.

الإنسان إذا كان يمشي مع طريق في البر -مثلًا-، ثم إنه ترك الطريق، فإنه يضل عن الطريق، وربما يقع في مهالك، وربما يقع في مخاطر؛ لأنه أخطأ الطريق،

هذا يسمى ضالًا، كذلك من ترك طريق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَبَدَ اللهَ على جهل هذا ضال -والعياذ بالله.

فنحن ندعو الله عَزَّ وَجَلَّ أن يهدينا طريق المنعم عليهم، وأن يجنبنا طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين، المنعم عليهم هم الذين جمعوا بين العلم والعمل، والمغضوب عليهم هم الذين أخذوا العلم، وتركوا العمل، والضالون هم الذين أخذوا العمل، وتركوا العلم، هذا سبيل النجاة.

ونسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم، وأن يجعلنا من ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر:١٨].

والله الموفق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

حماية الإسلام للعقل البشري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

يمكن للسكران أن يتكلم بكلام بذي نفسه، ويشتم أمه وأباه وأقرب الناس إليه؛ لأنه فاقد العقل، يمكن للسكران أن يفعل كل جريمة، يمكن للسكران أن يعمل كل خبيث في حال السكر؛ ولهذا سماها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم الخبائث[(١)].

السكران يعاشر أراذل الناس وأفسد الناس، فهي أم الخبائث، ولعن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها عشرة، لعن في الخمر عشرة: لعن عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، ولعن بائعها، ومبتاعها، وآكل ثمنها، وحاملها، والمحمولة إليه: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَالمَعْصُورَةَ لَهُ، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةَ لَهُ، وَبَائِعَهَا، وَالمَبْيُوعَةَ لَهُ، وَسَاقِيَهَا، وَالمُسْتَقَاةَ لَهُ»[(٢)]، كلهم ملعون على لسان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخبر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه النسائي في المجتبى (٥٦٦٦)، وفي الكبرى (٥/ ١٠١) موقوفا على عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وابن حبان في صحيحه (١٢/ ١٦٨- ١٦٩) مرفوعًا من طريق عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اجْتَنِبُوا الخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الخَبَائِثِ...».

(٢) أخرجه الترمذي (١٢٩٥)، وابن ماجه -واللفظ له- (٣٣٨١)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«مُدْمِنَ الخَمْرِ، كَعَابِدِ وَثَنٍ»(١)، وأخبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الذي يشرب الخمر في الدنيا يحرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من شراب الجنة(٢)، الجنة فيها خمر، لكنه ليس كخمر الدنيا، ليس فيه مفاسد مثل مفاسد خمر الدنيا؛ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [محمد:١٥]، فهو لذة، أما في الدنيا، فهو ليس لذة، وإنما هو شر، وخمر الدنيا فيها مفاسد، وفيها خداع، وفيها غول، تفسد العقل، وخمر الآخرة ليست كذلك؛ ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات:٤٦، ٤٧]، فهي ليس فيها خداع وغول، وليس فيها مذاق سيء، وإنما هي لذة، وليس فيها مفاسد مثل مفاسد خمر الدنيا.

من شرب خمر الدنيا الخبيثة، فإنه يُحرم من خمر الجنة الطيبة، التي هي لذة للشاربين، والتي ليس فيها آفة من الآفات، بل هي خير كلها، ونفع كلها، وذلك عقوبة له، هذا ما يتعلق بالخمر.

هناك شيء أَمَرُّ من الخمر يفسد العقل، ويفسد الجسم، ويفسد الخُلق، وهو المخدرات، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفْتِرٍ»(٣)، «عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ»، هذا يدخل فيه سائر الخمور.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ».

(٣) أخرجه أحمد (٤٤/ ٢٤٦)، وأبو داود (٣٦٨٦)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٣٧) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

«وَمُفْتِرٍ»، هذا يدخل فيه سائر المخدرات.

وهذا من جوامع كلمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفْتِرٍ».

المفتر: هو المخدرات بجميع أشكالها.

والمخدرات -والعياذ بالله- أشد من الخمر؛ لأنها تشتمل على مفاسد الخمر وزيادة، فهي تسكر، وهي تخدر الجسم، وتفسد العقل، وتخبل الإنسان، وتورث الأمراض الفتاكة، وتفسد الخُلق، حتى إن الإنسان يتحول من الرجولة إلى الأنوثة، وهذا شيء معروف ومجرب في الذين اُبتلوا، وغرهم الشيطان بتعاطي المخدرات؛ كثير منهم -والعياذ بالله- فقد عقله، وصار مخبلًا، يعيش أسوأ عيش، والبعض الآخر أُصيب بالآفات، بالعمى، أُصيب بفساد الخلق، أُصيب بالأنوثة والدياثة، وأُصيب بالإدمان، وهو عدم الصبر عنها، وعدم الإقلاع عنها؛ لأنه اُبتلي بها، تعلق بها -والعياذ بالله-، فقلَّ أن يصبر عنها، وكان في عافية في الأول، لو أنه التزم طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والتزم ما شرعه الله وأباحه، وترك ما حرمه الله، كان في عافية، وكان في نعمة، وكان في كرامة، لكن لما أطاع الشيطان، وأطاع نفسه، وتناول هذه الآفة، صعب عليه الخلاص، هذا إذا بقي معه حواس والأكثر يبقى بلا حواس -والعياذ بالله-، مستشفيات المجانين الآن ملأى من أصحاب الحشيش، من أصحاب المخدرات، المستشفيات العلاجية الآن ملأى من علاج هؤلاء، دور الإصلاح ملأى الآن من هؤلاء، يُحاول معهم؛ لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يعافيهم مما هم فيه.

كل هذا بلاء، فهذه المخدرات أفتك سلاح فتك به الأعداء بالمسلمين، وهي أشد من الطواعين، وأشد من مرض الكوليرا، وأشد من الأمراض الوبائية، الناس يفزعون لو سمعوا مرض الوباء، يفزعون لما سمعوا مرض الطاعون، مرض الكوليرا، ولكن والله، ثم والله إن هذه المخدرات أشد، أشد من الوباء؛ لأن مرض الوباء هذا أمرٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن يموت بالوباء يرجى له الشهادة، الذي يموت بالطاعون هذا يرجى له الشهادة، لكن -والعياذ بالله- الذي يموت بالمخدرات هذا يخاف عليه، يخاف عليه من العقوبة الشديدة.

فالمخدرات من أشد الآفات الفتاكة التي اتخذها المفسدون في الأرض من اليهود ومن ذوات الكفر والإلحاد، اتخذوها سلاحًا ضد البشرية عموما، وضد المسلمين على وجه الخصوص.

المخدرات هي تتكون -كما ذكروا- من الحشيش، ومن الأفيون، ومن القات والبنج، يعني: أنواع، وقد قسموها، المخدرات قسموها على قسمين:

* قسم يشتهى ويسكر مثل الخمر، وهذا في الحشيش والأفيون، هذا يشتمل على آفتين: آفة الإسكار، وآفة التفتير.

* والقسم الثاني: هذا يخدر فقط، ولا يُسكر، وهو البنج، هذا يخدر، ولذلك يستعمل في المستشفيات لتخدير المريض لإجراء العمليات الجراحية، هذا لا يُسكر، ولكنه يخدر، يغطي العقل، يعطل، ويخدر الإحساس، وهذا لايجوز تعاطيه، البنج لا يجوز تعاطيه إلا للضرورة؛ لإجراء عميلة -مثلًا-، لعلاج، أما لو تعاطاه بدون ضرورة، فهذا يُعزر؛ لأنه أضر بنفسه، لكنه ليس فيه حد المسكر؛ لأنه ليس بمسكر.

أما الأفيون والحشيش والقات، فهذه مسكرات ومخدرات، يعني: تجمع بين الأمرين.

فالحبوب هذه طبعًا تتكون من الأفيون ومن الحشيش؛ لأنهم يقولون: الحشيش هذا عبارة عن ورق القنب الهندي، وأما الأفيون فهو عصير الخشخاش، شجر معروف، وأما القات فهو شجر ينبت في اليمن وفي الصومال، هذه الأمور الثلاثة تجمع بين الإسكار وبين التخدير والتفتير، وتجمع مفاسد جسمية؛ لأنها تمرض الجسم، وتخبل العقل، ومفاسد أخلاقية؛ لأنها تفقد الغيرة على العرض، حتى يصبح الإنسان لا يأنف من الفاحشة، ولذلك يستعملها المفسدون للتوصل لأغراضهم في إفساد الأخلاق، يخدرون من يريدون إفساده، فهي مفسدة، أولًا: للعقل، وثانيًا: مفسدة للصحة وللجسم، وثالثًا: مفسدة للأخلاق، فهي شر من الخمر.

الخمر سمعتم الوعيد الذي فيها، والتهديد الذي فيها، المخدرات شرٌّ من الخمر، إذًا يكون الوعيد عليها والعقوبة عليها أشد -والعياذ بالله.

وهذه المخدرات يكون منها ما يكون على صفة ورق نبات باقية على ما هي عليه، ومنها ما يُصنع، يُصنع يُجعل حبوبًا -مثلًا-، أو يجعل -مثلًا- في حقن وإبر، ومنها ما يؤكل أكلًا، ومنها ما يُشرب شربًا شرابًا، يعني: يذاب ويشرب، أو يحقن في جسم الإنسان بواسطة الإبر، ومنها ما يسحق ويشم في الأنف، وكلها تؤدي مفعولًا واحدًا، وهو الإسكار والتخدير، سواء أُكلت، أو شُربت، أو أُخذت بطريق الدم، أو شُمت بطريق الأنف، فهي تؤدي مؤدى واحدًا، وتعمل عملًا واحدًا في الإنسان -والعياذ بالله.

هذه الآفات والمخدرات كما ذكرنا أنها شر من الخمر، وأنها أخطر على المسلمين، بل على البشرية عموما، أخطر عليهم من الخمر، فيكون فسادها وخطرها وعقوبتها والحذر منها أشد من الخمر.

فيجب على المسلمين أن يتحاذروا هذا الداء الخبيث وهذا الخطر الشديد الذي تفشى بين الناس إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ.

والموردون لهم طرق شيطانية ينبغي الحذر منها، وأخذ الحيطة منها؛ لأنه لا يأتي على شكل واضح، وإنما على أشكال، وربما يؤتى به على صورة الدواء، أو على صورة علاج، وربما يؤتى به على صور مختلفة لا يتنبه لها إلا أهل الفطنة والحكمة.

ولكن على المسلمين أن يتعاونوا، وأن يتحاذروا على شبابهم وعلى أولادهم؛ فإن الخطر قد داهمهم، والخطر شديد جدًا من هذه المخدرات -والعياذ بالله.

هذه المخدرات ما تفشت في المجتمع إلا وانحط إلى أسفل سافلين؛ لأنها تهدم الرجولة، شباب المسلمين هم ثروة الأمة، وهم عمادها بعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنهم هم الذين يتولون الأعمال، وهم الذين يجاهدون في سبيل الله، وهم الذين يخدمون آباءهم في حياتهم وبعد مماتهم، فإذا فسدوا، فسد المجتمع -والعياذ بالله.

وأعظم ما أُذي به المسلمون اليوم، أعظم ما أُذوا به عن طريق هذه المخدرات، فعلى المسلمين أن يتنبهوا غاية التنبه، وهي -كما ذكرنا وكما قرأنا- ربما أننا لن نلم بها تمامًا، ولكن من له خبرة أعرف بها منا، هي -كما ذكرنا-:

أولًا: الحشيش.

وثانيًا: الأفيون بجميع مشتقاته.

وثالثًا: القات.

القات هذا لا يقل خطره عن بقية المخدرات، وإن كان بعض الناس، أو بعض الذين يجهلون حقيقته يتهاونون به، وربما يدعي بعضهم أنه مباح.

لا والله، ليس مباحًا؛ لأنه ثبت ثبوتًا قطعيًّا ممن نثق بهم أن هذا القات يؤدي ما يؤديه بقية المخدرات من أنه يخدر الجسم، ويُسكر الإنسان بحيث لايدري -مثلًا- ما حوله، أو يكون شعوره بين وبين، ليس شعوره كاملًا، وأيضًا يفسد الجسم، يفسد الصحة، وأيضًا يؤثر على الأخلاق، وإذا دوام عليه الإنسان، فإنه يفقد فيه الشهامة والرجولة والقوة، والإنسان خُلِق في هذه الدنيا ليعمل، لينفع نفسه وينفع غيره، لم يخلق الإنسان ليكون جالسًا سكيرًا معربدا، ليس له همٌّ إلا ما تمليه عليه شهواته الشيطانية.

فهذه المخدرات بجميع مشتقاتها وجميع أنواعها هي خطر عظيم، والله جَلَّوَعَلَا حرم إفساد هذا العقل، فأي شيء يؤثر على هذا العقل، ويفسد هذا العقل؛ فإنه جناية عظيمة يجب على المسلمين أن يتنبهوا له، وأن يحذروا منها، وأن يبعدوا عنها أنفسهم وإخوانهم وأولادنا، ويكون هذا من باب التعاون والتناصح، فالإنسان قليل بنفسه، ولكنه كثير بإخوانه، قال الله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

ربما يكون القات أخف تأثيرًا من الافيون ومن الحشيش، ولكنه وإن كان أقل لكن فيه مفاسد عظيمة، وهو يشارك هذه الأشياء في الإسكار، ولو كان الإسكار قليلًا، ويشاركها في التخدير، ويشاركها في الإضرار بالبدن والعقل والخُلق، وإن كان ذلك بنسبة قليلة، ولكن هذا القليل يتعظم، ويتكون، ويزيد حتى يؤدي بصاحبه إلى الخبال والوباء، ويسير الشر يدعو إلى كثيره، ليس هناك شك أن الشر وإن كان يسيرًا فإنه يدعو إلى ما هو أكبر منه، وربما يؤدي تعاطي القات إلى تعاطي الحشيش، وإلى تعاطي الأفيون.

فالإنسان في عافية، وقد كرمه الله، وأنعم عليه، وأوجد له النعم المباحة الطيبة، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقد أغناكم الله بحلاله عن حرامه، وبفضله عمن سواه.

فالطيبات -والحمد لله- فيها لذة، وفيها نعمة، وفيها قوة، وفيها رجولة، وفيها شهامة، وفيها عون على طاعة الله، وآثارها حميدة، والخبائث آثارها سيئة، وتغذي تغذية خبيثة، وتؤدي إلى عاقبة سيئة.

هناك نوع خامس، أو نوع رابع له علاقة وإن لم يكن مثل هذه الأمور، وهو الدخان، الدخان أو التمباك هذا -أيضًا- مضر، وإن كان لا يُسكر، لكنه يُفتر، فيدخل فعله في عموم نهيه ﷺ عن كل مسكر ومفتر، فالدخان مفتر، وقال بعض العلماء: إنه مُسكر، ولكن الثابت أنه إذا لم يكن مسكرًا، فإنه مفتر بلا شك، فيدخل في عموم نهيه ﷺ عن كل مفتر، وعلاوة على أنه مفتر فهو مضر ضررًا واضحًا بالصحة، وهذا شهد به إجماع أطباء العالم، ومنظمات

الصحة العالمية كلها تشهد بأن الدخان مضر بالجسم ضررًا بينًا واضحًا، وآثاره على الإنسان.

أنتم ترون الإنسان الذي يشرب الدخان ترون آثار الدخان عليه، أليس كذلك؟ من حين ترونه تعرفون أنه يشرب الدخان، وإذا رأيتم المعافى من الدخان، وجدتم الفرق واضحًا بينه وبين المبتلى بالدخان، هذا شيء واضح، هذا يظهر عليه الشحوب -شحوب الجسم-، ويظهر عليه تغير اللون، ويظهر عليه تغير الأسنان والفم والشفتين، ويظهر عليه تغير رائحة الفم، هذه علامات ظاهرة، والأمور الباطنة في جوفه وفي مجاري النفس وفي مجاري الطعام في معدته أخطر وأكثر مما لا ترون، ولهذا أجمع أطباء العالم حتى الذين يشربونه، أو الذي يتعاطونه أجمعوا على أنه مضر، وما كان فيه ضرر نهى الإسلام عنه؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

يمكن أن تقول: إن الذي يشرب الدخان لا يقتل نفسه مثل الذي يضرب نفسه بالسيف، أو يشرب السم. نقول: نعم، لا يموت في الحال، ولكن هذا الدخان يحدث به أمراضًا مزمنة تقضي عليه بعد حين، فيكون قد تسبب في قتل نفسه، علاوة على ما فيه من الضرر، فهو إتلاف للمال بغير فائدة، وهذا المال أنت مسؤول عنه يوم القيامة؛ «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»[1]، يُسْأَلَ عن هذه الأربع، ومن ذلك أنه يُسْأَلَ عن ماله من أين اكتسبه

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، من حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وفيم أنفقه؟ فالذي ينفق المال في الدخان، فقد أنفقه في شيء ضار، وأنفقه في شيء لا فائدة فيه، فيُسْأَل عنه يوم القيامة.

لو رأيتم إنسانًا كل يوم -مثلًا- يحرق خمسة ريالات، يأخذ خمسة ريالات ويحرقها في النار، ماذا تعدون هذا الإنسان؟ ألستم تعدونه سفيهًا؟! ألستم تعدونه مجنونًا ومبذرًا؟!

لكن الذي يشرب الدخان -بالله عليكم- كم يحرق في اليوم من الريالات؟! أظنه يحرق الشيء الكثير، وماذا استفاد بعد ذلك؟

على العكس، لم يستفد، وإنما أضر بنفسه ضررًا بينًا، وأنفذ ماله وأنفق ماله بلا فائدة، هذا من أعجب العجائب أن إنسانًا عاقلًا، ويتصرف هذا التصرف، لو أن الشيطان -لعنه الله- يزين للناس السيئة، ويغريهم بصورة الحسنة، الشيطان -لعنه الله- عمل هذا مع أبينا آدم، ماذا عمل مع أبينا آدم؟ لما نهى الله آدم وزوجه عن الأكل من شجرة معينة، ما زال يوسوس لهما حتى أوقعهما في هذه الشجرة، بل حلف لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢١، ٢٢]، ولكن الله منَّ على آدم وزوجه، فتابا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، فتاب الله عليهما.

وأنتم كذلك أيها المبتلون، يا من ابتليتم بتعاطي شيء من هذه الأمور بأن غركم الشيطان، وأظهر لكم أنه ناصح لكم، توبوا إلى الله كما تاب إلى الله أبوكم آدم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما تابت أمكم حواء عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، لعل الله أن يتوب علينا وعليكم؛ فإن باب التوبة مفتوح الليل والنهار، «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى

نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»(١)، فمن أُبتلي بشيء من هذه الأمور، فباب التوبة مفتوح، ولكن ليتذكر أن الأجل قريب، التوبة بابها مفتوح، ولكن ربما يكون الأجل قريبًا، فعليك أن تبادر بالتوبة قبل أن يحول الموت بينك وبين باب التوبة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾ [النساء:١٧، ١٨]، إذا بلغت الروح الحلقوم، فحينئذ لا تقبل التوبة من الإنسان، وهل تدري -أيها الإنسان- متى تبلغ الروح الحلقوم؟ والله، لا تدري أي لحظة، هذا بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ ﴾ [لقمان:٣٤]، فعليك أن تبادر بالتوبة والحمد لله الذي فتح لنا باب التوبة.

فهذا العقل الذي منَّ الله به عليك -أيها الإنسان- من أكبر النعم عليك، هو مثل النور الذي تبصر به الطريق، وترى به الحفر والأشواك والصخور لتتجنبها إلى الطريق الواضح الذي ليس فيه خطر.

هذا العقل مثل النور الذي أعطاك الله، فعليك أن تحافظ عليه تمام المحافظة، الإنسان يحافظ على صحته، يذهب يتعالج، إذا أحس بأدنى شيء يذهب ليتعالج

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

منه، يحافظ على بصره، إذا أحس بأدنى شيء، ذهب يعالجه لكيلا يفقد بصره، فكيف يفرط الإنسان في عقله الذي هو أعظم من البصر، وماذا تفيد قوة الجسم وقوة البصر مع فقد العقل؟!

ماذا يستفيد الإنسان إذا كان جسمه قويًّا وبصره نافذًا، ولكنه فاقد للعقل؟! متى يفقد العقل؟ يفقد العقل إذا تعاطي هذه الشرور وهذه الأمور التي تؤثر على عقله وتجني عليه، وربما يذهب عقله بالكلية ولا يعود إليه.

ولهذا يقول الشاعر(١):

وَاهْجُرْ الخَمْرَةَ إنْ كُنْتَ فَتًى ... كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مِنْ عَقَلْ
وَاتَّقِ اللهَ فَتَقْوَى اللهِ مَا بَاشَرَتْ ... قَلْبَ امْرِئٍ إلا وَصَلْ

كيف للإنسان يتحول عن العقل إلى الجنون؟! لو أن الإنسان بيده أن يصير مجنونًا لم يرض، لو بيده أن يصير مخبلًا لم يرض، لكنه بتعاطيه هذه الأمور يتحول إلى مجنون، ويتحول إلى مخبل.

هذا وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لي ولكم التوفيق والهداية، وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا وأن يرزقنا اجتنابه، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا!

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(١) البيتان لابن الوردي من لاميته. انظر: الكشكول (١/ ٢٣٤)، ومجاني الأدب (٤/ ٩٢).

طاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلابد من طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: كُلْ بِيَمِينِكَ. فَقَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، فَقَالَ: لَا اسْتَطَعْتَ. قَالَ: فَمَا رَجَعَتْ إِلَيْهِ**»[١]، فما رفع يده إلى فيه بعد ذلك؛ عقوبة له، انشلت يده، ولم يستطع تحريكها ورفعها؛ عقوبة له، «**مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ**»، ما منعه من الأكل بيده اليمنى إلا الكبر، فلما قال: لا أستطيع. وهو كذاب، دعا عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: «**لَا اسْتَطَعْتَ**»، فما رفع يده إلى فيه بعد ذلك.

بينما رأى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا وفي يده خاتم من ذهب، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَاللهِ، لَا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»[٢]، هذا هو الاتباع الصحيح، وهذه هي النصيحة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا بلغك أمر من أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧/ ٢١)، ومسلم (٢٠٢١)، من حديث سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص٤٢).

وجب عليك الامتثال، إذا بلغك نهي من نهيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجب عليك ترك ما نهى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا من النصيحة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أمر من؟ أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ والفتنة: الزيغ في القلب، فإذا ترك أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رغبة عنه، فإنه يبتلى بالزيغ.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عقوبة، فالذي يخالف أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعاقب إما في قلبه وذلك بالزيغ -والعياذ بالله-، وهذا أشد العقوبات.

فالذي يتبين له الحق والسنة ثم يتركها، يبتلى بالزيغ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يصيبه عذاب عقوبة في بدنه، مرض، قارعة تصيبه في نفسه، هلاك، وغير ذلك، يصيبه فقر وفاقة، تصيبه عقوبات في الدنيا وفي الآخرة، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الآية: «عَجِبْتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ! وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣] أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ

شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ»(١). هذا كلام الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على معنى هذه الآية الكريمة، فهذا من النصيحة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتباعه وطاعته.

ومن النصيحة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احترام سنته، احترام الأحاديث الواردة عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمها وعدم التهاون بها؛ لأنها كلام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي بالمنزلة الثانية بعد القرآن، هي بالمنزلة الثانية بعد كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فيجب احترام أحاديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمها، وألا يتجرأ الإنسان على الكلام على أحاديث الرسول من غير علم؛ بأن يقول: هذا صحيح، وهذا ضعيف، وهذا لا أدري كيف، ويصحح ويضعف في الأحاديث، وهو ليس عنده علم، متعالم يقرأ في الكتب، ويحكم على أحاديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يتعلم السنة ومصطلح الحديث وما عليه علماء الحديث، لم يعرف هذا، وإنما نشأ على الكتب يطالع فيها، وجعل نفسه محدّثًا!

هذا خطر عظيم، يجب على المسلم أن يعظم أحاديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وألا يتطاول عليها بغير علم، وألا يتكلم بتصحيحها أو تضعيفها بغير علم وبغير قواعد شرعية يسير عليها علماء الحديث.

من أنت حتى تجعل نفسك في مصاف الحفاظ؟! من أنت حتى تجعل نفسك بمنزلة الإمام أحمد، والإمام البخاري، والإمام مسلم، والإمام ابن خزيمة، وأئمة الحديث، وأئمة الجرح والتعديل؟!

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ٩٧)، وانظر: مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل (٣/ ١٣٥٥)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

من أنت؟ من درست عليه؟ من تلقيت العلم عنه؟ من هم مشايخك؟ على كم عالم تلقيت العلم؟

إذا قرأت سير العلماء والحفاظ، تعجب من كثرة شيوخهم وكثرة رحلاتهم في طلب الحديث، تجد الواحد له أكثر من ألفي شيخ، ألفا شيخ تلقى الحديث والعلم عنهم، ولا يتكلم إلا بعد أن يشهد له بالمعرفة بأحاديث الرسول ﷺ، إذا شهد له مشايخه الذين تلقى عنهم علم الحديث، فإنه حينئذ يتكلم في علوم الحديث، فهؤلاء الذين يتطاولون الآن على الأحاديث وهم ليسوا علماء، ولم يتلقوا العلم عن علماء الأحاديث، ولم يدرسوا حتى المختصر في مصطلح الحديث، لم يقرؤوه، ولا يعرفون المختصرات في علوم الحديث.

فكيف يجوز لهم أن يتكلموا في أحاديث الرسول ﷺ، ويضعفوها ويصححوا ويخرجوا إلى آخر ما يعبثون به الآن؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فمن النصيحة لرسول الله ﷺ احترام سنته وتعظيمها، وألا يتكلم الإنسان فيها بغير علم.

واحد من الصحابة بلغه عن صحابي آخر أن عنده حديثًا عن رسول الله ﷺ، وبينهما مسافة، واحد في الحجاز والآخر في مصر. الذي في الحجاز بلغه عن الذي في مصر أن عنده حديثًا عن رسول الله ﷺ، فسافر من الحجاز إلى مصر، وسأله عن هذا الحديث، ورواه عنه ثم رجع. حديث واحد سافر من الحجاز إلى مصر، وكم المسافة في ذاك الوقت؟ لا يوجد سيارات ولا طائرات ولا بواخر، ذهب على الإبل أو على قدميه لحديث واحد(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٦٥٦) قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: «وَرَكِبَ أَبُو أَيُّوبَ، إِلَى عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، إِلَى مِصْرَ، =

هؤلاء هم الذين يعظمون سنة الرسول ﷺ ويتلقونها عن العلماء عن حفظاها وعن حملتها، ولا يأخذونها من مجرد الكتب والمطالعات كما يفعل بعض أهل هذا الزمان.

فمن النصيحة لرسول الله ﷺ احترام سنته ﷺ، ومن النصيحة لرسول الله ﷺ أن الإنسان إذا لم يكن عنده علم بأحاديث الرسول ﷺ أن يمسك لسانه، ولا يتكلم من غير علم، وينسب إلى الرسول ﷺ ما لم يصح عنه ﷺ، أو يضعف ما صح عن الرسول ﷺ، هذا نتيجة الجهل وسوء الأدب مع سنة الرسول ﷺ، فمن النصيحة لرسول الله ﷺ احترام سنته وأقواله وأفعاله ﷺ.

وكذلك من احترام الرسول ﷺ والنصيحة للرسول ﷺ أن تصلي وتسلم عليه كما أمرك الله بذلك، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]، ﴿ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾، فهذا من حقوقه ﷺ، وهذا من النصيحة له ﷺ أن نصلي ونسلم عليه عند ذكره، وفي صلاتنا، وفي خطبنا ومحادثاتنا، وعند ذكره ﷺ.

وكذلك من النصيحة لرسول الله ﷺ عدم رفع الصوت عنده ﷺ حيًّا وميتًا، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ

= فَقَالَ: «إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ أَمْرٍ لَمْ يَبْقَ مِمَّنْ حَضَرَهُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا أَنَا وَأَنْتَ، كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي سَتْرِ الْمُؤْمِنِ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَتَرَ مُؤْمِنًا فِي الدُّنْيَا عَلَى عَوْرَةٍ سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَا حَلَّ رَحْلَهُ يُحَدِّثُ هَذَا الْحَدِيثَ».

صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٢، ٣]، وهذا يعم حياته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أن كان حيًّا، ولهذا كان الصحابة يغضون أصواتهم عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إنهم لم يكونوا ينظرون إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احترامًا له، إذا جلسوا عنده، لا يرفعون أبصارهم ينظرون إليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احترامًا له وتعظيمًا له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يرفعون أصواتهم، ولما نزلت هذه الآية الكريمة، لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان رجل من الصحابة جهوري الصوت، ولما سمع هذه الآية، جلس في بيته، ففقده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأل عنه وأرسل إليه: لماذا لا تحضر؟ قال: إني سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، وأنا رجل جهوري الصوت، فأخشى أن أرفع صوتي عند الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيحبط عملي وأكون من أهل النار. فبلغ ذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أخبروه أنه من أهل الجنة**» فشهد له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنة، فعند ذلك اطمأن الرجل(١).

---

(١) أخرجه مسلم (١١٩)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، جَلَسَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فِي بَيْتِهِ، وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فَقَالَ: **يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ أَشْتَكَى؟** قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي، وَمَا عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَى، قَالَ: فَأَتَاهُ سَعْدٌ، فَذَكَرَ لَهُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ ثَابِتٌ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**».

هذا يدل على احترام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يعم غض الصوت عند الرسول في مجلسه يوم أن كان حيًّا وغض الصوت عند قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ عندما يزور الإنسان قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسلم عليه، فإنه يغض صوته، ولا يرفع صوته عند قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن حرمته ميتًا كحرمته حيًّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك من حقوق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والنصيحة له إذا قرئ الحديث عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا قرئ حديث الرسول، فإنك تنصت، ولا تتكلم كأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاضر يتكلم.

إذا سمعت حديث الرسول يُقرأ، فإنك تتأدب، وتغض صوتك، وتستمع لكلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأنه حاضر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحدث بهذا الحديث، تحترم أحاديث الرسول عند سماعها غاية الاحترام، هذا من النصيحة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل هذا يدخل في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(١).

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرزقنا وإياكم محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته واتباعه والإيمان به، والنصيحة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يجعلنا وإياكم من ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:١٨]!

نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم الفقه في الدين، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا!

اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، ودعاءً متقبلًا، وإيمانًا صادقًا!

وصلى الله وسلم على نبيه محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥)، من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مذهب السلف الصالح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

نحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يسر هذه الفرصة لأطالب إخواني في هذا الوقت المبارك وهذا المسجد المبارك لنتذاكر في أمور ديننا، ونتعلم ما ينفعنا، ونرجو أن نكون من الذين قال فيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَارْتَعُوا. قِيلَ: وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ**»[(١)]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[(٢)].

إن موضوع الكلمة هو بيان مذهب السلف الصالح، ولابد أن نعرف من هم السلف الصالح قبل أن نعرف مذهبهم.

السلف الصالح: هم صدر هذه الأمة الذين هم صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذين تعلموا عليهم من التابعين، والذين تعلموا من التابعين،

---

(١) أخرجه أحمد (١٩/ ٤٩٨)، والترمذي (٣٥١٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهم القرون المفضلة الذين قال فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(١)، هؤلاء هم القرون المفضلة، وهم ثلاثة قرون: الصحابة، والتابعون، وأتباع التابعين، وفي بعض الروايات أنهم أربعة قرون؛ حيث جاء في بعض الروايات أنه ذكر أربع مرات: «**الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(٢).

وعلى كلٍّ فالسلف الصالح لا شك أن في مقدمتهم صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتلاميذ الصحابة، وهم التابعون وأتباع التابعين؛ لأنهم أقرب الأمة إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأشد الأمة تمسكًا بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأغزر الأمة علمًا، وأفقههم في الدين؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أخذوا عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل -يعني: التفسير-، وجاهدوا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم أفقه الأمة على الإطلاق، ثم تتلمذ عليهم التابعون، تفقهوا على الصحابة، ورووا عنهم، وأخذوا العلم عنهم.

ثم الذين أخذوا العلم عن التابعين، وهم أتباع التابعين، ثم بعد ذلك حصل ما حصل من التفرق والاختلاف وتنوع المذاهب وظهور الفرق، بعد عصر القرون المفضلة حصل ما حصل من التفرق والاختلاف، وظهور الفرق والمذاهب؛ كما أخبر بذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث قال: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ**

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٥).

(٢) هذه رواية مسلم (٢٥٣٥)، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[١]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». قَالَ الراوي: فَلَا أَدْرِي أَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً»[٢]، ثم قال: «إِنَّهَا سَتَكُونُ أُمَرَاءُ بَعْدِي يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، يَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ»[٣]، وفي حديث آخر: «ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يوفونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»[٤]، وحينما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلَّا وَاحِدَةً، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»[٥].

فالله جَلَّ وَعَلَا لم يتركنا هملًا نضيع حين تحدث الفرق والمخالفات، بل إن الله برحمته جعل لنا صراطًا مستقيمًا، إن تمسكنا به وسرنا عليه، لحقنا بالسلف الصالح؛ «مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»، من كانت هذه صفته،

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

(٢) سبق تخريجه (ص٧٥).

(٣) أخرجه أحمد (٧/ ٣٧٤)، والبزار في مسنده (٥/ ٢٨١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) هذه الرواية أخرجها البخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢١٤) (٢٥٣٥)، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح).
وأخرجه أحمد (١٩/ ٢٤١)، وابن ماجه (٣٩٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أبو داود (٤٥٩٧) من حديث معاوية بن ابي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢) عن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإنه يكون من الفرقة الناجية، ويلحق بالصالحين وبسلف هذه الأمة يوم القيامة، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابُ اللهِ وَسُنَّتِي»(١).

فلا شك أن الاختلاف واقع، والتفرق حاصل، ولكن -ولله الحمد- الطريق واضح لمن أراد الطريق وأراد النجاة، مهما تعددت الفرق والأهواء، فإن الطريق والحق واضح -ولله الحمد- بالكتاب والسنة ومذهب سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]، وهذا في أي زمان وفي أي مكان، من تمسك بالكتاب والسنة فأطاع الله وأطاع الرسول، فهو ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء:٦٩، ٧٠]، وهذا الدعاء الذي ندعو به في كل ركعة من صلاتنا -فريضة كانت أو نافلة-، حينما نقرأ قوله تعالى:

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٥/ ٤٤٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦، ٧].

فنحن في هذا نسأل الله كما علمنا وأوجب علينا، نسأله أن يهدينا صراطه المستقيم؛ لأن هناك طرقًا كثيرة، ومذاهب مختلفة، ونحلًا متعددة، ولكن مع هذه الفرق وهذه المذاهب وهذه النحل، فصراط الله المستقيم لا نحيد عنه يمنة ولا يسرة، نسأل الله أن يهدينا إياه في كل ركعة من صلاتنا، ونقول في ختام ذلك: (آمين)، هذا سرٌّ عجيب، ودعاء عظيم، وله مغزى إذا تأملناه.

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]: وصفه بوصفين عظيمين:

الوصف الأول: أنه مستقيم، والمستقيم هو الذي لا عوج فيه، ولا لبس فيه.

والوصف الثاني: أنه صراط الذين أنعم عليهم، هذا الصراط هو صراط المنعم عليهم بالهداية والتوفيق، وهم الذين بينهم الله في آية النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩].

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: المراد بهم: كل من عَلَم علمًا ولم يعمل به، كل من عَلَم علمًا شرعيًّا صحيحًا ولم يعمل به، فهو مغضوب عليه.

وفي مقدمة هؤلاء: اليهود؛ فإن الله جَلَّوَعَلَا علمهم الحق وبينه لهم على أيدي رسلهم، وعلموا ذلك، وفهموه، ولكنهم لم يعملوا به، فغضب الله عليهم.

وهذا يتناول كل من اتصف بهذا الوصف؛ بأن عَلَم علمًا شرعيًّا من عند الله جاء به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولم يعمل به، وخالفه إلى غيره وإلى ضده،

واتبع النحل الباطلة والمذاهب الفاسدة، وترك كتاب الله وسنة رسوله، وهو يعلم ذلك، فهذا مغضوب عليه، غضب الله عليه.

و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: هم الذين يعبدون الله على جهل وضلال لا على علم، ولا على بصيرة، وإنما يتعبدون بأهوائهم، ويقتدون بمن لا يصلح للقدوة من عُبادهم وضلالهم، ولا يتعلمون الشرع، وإنما يكتفون بما عليه أسلافهم من الضالين، يقلدون بغير حجة، ويعملون بغير دليل، ولا يبحثون عن الخطأ والصواب، وإنما يسيرون على حسب ما وجدوا عليه آباءهم، ولا يميزون هل هذا الذي عليه آباؤهم حق أو غير حق؛ إن كان حقًا، فالحمد لله بها ونعمت، الاقتداء بالصالحين والاقتداء بأهل الحق فضيلة، ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف:٣٨].

الاقتداء بالغير إذا كان الغير على حق وعلى بصيرة هذا محمود، وهذه طريقة الأنبياء وأتباعهم؛ كما ذكر الله تعالى عنه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ [يوسف:٣٨]، وأثنى عليه بذلك أنه اتبع الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والله جَلَّ وَعَلَا يقول لنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

اتباع أهل الحق وأهل البصيرة هذا نور وبرهان، لكن باتباع أهل الباطل وأهل الأهواء وأهل الضلال هذا ضلال، ونحن نسأل الله أن يعفينا منه في كل ركعة، فكيف لا نتأمل هذا، نقرأ شيئًا، ولا نعرف معناه؟!

نحن في كل ركعة نذكر ثلاث طوائف، نسأل الله أن يجعلنا مع طريق طائفة، وأن يجنبنا طريق طائفتين، ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم أهل العلم والعمل، أهل العلم النافع والعمل الصالح.

الطائفة الثانية: أهل العلم، ولكنهم ليسوا أهل عمل، علم بلا عمل، وهؤلاء مغضوب عليهم، نسأل الله أن يجنبنا طريقتهم.

والطائفة الثالثة: أهل عمل بلا علم، وهؤلاء هم الضُّلال الذين اتخذوا البدع والخرافات والمحدثات في دين الله اتخذوها دينًا، يأخذه اللاحق عن السابق دون تفكير ودون تمييز، هؤلاء ضلوا -والعياذ بالله!

السلف الصالح إذًا هم صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان، وهم القرون المفضلة التي أثنى عليها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»(١).

الله جَلَّ وَعَلَا يقول في كتابه: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، هؤلاء هم المهاجرون من صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ذكر الأنصار في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، ثم

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٥).

ذكر التابعين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، وهذا يشمل كل من جاء بعد المهاجرين والأنصار واقتفى أثرهم، ودعا الله بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾.

فالسلف الصالح إذًا هم الذين أوصانا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاقتداء بهم في قوله لما سُئِل عن الفرقة الناجية من بين الثلاث والسبعين فرقة، لما سئل عن ذلك، قال: «مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»(١)، والذي كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بين أيدينا الآن محفوظ بالكتاب والسنة، هذا الذي كان عليه الصحابة، كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه هو ما في القرآن وما في صحيح السنة.

ومن أراد النجاة، وأراد الحق، فليتمسك بالكتاب والسنة؛ لأنهما كانا عليهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ومن أراد الهلاك وأراد الخسار، فليذهب مع الفرق الثانية التي ضلت عن الكتاب والسنة، وقلدت في دين الله، وابتكرت البدع والمحدثات والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، وتركوا السنن، وأقاموا البدع، بئس ما اختاروا لأنفسهم!

يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا،

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥٤).

وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَنَقْلِ دِينِهِ، فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلاقِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ، فَهُمْ كَانُوا عَلَى الْهَدْيِ الْمُسْتَقِيمِ»(١)، وقال: «أَلَا لَا يُقَلِّدَنَّ رَجُلٌ رَجُلًا دِينَهُ، فَإِنْ آمَنَ آمَنَ، وَإِنْ كَفَرَ كَفَرَ، فَإِنْ كَانَ مُقَلِّدًا -لَا مَحَالَةَ- فَلْيُقَلِّدِ الْمَيِّتَ، وَيَتْرُكَ الْحَيَّ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ»(٢)، هؤلاء هم السلف الصالح، والذي كانوا عليه هو الحق بلاريب، وهم الأعلم والأحكم والأسلم، مذهبهم هو الأعلم والأحكم والأسلم؛ لأنه مذهب ينبع من كتاب الله ومن سنن رسوله ﷺ.

أما من خالفهم، فهذا هو الضال، وهذا هو المبتدع وهذا هو الخاسر شاء أم أبى، ولو مدح ما هو عليه وروج ما هو عليه واستحسنه، لكن ما دام أنه مخالف لهدي السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ وأتباعهم، فهو مذهب مردود، قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»(٣)، وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(٤).

وهذا يشمل كل بدعة، ولو سُمِّيت ما سُمِّيت، ما دام أنها ليس لها أصل في كتاب الله ولا في سنة رسوله، فهي بدعة مردودة، وصاحبها مهما دعا إليها فهو يدعو إلى ضلالة؛ لأن النبي ﷺ يقول: «وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٥).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢١٤).
(٢) أخرجه أبو داود في الزهد (١/ ١٤٠)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٦)، والبيهقي في السنن الكبرى -واللفظ له- (١٠/ ١٩٨).
(٣) سبق تخريجه (ص٢٥).
(٤) سبق تخريجه (ص١٠٥).
(٥) سبق تخريجه (ص٢٥).

فما خالف هدي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو بدعة، وهو ضلالة، وهو خسارة، وهو عذاب وشقاء، وهو داخل في قوله: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلَّا وَاحِدَةً، ... مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»[(١)].

فالواجب أن نعرض كل ما عليه الناس، نعرضه على كتاب الله، وعلى سنة رسول الله، وعلى ما كان عليه صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما وافق ذلك، أخذنا به، وما خالف ذلك، تركناه غير آسفين عليه.

فمذهب السلف الصالح هو التمسك بالكتاب والسنة، هذا مذهب السلف الصالح من غير تكلف ومن غير تنطع، ومن غير تعنت؛ لأن الحق واضح -ولله الحمد-، كتاب الله واضح، وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضحة لمن تعلمها وحرص عليها، وأراد الاتباع، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء:١٧٤، ١٧٥]، ويقول جَلَّ وَعَلَا في سنة نبيه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧].

فمذهب السلف الصالح هو هذا، هو الأخذ بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ علمًا وعملًا، والأخذ بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علمًا وعملًا، والدعوة إلى ذلك،

(١) سبق تخريجه (ص٢٥٤).

دعوة الناس إلى ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وملازمة الطاعة والابتعاد عن المعصية، والابتعاد عن محدثات الأمور التي حذر منها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدِثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[١].

فمذهب السلف الصالح هو الحق في العلم والعمل؛ في العلم: لأنهم يأخذون من كتاب الله ومن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يرضون بذلك بديلًا -لا من أقوال الرجال، ولا من قول أحد كائنًا من كان- إلا ما وافق الدليل، إذا وافق الدليل، فهو حق.

فالسلف الصالح كانوا على الحق بلا شك، كانوا على الحق في الاعتقاد، وكانوا على الحق في العمل، وكانوا على الحق في الأخلاق والسلوك، كانوا على الحق، عقيدتهم عقيدة التوحيد الخالص، يؤمنون بالله عَزَّ وَجَلَّ، ويؤمنون بملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سأله عن الإيمان، قال: «**الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتؤمن بالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[٢]، هذه أركان الإيمان التي كان عليها سلف هذه الأمة بعد نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يؤمنون بالله؛ فالإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ هو اعتقاد ربوبيته، والقيام بعبوديته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإثبات أسمائه وصفاته على ما جاء به الكتاب والسنة، هذه عقيدة السلف الصلح؛ يؤمنون بأن الله ربهم وخالقهم، ورازقهم ومدبر أمورهم، ويعبدونه وحده

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).
(٢) سبق تخريجه (ص١٧).

لا شريك له بجميع أنواع العبادة، يفردون ربهم عَزَّوَجَلَّ بجميع أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦].

فلا يكفي أن الإنسان يقر لله بالربوبية، وأنه الخالق الرازق المحيي المميت، ويكتفي بهذا؛ لأن هذا أقر به المشركون، ولكن لابد أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، ويخلص له العبادة؛ فلا يعبد غيره، وهذا شيءٌ جاء به القرآن، ونبه عليه في غالب سوره، قلَّ أن تخلو سورة من ذكر التوحيد والعبادة والعقيدة، خصوصًا السور المكية، بل إن أول نداء جاء في القرآن، أول نداء جاء في المصحف الشريف قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢]، هذا أول نداء جاء في المصحف الشريف، وهو أمر الناس كلهم بعبادة الله وحده لا شريك له؛ لأنه خالقهم ورازقهم ومدبر شئونهم لا إله إلا هو.

فلو أن إنسانًا أقر لله بأنه الخالق الرازق المحيي المميت، ولكنه لم يفرده بالعبادة، بل كان يعبد معه غيره، فهذا مشرك كافر، لا ينفعه إقراره بتوحيد الربوبية؛ لأن المشركين كانوا على هذا المذهب؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١]،

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، ﴿قُل مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٦، ٨٧]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن أبا جهل وأبا لهب وصناديد المشركين كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، ولكنهم لم يقروا بتوحيد الألوهية، ولذلك صاروا كفارًا، وصاروا مشركين؛ لأنهم لما قال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[(١)]، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص:٥-٨][(٢)]، هكذا يقولون، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٨-١٠].

فالحاصل: أن الإقرار بتوحيد الربوبية الذي تعب فيه كثير من النظار وعلماء الكلام، واعتبروه هو التوحيد، ليس هو التوحيد؛ التوحيد: هو إفراد الله بالعبادة، إفراد الله بالعبادة جَلَّ وَعَلَا، ولكن توحيد الربوبية دليل وملزم للإقرار بتوحيد العبودية؛ توحيد الإلهية.

فالذي يقف مع توحيد الربوبية هذا لا يكون مسلمًا، ولو كان مسلمًا، لكان أبو جهل وأبو لهب وآباؤهما مسلمين على هذا المذهب، ولكن التوحيد هو إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة.

---

(١) سبق تخريجه (ص٩٤).
(٢) سبق تخريجه (ص٧٢).

ويدخل في توحيد الربوبية الإقرار بأسماء الله وصفاته، التي وصف وسمى بها نفسه جَلَّوَعَلَا، ووصفه بها وسماه بها رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سنته.

فالسلف الصالح يؤمنون بذلك، ويثبتونه، ويعلمون معناه على مقتضى اللغة العربية التي نزل بها القرآن، يعرفون معناه، ولكن كيفيته لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ؛ فكما أن لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فكذلك له صفات لا تشبه الصفات، والله جَلَّوَعَلَا لا يعلم كيفية ذاته وكيفية صفاته إلا هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠]، فهو أعلم بنفسه، وأعلم بغيره، وأصدق حديثًا من خلقه جَلَّوَعَلَا.

فنحن نؤمن كما آمن السلف الصالح بأسماء الله وبصفاته على ما جاء به الكتاب والسنة، نؤمن بلفظها ومعناها، نثبت ذلك لله عَزَّوَجَلَّ كما أثبته رسوله، وأثبته السلف الصالح؛ الإيمان بكل ما وصف الله وسمى به نفسه، أو وصفه به وسماه به رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وليس بعد الله جَلَّوَعَلَا أعلم بأسماء الله وصفاته من رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ولهذا يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

فنزه نفسه عما يصفه به المخالفون للرسل، ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات:١٨٠]، يعني: المخالفين للرسل.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات:١٨١]: سَلم على المرسلين بسلامة ما قالوه من العيب والنقص، ثم حمد نفسه جَلَّوَعَلَا، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سبأ:١]، هذا يدخل في توحيد الألوهية.

فالذي يجحد الأسماء والصفات، أو يؤولها على غير ما دلت عليه، أو ينفي معناها، ويقول: لا يعلم معناها إلا الله، ليس لها معنى ظاهر. هذا جاحد لنوع من أنواع التوحيد، ومخالف لما عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما عليه السلف الصالح.

فالسلف الصالح كانوا في العقيدة على التوحيد الخالص؛ يعبدون الله عَزَّ وَجَلَّ وحده لا شريك له، يفردونه بالعبادة كما أمرهم الله بذلك، لايعبدون إلا الله، ولا يدعون إلا الله، ولا يلجؤون إلا إلى الله، ولا يخافون إلا الله، ولا يرجون إلا الله، في كل شؤونهم وفي كل أمورهم يعتمدون على الله وحده لا شريك له، أما من حاد عن سبيلهم، وضل عن طريقهم، فإنه يذهب مع الفرق الضالة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا** ﴾ [النساء:١١٥].

إذا كنت تريد النجاة، فعليك بنهج السلف الصالح الذين هم خير القرون وأفضل القرون، والذين هم تلاميذ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتلاميذ تلاميذ الرسول، أقرب الناس إلى رسول الله، أعرف الناس بما أنزل الله؛ لأنهم تلقوا العلم عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تلقوه عمن تلقاه عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكلما طال الزمان، وكلما بَعد الناس، اشتدت الغربة، وكثر الجهل، ولهذا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»(١). «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: **الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ**»(٢)،

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٣٠) من حديث كَثِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ.

وفي رواية: «الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»[(١)].

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكر الافتراق والاختلاف -كما سمعتم الحديث- قال: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»[(٢)]، فحثنا عند ظهور الاختلاف وظهور الفرق الكثيرة حثنا أن نتمسك بما كان عليه السلف الصالح.

ولما ذكر افتراق الأمم الثلاث -اليهود والنصارى والمسلمين-، لما ذكر افتراقهم، قال: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي**»، هذا خبر منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولابد أن يقع، وقد وقع كما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ «**وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلَّا وَاحِدَةً**، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: **مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»[(٣)].

والذي كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حينذاك هو الكتاب والسنة، والكتاب والسنة موجودان -والحمد لله- بين أيدينا، ولكن نحن الذين قصرنا، ونحن الذين تكاسلنا، ونحن الذين آثرنا الأمور الأخرى.

فإذا وقعنا فيما وقعنا فيه من تخلف، فإن ذلك بتقصيرنا، وإلا فالحق واضح -والحمد لله.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧/ ٢٣٧) من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَنَّةَ.
(٢) سبق تخريجه (ص٢٥).
(٣) سبق تخريجه (ص٢٥٤).

وهذه الفرقة التي أخبر بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه لا تزال -ولله الحمد-؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ»**(١).

ولكن هذه الفرق الناجية الثابتة على الحق قد يقلون، وقد يكثرون في بعض الأزمان وبعض الأمكنة، يقلون ويكثرون، ويقوون ويضعفون، ولكنهم -ولله الحمد- لا يزالون موجودين، وعلامتهم واضحة في أنهم يتمسكون بكتاب الله وبسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو عابهم الناس، ولو ذمهم الناس، ولو جهلهم الناس، ولو قالوا ما قالوا، ما داموا أنهم على الحق، فهذا **«لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ»**، نسأل الله أن يجعلنا منهم، وإياكم والمسلمين!

فالسلف الصالح كانوا في عقيدتهم على الحق في عبادة الله وحده لا شريك له، وفي اعتقادهم بالله عَزَّوَجَلَّ، اعتقاد الحق المطابق لما جاء في الكتاب والسنة، كانوا على الحق، وكانوا في عملهم على الحق، كانوا في عملهم على الحق -أيضًا-، كانوا لا يعملون عملًا إلا إذا كان على دليل من كتاب الله ومن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا يرفضون البدع، وكانوا يرفضون المخالفات، ولو استحسنها الناس، ولو صار عليها الكثير من الناس، ما دام أنها بدع مخالفة، فهي مردودة على أهلها، وأما أهل الحق، فإنهم لا يبغون غير الحق، لا يبغون به بديلًا، ولكن هذا يحتاج إلى صبر -يا عباد الله-، فقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه **«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ»**(٢)؛ من شدة

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٦٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما يلقى من المشقة والغربة وأذى الناس، ولكن إذا صبر واحتسب، فإنه يلحق بسلف هذه الأمة، ويكون معهم يوم القيامة؛ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]، فهو معهم في الدنيا وفي الآخرة، معهم في الدنيا بالمحبة والعمل، ومعهم في الآخرة في الجنة، والمرء مع من أحب(١).

أما من حاد عن سبيلهم، وسلك غير صراطهم، فإنه يكون مع من تولى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

فالسلف الصالح كانوا يعبدون الله، ويعملون على وفق الكتاب والسنة، كانوا لا يحدثون شيئًا في الدين، إلا إذا علموا أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعله أو أمر به أو أقره؛ لأن العبادات توقيفية، ومعنى هذا أنه لا يجوز العمل، أو أن تعبد الله جَلَّ وَعَلَا بشيء إلا إذا كان على وفق الكتاب والسنة، ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران:٣١]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

فالعبادات لا تكون عبادات صحيحة مقبولة إلا إذا كانت خالصة لله عَزَّوَجَلَّ، وكانت صوابًا على سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢]، ﴿أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾، يعني: أخلص لله في العمل؛ فلم

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦١٦٨، ٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠)، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

يشرك بالله شيئًا. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يعبد الله بالبدع والخرافات والمحدثات التي أحدثها من أحدثها من الجهال والضلال ليصدوا بها الناس عن الحق، أو ظنوها أنها تقربهم إلى الله، ولكنها تبعدهم من الله؛ لأنها ليست على هدي كتاب الله، ولا على هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد صور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصراط المستقيم، وصور الطرق الضالة حوله؛ بأن خط خطًا مستقيمًا، وخط حوله خطوطًا معوجة، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للخط المستقيم: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، وقال لتلك الخطوط المعوجة عن يمينه وشماله، قال: «هَذِهِ سُبُلٌ»؛ طرق غير سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ وغير صراط الله، «عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»[1]، فالشيطان يدعو إلى تلك الطرق، والله جَلَّ وَعَلَا ورسوله يدعو إلى الصراط المستقيم، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]، فالله يدعو إلى الصراط المستقيم، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو إلى الصراط المستقيم، والمسلمون من اتباع الرسول في كل زمان ومكان يدعون إلى الصراط المستقيم.

وأما شياطين الإنس والجن، فهم يدعون إلى الطرق المعوجة الضالة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٠٩)، وأحمد (٧/ ٢٠٨)، والدارمي (٢٠٢)، وأبو يعلى (٩/ ١٥٨)، والمروزي في السنة (ص٩)، والطيالسي (١/ ١٩٧)، والبزار (٥/ ٩٩، ١١٣، ١٣١، ٢٥١)، وابن حبان في صحيحه (١/ ١٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٦٣)، والحاكم (٢/ ٢٦١)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه). من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يهديني وإياكم إلى الصراط المستقيم، وأن يثبتنا عليه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يجنبنا ما يضرنا إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

مَن حقق التوحيد دخل الجنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٦، ٢٥٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، كلها تدل على أن التوحيد هو أول واجب على العبد، وعلى أن التوحيد هو الذي خلق الخلق من أجله، وعلى أن التوحيد

هو حق الله على عباده؛ كما في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟** قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.** قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: **لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»(١).

فحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وهو يسبق كل الحقوق كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣٦]، ذكر الله في هذه الآية الكريمة عشرة حقوق، وذكر أولها وفي مقدمتها حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي آية أخرى يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

ثم ذكر في الآيات التي بعدها بقية الحقوق الواجبة على العبد، دل هذا بمجموعه على أن حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مقدم على كل الحقوق، وهو توحيده وإخلاص العبادة له وترك عبادة ما سواه، والبراءة من ذلك ومن أهله، وبذلك أرسل الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه كما في الآية التي سمعنا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فكل رسول أول ما يدعو قومه إلى إخلاص العبادة لله قبل أي شيء من الأوامر

(١) سبق تخريجه (ص٧).

والنواهي؛ كما قص الله ذلك عن أنبيائه في كتابه الكريم؛ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣].

والآيات في هذا كثيرة ومعلومة، إذا تدبرها المسلم، وجد أن هذا الأمر واضح فيها، وأن التوحيد أهم شيء، وأنه الأساس الذي تبنى عليه بقية أحكام الدين، وهو الأصل المصحح لبقية العبادات، فكل عمل لا يكون مؤسسًا على عقيدة صحيحة، فإنه يكون عملًا باطلًا، مهما كلف الإنسان نفسه فيه وأتعب نفسه فيه، إذا لم يكن خالصًا لله ومبنيًّا على التوحيد الخالص، فإنه يكون هباءً منثورًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور:٣٩]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:٢-٤]، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥]، وختم السورة بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]. وفي الحديث يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ

الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)، وفي رواية: «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»(٢).

والأدلة على هذا كثيرة جدًّا تدل على أن أي عمل لا يكون خالصًا لوجه الله من شوائب الشرك، ولا يكون -أيضًا- على سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه يكون مردودًا على صاحبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١١، ١١٢]، فبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه لن يدخل الجنة إلا من بنى عمله على أساسين أصيلين:

الأول: إسلام الوجه لله عَزَّ وَجَلَّ، بمعنى أن يكون عمله خالصًا لوجه الله، ليس فيه شيء من الشرك.

والأساس الثاني: أن يكون عمله صوابًا على سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يعني: وهو متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذان الشرطان هما شرطا قبول العمل ونفعه لصاحبه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، دون تقيد بلون أو جنس، سواء كان هذا العامل عربيًّا أو أعجميًّا، أو كان هذا العامل يهوديًّا أو نصرانيًّا، أو كان هذا العامل أيما كان من الخلق، فإن عمله لا يكون مقبولًا إلا إذا توفر فيه هذان الشرطان، ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ

(١) سبق تخريجه (ص٢١).
(٢) سبق تخريجه (ص٢١).

مُحۡسِنٞ﴾ [البقرة:١١٢]، فليس بدعوة اليهود ولا النصارى، وإنما الأمر هو بالإخلاص والمتابعة للرسل عَلَيۡهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء:١٢٣، ١٢٤]، هذا هو الأساس، وهو الأصل، وهو القاعدة التي ترتكز عليها حقيقة الدين وأساس الملة.

إذًا: فالتوحيد هو أساس الأعمال، وهو القاعدة الأولى التي تبنى عليها بقية أحكام الدين، ولهذا كانت الرسل أول ما تدعو قومها إلى تصحيح العقيدة، ثم بعد ذلك تطالبهم ببقية أوامر الدين، أما قبل أن تصح العقيدة وقبل أن تخلص العقيدة من الشرك، فإنه لا فائدة من الأعمال.

ولهذا مكث نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى التوحيد، يدعوهم إلى أن يقولوا: «لا إله إلا الله»، إلى أن يوحدوا الله، إلى أن يفردوا الله بالعبادة، ويتركوا عبادة الأصنام، ولم يأمرهم في هذه الفترة لا بصلاة ولا بصيام ولا بحج ولا غير ذلك حتى استقرت العقيدة، وحتى أخلصوا دينهم لله، وعند ذلك نزلت بقية أوامر الدين على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعد الهجرة؛ مما يدلنا على أن التوحيد والعقيدة الصحيحة هي الأساس، وأن المهم ليس كثرة الأعمال، وإنما المهم نوعية الأعمال، النوعية هل هي أعمال خالصة، فتكون صحيحة، وتكون مفيدة للعامل، أو هي أعمال غير خالصة، فيها دخيل من الشرك والمقاصد لغير الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فتكون هذه الأعمال مردودة على أصحابها،

أو تكون هذه الأعمال بدعية وخرافية ليست على طريقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليست على سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتكون -أيضًا- مردودة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»**(١)، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ»**(٢).

فالمهم في العمل أن يتوفر فيه هذا الشرطان: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والتوحيد إذا تحقق، وإذا وجد التوحيد الصحيح، فإن هذا يترتب عليه ثمرات وخيرات في الدنيا والآخرة:

أولًا: في الدنيا الموحد يكون مطمئنًا، ويكون على بينة من دينه، لاتتنازعه الشركيات والأوهام والخرافات، وإنما يكون مرتكزًا على أساس صحيح، يكون مطمئن القلب، يكون قرير العين، الموحد يكون قرير العين مطمئن القلب في هذه الدنيا؛ لأنه يبني على أساس صحيح، ولأن نور التوحيد في قلبه يبعث له الطمأنينة، ويبعث له الاغتباط برحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

أما المشرك فإنه يكون قلقًا في هذه الحياة الدنيا، وتتجاذبه -والعياذ بالله- الأهواء والنزعات والنزغات؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).
(٢) سبق تخريجه (ص٢٥).

بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الحج:٣٠، ٣١]؛ سقط من السماء من أعلى شيء؛ لأن التوحيد علو وسمو، والشرك هبوط ونزول إلى الحضيض.

التوحيد علو وارتفاع؛ لأنه تعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تسمو به النفوس، تسمو به الأعمال وترتفع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقبولة مضاعفة، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠].

فالموحد قلبه معلق بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو مرتفع، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨]، هو مرتفع، رفيع القدر، رفيع الشرف، متعلق بالله عَزَّوَجَلَّ، أما المشرك فإنه هابط سافل، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الحج:٣١]، هذا أول بلاء يصيب المشرك الهبوط، الهبوط إلى الحضيض الأسفل، وما ظنكم بمن يسقط من السماء، ماذا تكون حاله؟ الإنسان لو سقط من مرتفع قريب لتأثر أو مات، فكيف إذا سقط من السماء؟ ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، ومع سقوطه من هذا الارتفاع الشاهق هناك ما يكدر عليه ويقلقه، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، شبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشياطين التي تمزقه بالأهواء والنزعات والنزغات بالطير التي تعترض للساقط من السماء، فتمزقه بمخالبها، وشبه الهوى، الهوى الذي ينزع بالإنسان عن الحق إلى الباطل، شبهه بالريح، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، فهذا اجتمع عليه ثلاث آفات -والعياذ بالله-:

أولًا: أنه سقط؛ والسقوط بلاء وخطر، سقط من شاهق.

والثاني: أنه في سقوطه يعترضه أمران: الشيطان والهوى؛ الشيطان يمزقه ويقطعه إربًا إربًا، والهوى يبعده عن الحق؛ لأن الإنسان إذا اتبع هواه، بعد به عن الحق، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد.

فهو معرض للأخطار، هذا كله بسبب أنه أفلت يده من العروة الوثقى، أفلت يده من التوحيد، فأصابته هذه الآفات، وتعرض لهذه الأخطار التي لانجاة له منها إلا بالتوحيد، بالرجوع إلى التوحيد والصعود إلى علو التوحيد.

الآية الثانية قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، كون الإنسان له عدة معبودات متفرقة متشتتة هل هي خير أم الله الواحد القهار؟ أن يكون له معبود واحد هو الإله الحق الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، بيده الأرزاق والآجال، والحياة والموت، والجنة والنار، بيده كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أذلك خير أم هذه الأصنام؟ وإن كانت الموازنة هنا ليست على بابها، فإن الله هو الحق، وما سواه هو الباطل، لكن هذا لتقرير البرهان وإقامة الدليل على صحة الإيمان بالله وبطلان عبادة ما سواه، على صحة التوحيد وبطلان الشرك؛ ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٩، ٤٠].

وفي الآية الثالثة يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩]، هذا برهان واضح، ضرب الله لنا مثلًا في أنفسنا، لو أن إنسانًا مملوكًا رقيقًا، وهذا الرقيق له عدة أسياد، يملكه جماعة من الناس، كل له هوى، وكل له رغبة تخالف رغبة الآخر وهوى الآخر.

فهذا المملوك يبقى متحيرًا، لا يدري من يرضي منهم، إن أرضى هذا، غضب عليه هذا، وإن أرضى هذا، غضب عليه هذا، ثم هو لا يدري ما الذي يرضي هذا والذي يرضي الآخر، فهو في قلق من هؤلاء السادة، لا يدري من يرضي منهم، وإذا ذهب في طاعة واحد، أغضب الآخر، فيبقى قلقًا؛ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ واحد، سيده واحد، لا يملكه إلا واحد، يعرف ما الذي يرضيه، ويعرف ما يريد، فهو في راحة معه وفي طمأنينة؛ لأن ليس له إلا مالك واحد، وهو يعرف الذي يرضيه، وهو معه في وئام ووفاق.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ يعني: لا يملكه إلا سيد واحد، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، هل يستوي العبد الذي يملكه عدة سادة والعبد الذي لا يملكه إلا سيد واحد؟ هذا في حال الناس، فكيف مع الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الذي هو أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، والذي بيَّن للناس ما يرضاه وما يكرهه، وأوضح للناس طريق الحق من طريق الباطل؟ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

فالتوحيد في الحياة الدنيا له آثار على الموحدين ظاهرة؛ الطمأنينة، وراحة النفس، وارتفاع القيمة، وأهل التوحيد -والحمد لله- في عزة وفي رفعة، أما أهل الشرك، فهم في قلق وأوهام، وفي وساوس، وفي هموم تتجاذبهم؛ لأنهم لما تركوا ما خلقوا من أجله، سلط الله عليهم الأهواء والشياطين، فهم دائمًا في قلق؛ كما قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٤٦٦).

هَـرَبُـوا مِـنَ الـرِّقِّ الَّـذِي خُلِقُوا لَهُ فَـبُـلُـوا بِـرِقِّ الـنَّـفْـسِ وَالـشَّـيْـطَـانِ

فمن لم يعبد الله، فإنه يبتلى بعبادة الهوى، وعبادة الدنيا، وعبادة الشياطين، وعبادة الأصنام والأوثان، فهو عبد ولابد، فإما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا لغيره.

هَـرَبُـوا مِـنَ الـرِّقِّ الَّـذِي خُلِقُوا لَهُ فَـبُـلُـوا بِـرِقِّ الـنَّـفْـسِ وَالـشَّـيْـطَـانِ

فهذا من ثمرات التوحيد في الدنيا، ومن ثمرات التوحيد في الدنيا أنه يعصم الدم والمال، فيصبح المسلم محرمًا؛ محرمًا دمه، ومحرمًا ماله، ومحترمًا، من اعتدى عليه، فإنه يردع في القصاص العادل والجزاء الصارم؛ لأنه اعتدى على محترم ومحفوظ بحفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرَّمَ اللهُ مَالَهُ وَدَمَهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»[(١)].

«**حَرَّمَ اللهُ مَالَهُ وَدَمَهُ**»، فيصبح دمه معصومًا، ويصبح ماله معصومًا، ويصبح عرضه معصومًا؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»[(٢)].

هذه ثمرات التوحيد في الدنيا، أو بعض ثمرات التوحيد، وهي كثيرة لا يمكن حصرها، ولكن هذا ما يحضرنا منها حسب النصوص.

أما في الآخرة، فالتوحيد -نسأل الله من فضله- يورث دخول الجنة؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦٧٢٤)، ومسلم (٣٢) (٢٥٦٤)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: أخلصوا العبادة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾ يعني: لم يخلطوا، ﴿إِيمَٰنَهُم﴾ يعني: توحيدهم، ﴿بِظُلْمٍ﴾ يعني: بشرك، الظلم المراد به هنا الشرك؛ لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فسره بذلك، لما سئل عن معنى هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، أشكلت على الصحابة، وقالوا: أينا يا رسول الله لم يظلم نفسه؟ فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيّن لهم أن هذا الظلم المراد به الشرك، وتلا عليهم قوله تعالى حكاية عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣](١).

فالذين لا يخلطون إيمانهم بشرك، يصححون عقيدتهم، ويموتون على التوحيد، يكون لهم الأمن يوم القيامة، الأمن المطلق، الأمن الكامل بحيث لا يخافون في الدار الآخرة؛ لا من موت، ولا من آلام، ولا من أسقام، ولا يخافون من زوال النعمة التي هم فيها، لا يخافون من عدو، لا يخافون من أي مكدر أو منغص؛ لأن الجنة دار الأمان، ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧].

والجنة دار السلام؛ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الدخان:٥١-٥٣]، فالجنة دار الأمن،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢،٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨)، ومسلم (١٢٤)، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ «قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]».

وهي دار الموحدين، لا يدخل الجنة إلا موحد، أما المشرك، فإنه لا يدخل الجنة أبدًا؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

فالجنة دار الموحدين خاصة، الذين أخلصوا لله عَزَّوَجَلَّ من الشرك، أخلصوا أعمالهم لله، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، أما من مات على الشرك، فإنه يكون من أهل النار قطعًا، وتحرم عليه الجنة أبد الآباد بنص هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

فمن فوائد التوحيد في الدار الآخرة أن الله يكفر به الخطايا التي هي دون الشرك؛ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فالشرك لا يمكن أن يغفر، إذا مات الإنسان عليه، فإنه لا مطمع له في المغفرة، أما الموحد، فإنه إذا مات على التوحيد، وإن كان عنده شيء من المعاصي، فإنه بوعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الله يكفر عنه الخطايا إذا شاء، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ إن شاء الله غفر له بفضل التوحيد، وأدخله الجنة بدون عذاب، وإن شاء عذبه في النار بقدر معصيته، ثم يخرجه من النار بتوحيده، يخرجه من النار بعد ذلك بتوحيده، ويدخله الجنة.

فالموحد مآله إلى الجنة؛ إما ابتداءً، وإما بعد أن يعذب بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلى كل فالموحد على خير، فهو آمن إما من دخول النار، وإما آمن من الخلود في النار لو دخلها، هذا فضل التوحيد.

وأما المشرك، فإنه لا طمع له في النجاة من النار، إذا دخلها لا يمكن أن يخرج منها، ولابد له من دخولها؛ لأن النار دار المشركين؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما ذكر قصة إبليس مع آدم، قال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٣٦-٤٤].

واجب المسلمين نحو دينهم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

المؤمنون يحب بعضهم بعضًا، ويوالي بعضهم بعضًا، ويناصر بعضهم بعضًا؛ لأنهم على طريق واحد، ليس فيه تقسيمات واختلافات، طريق واحد وجماعة واحدة وأمة واحدة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

أما أصحاب السبل الأخرى، فكل أصحاب سبيل يرون أن أصحاب السبل الأخرى باطلة، وأن سبيلهم هو الحق، والواقع أن كلها باطلة ليس فيها حق، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فمن سلك هذا الصراط المستقيم، وصل إلى الجنة بإذن الله؛ لأنه طريق مضمون ومأمون الخطر، ويفضي إلى رضوان الله عَزَّوَجَلَّ.

أما من انحرف إلى السبل الأخرى، وأصغى إلى دعاة الضلال، وخرج عن هذا الطريق المستقيم، فإنه يؤول به إلى الهلاك ولابد، إلا إذا تاب ورجع إلى الطريق المستقيم، أما إن استمر مع الطرق المنحرفة، فإنها تؤدي به إلى النار.

ولهذا شرع الله لنا وأوجب علينا في كل صلاة؛ بل في كل ركعة من صلاة النافلة أو الفريضة أن نسأل الله أن يهدينا هذا الصراط المستقيم، وأن يجنبنا السبل المنحرفة، قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، هذا هو الذي قال الله فيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

ونحن نسأل الله أن يهدينا هذا الصراط المستقيم، وهذا الصراط من الذي يسير عليه؟ يسير عليه الذين أنعم الله عليهم، ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٧]، وصفه بوصفين: وصفه أولًا بأنه مستقيم، ووصف أهله بأنهم منعم عليهم، والذين أنعم الله عليهم من هم؟ كما بينهم الله في الآية الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩]، هذه أقسام المؤمنين، المؤمنون إما أنبياء، وإما صديقون، رتبهم الله ترتيبًا حسب الأولوية، فلا شك أن أفضل الخليقة هم الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهم أفضل الخلق على الإطلاق، يليهم في الفضيلة الصديقون، ثم من بعدهم الشهداء، ثم من بعدهم الصالحون من سائر المؤمنين، كل بحسب صلاحه.

فالمؤمنون لا يخرجون عن هذه الأقسام: أنبياء، وصديقون، وشهداء، وصالحون، وكلهم طريقهم واحد، هو الصراط المستقيم.

فأنت تسأل الله أن يجعلك معهم في كل ركعة من صلاتك، وتسأل الله أن يجنبك الطرق الأخرى؛ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧].

الذين تركوا الصراط المستقيم هم إما مغضوب عليهم وإما ضالون، فالمغضوب عليهم هم الذين عرفوا الحق، ولكنهم لم يعملوا به، فهم تركوا الحق

عن عناد وكفر به، فمن طبيعة هؤلاء اليهود -عليهم لعنة الله-، فإنهم عرفوا الحق، ولكنهم تركوه عنادًا واتباعا لأهوائهم لا عن جهل.

والفريق الثاني ممن انحرف عن الصراط المستقيم: من اعتمد على الجهل، فهو يتعبد بدون علم، يعمل بما وجد عليه آباؤه وأجداده، أو وجد عليه فلانًا أو فلانًا بدون أن يعرف هل هو على الحق أو على الباطل، يعبدون الله على جهل وضلال، وفي طليعة هؤلاء النصارى، النصارى يغلب عليهم الجهل والضلال، اليهود يغلب عليهم الكفر والعناد، وإن كانوا يعلمون الحق؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٦، ١٤٧].

فأنت أيها المسلم تسأل الله أن يسلك بك هذا الصراط الذي عليه خيرة خلقه سبحانه، وأن يجنبك طريق المنحرفين عن هذا الصراط الذين تركوه عن علم، أو تركوه عن جهل وضلال.

فأصحاب الصراط المستقيم جمعوا بين العلم والعمل الصالح، والمغضوب عليهم أخذوا العلم وتركوا العمل، والضالون أخذوا العمل وتركوا العلم.

هذه أسرار عظيمة في هذه الآية من آخر سورة الفاتحة، فلننتبه لها، والحاصل أن دين الإسلام هو دين الله عَزَّوَجَلَّ الذي لا يقبل من أحد سواه، ودين الإسلام ليس خفيًا؛ بل هو واضح تمام الوضوح لمن أراد الله له الهداية؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا أنزل كتابه وبعث رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لبيان هذا الإسلام وإعادته على ما كان عليه الأنبياء والمرسلون من قبل، وإماطة ما علق به من الضلالات والجهالات

والخرافات، حتى عاد نقيًّا واضحًا، وحتى قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا»(١)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابُ اللهِ وَسُنَّتِي»(٢)، وحينما طلب منه الصحابة أن يوصيهم قال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٣).

هذا هو دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي ارتضاه لنفسه وارتضاه لعباده؛ كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، والذين يسيرون على هذا الدين ويتمسكون به يكونون أمة واحدة، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢]، ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة:٧١].

هذه صفات أهل الإيمان الذين انتهجوا هذا الإسلام طريقًا لهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ومن زعم أن هناك طريقًا يوصل إلى الله غير طريق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد في المسند (٢٨/ ٣٦٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٧، ٢٥٧)، وفي مسند الشاميين (٣/ ١٧٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٥)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١١٥)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص٢٥٥).

(٣) سبق تخريجه (ص٢٥).

فهو ضال كذاب كافر، وهو من الذين قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إنهم على السبل «عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»(١)؛ لأن الشيطان قد يكون من شياطين الإنس، وقد يكون من شياطين الجن، وشياطين الإنس وشياطين الجن شيء واحد، يتعاونون على الإضلال والإغواء؛ كما قال تعالى: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، ولهذا الكهان يتلقون عن عملائهم من الشياطين، فشياطين الإنس وشياطين الجن بينهم تعاون على حياكة التدجيل والإضلال، هذه مهمتهم.

بينما المؤمنون بعضهم أولياء بعض، يتواصون بالحق، ويعملون به، ويوصلونه إلى من بعدهم جيلًا بعد جيل.

أيها المسلم -الذي منَّ الله عليك بهذا الإسلام-، احمد الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث هداك لهذا الإسلام الذي تعيش عليه في الدنيا مطمئنًا قرير العين بالحق، وتموت عليه آمنًا، وتلقى ربك عليه راضيًا مرضيًا، فهو خط الأمان، فإذا وفقت لهذا الدين، فقد وفقت لسعادة الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٦، ٢٥٧].

ولهذا يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، يعني: تمسكوا بهذا الإسلام، واحرصوا عليه،

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٧٠).

حتى يوافيكم الأجل وأنتم مسلمون؛ لتلقوا الله عليه، ولا تفرطوا فيه، أو تفلتوا أيديكم منه، فيأتيكم الموت وأنتم على غير الإسلام، وتخسروا الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣]؛ لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة؛ كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ضَمِنَ اللهُ لِمَنِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ أَنْ لا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ»[1].

أما من لم يتمسك بهذا القرآن، ولم يعمل به، فهو ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤]، ﴿ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قيل: هذا في الدنيا، وقيل: في القبر، أو الآية عامة في الحياتين حياة الدنيا وحياة البرزخ[2]؛ يكون في ضنك، في قلق وهم ووساوس في الدنيا، وفي القبر يكون في عذاب، ويضيق عليه قبره حتى أضلاعه، ويفتح له باب إلى النار، ويكون في حفرة من حفر النار، وإذا بعث يوم القيامة من قبره، يؤول إلى النار - والعياذ بالله-، ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

هذا مآل الذين أعرضوا عن هذا القرآن، وكما قال الله تعالى فيهم: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد:٣٤].

الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة، فالمؤمن في هذه الدور الثلاث يكون على خير؛ في حياته الدنيا يكون على هدى وعلى نور من الله

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٣٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٩٣- ١٩٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٤٣٩- ٢٤٤٠)، وتفسير الماوردي (٣/ ٤٣١)، وزاد المسير (٣/ ١٨٠- ١٨١).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى طمأنينة، طمأنينة قلبية نفسية لا يطمع فيها أي أحد من الناس لا الملوك ولا أبناء الملوك، المؤمن يعيش في طمأنينة وفي سعادة، هذا في الدنيا.

في البرزخ والقبر: يكون عليه روضة من رياض الجنة، يفتح له باب إلى الجنة، ويفرش له من الجنة، ويوسع عليه في قبره، حتى يكون مد البصر، ويقال له: «**نَمْ نَوْمَةَ الْعَرُوسِ، لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ**»(١)، ثم يوم القيامة -نسأل الله من فضله- يبعث ويدخل الجنة، ويعيش فيها خالدًا مخلدًا، «**فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(٢).

أما الكافر والمنافق -والعياذ بالله-، فإنه في هذه الدور الثلاث في عذاب؛ في الدنيا في عذاب، في القبر في عذاب، في الآخرة في عذاب.

والفرق بين الفريقين: أن السعداء تمسكوا بهذا الصراط المستقيم، وأن الأشقياء أعرضوا عن هذا الصراط المستقيم ومالوا مع السبل التي حذرنا الله منها، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

إن واجبك -أيها المؤمن- نحو هذا الدين، أولًا أن تتعرف عليه، وأن تعرف ما هو هذا الدين، تعرف العقيدة الصحيحة المبنية على كتاب الله وسنة رسوله، فتعتقدها، وتدين لله بها؛ لا تعتقد اعتقادات منحرفة وضالة؛ لأنك رأيت عليها فلانًا أو علانًا، لا، لا تعتقد إلا ما دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه أهل السنة والجماعة من القرون المفضلة والذين اتبعوهم بإحسان.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٦٧)، والحارث في مسنده (١/ ٣٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فتمسك بالعقيدة الصحيحة؛ لأنها هي العقيدة النافعة المطابقة للحق والصواب، فلابد أن تعرف ما هي هذه العقيدة، أن تدرس هذه العقيدة على ضوء الكتاب والسنة واعتقاد السلف الصالح؛ حتى تكون عقيدتك سليمة وعبادتك مستقيمة، وتكون على هدى.

ثم تتعلم كيف تعبد الله عَزَّوَجَلَّ، كيف تصلي، كيف تصوم، كيف تزكي، كيف تحج، كيف تتقرب إلى الله تقربًا صحيحًا على الوجه الصحيح، كيف تعبد الله عَزَّوَجَلَّ، لا تعبد الله بما وجدت عليه الناس بدون معرفة صوابه أو خطئه؛ لئلا تقع في البدع والخرافات، وما أكثرها!

فإن المبتدعة والمخرفين قد ملؤوا الدنيا الآن من خرافاتهم وبدعهم، ملؤوا الأدمغة وملؤوا الكتب، وكونوا لهم الدعايات العريضة.

فاحذر من هؤلاء، وتعلم من كتاب الله ومن سنة رسوله ومن هدي السلف الصالح كيف تعبد ربك عَزَّوَجَلَّ على نور وعلى برهان لا على ذوق فلان أو طريقة فلان وعلان، فإن بعضًا أو كثيرًا من الناس قد ابتلوا بتقليد دينهم للمخرفين والدجالين والمشعوذين، واتخذوا لهم طرقًا ضالة في العبادة، يلقنونهم إياها، ويعلمونهم إياها صباحًا ومساءً، وهي تبعدهم عن الله وعن جنته، ما ذاك إلا لأنهم لم يلتفتوا إلى هدى الله ودين الله، ويحرصوا على طلب الحق، وهذا أمر خطير خطير جدًا.

وهذا القدر من العلم لا يعذر أحد بجهله، ما لا يستقيم دين الإنسان إلا به لا يعذر أحد بجهله أبدًا، هذا فرض عين على كل مسلم أن يتعلم العقيدة،

أن يتعلم أحكام الطهارة، أن يتعلم أحكام الصلاة، أن يتعلم أحكام الزكاة، أن يتعلم أحكام الصوم، أن يتعلم أحكام الحج، يتعلم أركان الإسلام الخمسة.

لابد هذا لكل واحد، لكل فرد ذكر أو أنثى، حر أو عبد، أما ما زاد على ذلك من العلم وأبواب العلم، فهذا تعلمه لابد منه للأمة، لكن تعلمه فرض كفاية، إذا قام به من يكفي، سقط الإثم عن الباقين، فتعلم أحكام المعاملات وأحكام المواريث وأحكام الأنكحة وأحكام الجنايات والحدود هذا شيء لابد منه للمسلمين، ولابد أن يكون هناك فئة أمينة تتولى هذا الشيء وتقوم به.

ولكنه لا يجب على كل واحد من المسلمين أن يتعلم هذا؛ لأن مواهب الناس وظروف الناس تختلف، لكن من منَّ الله عليه بتعلم هذا العلم، فإنه يقوم بأعظم واجب، ويكون كالمجاهد في سبيل الله، وهو سنة مؤكدة في حق الجميع، وواجب كفائي في حق الأمة عمومًا، فهي سنة مؤكدة في حق الأفراد وواجب كفائي في حق المجموعة لابد منه.

هذا أول واجب على المسلم نحو دينه، قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد:١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول وقبل العمل؛ لأن العلم هو الأساس، والعمل فرع عليه، ولا يصح فرع بدون أصل، ولا يبنى أصل ولا يقوم بناء بدون أساس، وإلا نكون مثل النصارى، نكون من الضالين لو أننا عبدنا الله على جهل وعلى ضلال، فالعلم هو قبل القول وقبل العمل.

ثم يجب عليك بعدما تعرف أحكام دينك وبعدما تعمل بها بنفسك، يجب عليك أن تدعو الناس إلى دين الله عَزَّوَجَلَّ، تدعو الناس إلى دين الله، تأمر بالمعروف

وتنهى عن المنكر، لا تقتصر على نفسك؛ بل لتنفع إخوانك وتنفع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

فالمسلم ليس مطلوبًا منه أن يقتصر على نفسه فقط، ولكن المطلوب منه في الدرجة الأولى أمر نفسه، ثم بعد ذلك أمر غيره من الناس؛ بأن يدعو إلى الله، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر، هذا شأن المسلم، قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]، هذه الصفات الأربع:

الأولى: العلم؛ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، والإيمان لا يكون إلا عن علم.

والثانية: العمل؛ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

والثالثة: التواصي بالحق؛ وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، فإن هذا هو التواصي بالحق.

والصفة الرابعة: الصبر على الأذى أو التعب الذي يلحق الإنسان في حصوله على هذه المراتب؛ لأنه لابد أن يناله أذى، ولابد أن يناله المشقة، ولكنه يصبر؛ لأنه يجاهد في سبيل الله، ويريد الخير للناس، يريد الخير لنفسه أولًا، ويريد الخير للناس، وهذه ميزة المسلم؛ أن المسلم ليس أنانيًّا، لا يهمه إلا نفسه؛ بل يريد الخير لنفسه، ويريد الخير للناس كما قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١)، فلا يسعك إذا رأيت إنسانًا على

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، وهذا لفظ البخاري «لِأَخِيهِ» من غير شك، وجاء عند مسلم «لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ» على الشك.

خطأ أو على ضلالة وعندك من العلم ما تميز به بين الحق والصواب، لا يسعك أن تسكت، بل يجب عليك أن تبين لهذا المخطئ خطأه، وأن تدعوه إلى الله، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فإن قبل، فبها ونعمت، وإن لم يقبل، فأنت أبرأت ذمتك، وأقمت الحجة عليه.

ومن الدعوة إلى الدين تعليم العلم النافع، تعليم العلم النافع هذا من أعظم الدعوة؛ بأن تدرس العقيدة، تدرس للناس الأحكام الشرعية، تبين لهم الأحكام الشرعية في الحلال والحرام، في الجائز والممنوع، تدرس هذا في المدارس، في المساجد، في البيوت، تكن معلمًا للخير، وتعليم العلم -أيضًا- يكون في المحاضرات، في الخطب في الجمع، في المناسبات، في النصائح التي تلقيها في المناسبات في المجتمعات، هذا من تعليم العلم.

تعليم العلم -أيضًا- يكون بالتأليف، كتابة المؤلفات المفيدة، كتابة الرسائل، كتابة الكتب، شرح الأحاديث، تفسير الآيات، التأليف هذا من اعظم تعليم العلم، والنبي ﷺ يقول: **«إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»**(١).

الشاهد في قوله: **«أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»**، فقد يبقى علم الإنسان بعد موته فيما ألفه من الكتب النافعة التي تنفع من قرأها واطلع عليها.

وكما ترون الآن الخير الكثير في هذه المؤلفات التي ألفها أئمة المسلمين وأئمة الهدى، ألفوها لنا في العقيدة، وألفوها لنا في الفقه، وألفوها لنا في التفسير

---

(١) أخرجه أحمد (١٤/ ٤٣٨)، ومسلم (١٤) (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، بلفظ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ»؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث، هذا يصل إليهم أجره وهم في قبورهم؛ لأنهم خلفوا علمًا نافعًا، فهذا من تعليم العلم، وهو من الدعوة إلى الله.

قد يكون الإنسان يدعو إلى الله وهو ميت في قبره، يكون يدعو إلى الله وهو ميت، كيف؟ نعم، يدعو إلى الله في مؤلفاته، كأنه جالس بين أيدينا الآن، إذا قرأنا كتابه، فكأنه جالس بين أيدينا يعلمنا، هذا وسيلة من وسائل التعليم، وهذا من العجائب أن الإنسان يدعو إلى الله وهو ميت في قبره بسبب هذه المؤلفات، ولهذا يقول ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»(١).

فواجبك -أيها المسلم- نحو دينك أولًا: أن تتعلم أحكامه، ثانيًا أن تعمل بها، أن تعمل بها في خاصة نفسك، وتطبقها على نفسك أولًا، ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢، ٣].

فمن واجب دينك أن تعمل به في نفسك، ثم من واجب دينك عليك أن تدعو الناس إليه، وأن تعلمهم إياه، وأن ترغبهم فيه، وأن تحذرهم من الشر، وتنهاهم عن الإثم وعن المحرمات والمخالفات، هذا من واجبك نحو دينك.

من واجبك نحو دينك أن تجاهد في سبيل الله بنفسك وبمالك وبعلمك، تكون مجاهدًا في سبيل الله؛ لأن الله أمر بالجهاد في سبيله، كل بحسب مقدرته

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

واستطاعته، والجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال، هذا من واجب المسلمين نحو دينهم، وهذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من تبليغ دين الله لأهل الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٩]، هذا واجب المسلم، المسلم لم يخلق ليكون أنانيًّا مقتصرًا على نفسه يأكل ويشرب ويعيش في هذه الحياة، ثم يموت وينتهي وليس له نفع، وليس له أثر نافع؛ بل مطلوب منه أن يكون نافعًا.

«اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»**(١)، هذه ثلاث كلمات قالها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موصيًا بها بعض أصحابه، وهي وصية لكل الأمة؛ لأنها تتضمن المنهج الذي يسير عليه المسلم في هذه الحياة مع ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع نفسه، ومع الناس.

ففي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ»**، هذه هي الكلمة الأولى، يبين فيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف يتعامل العبد مع ربه عَزَّ وَجَلَّ؛ وذلك بأن يتقي الله.

والتقوى في الأصل وفي اللغة: مأخوذة من الوقاية، وهي أنك تجعل بينك وبين الشيء الذي يضرك، تجعل وقاية دون الشوك، تجعل وقاية دون الحر ودون البرد؛ ليقيك من الحر، ويقيك من البرد، يقيك من الشوك، هذا في اللغة(٢).

أما التقوى هنا، فالمراد أن تجعل بينك وبين عذاب الله جَلَّ وَعَلَا وقاية تقيك من العذاب، وهذه الوقاية إنما هي بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بفعل أوامره، وترك ما نهى عنه

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) عن أبي ذَرٍّ جُنْدُبِ بنِ جُنَادَةَ، وأبي عبدِ الرحمنِ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر مادة (وقى) في: العين (٥/ ٢٣٨)، وتهذيب اللغة (٩/ ٢٧٨)، والصحاح (٦/ ٢٥٢٦)، ومقاييس اللغة (٦/ ١٣١).

سبحانه، هذه هي التقوى؛ أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف من عقاب الله[(١)]، هذا معنى تقوى الله سبحانه، فالله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وقال في آية أخرى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، فالآية الثانية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، مفسرة للآية الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]؛ لأن هذا شيء لا يستطاع، أن تتقي الله حق تقاته هذا شيء لا يستطاع؛ لأن العبد لايستطيع أن يتقي الله حق تقاته، فالآية الثانية بينت المراد؛ أن المراد أن الإنسان إذا اتقى الله حسب استطاعته، فإن ذلك يكفي منه، وما لا يستطيعه فليس بمؤاخذ عليه، فالمسلم إذا اتقى الله حسب استطاعته، فإن الله يعفو عن الشيء الذي لا يستطيعه، وإن كان الله جَلَّ وَعَلَا يستحق ذلك.

وتقوى الله حق تقاته فسره أهل العلم: بأَنْ يُطَاعَ فَلا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلا يُكْفَرَ[(٢)].

ثلاثة أمور: أَنْ يُطَاعَ فَلا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلا يُكْفَرَ. وهذا لا يستطيعه الإنسان بكماله، فالعبد دائمًا محل تقصير، ودائمًا محل

---

(١) عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ قَالَ: «وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، فَقَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ: اتَّقُوا الْفِتْنَةَ بِالتَّقْوَى، فَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: أَجْمِلْ لَنَا التَّقْوَى فِي يَسِيرٍ، فَقَالَ: «التَّقْوَى الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ رَجَاءَ رَحْمَةِ اللهِ، وَالتَّقْوَى تَرْكُ مَعَاصِي اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ مَخَافَةَ عَذَابِ اللهِ». أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٤٧٣، ٤٧٤)، وهناد بن السَّري في الزهد (١/ ٢٩٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٦٤)، والبيهقي في الزهد الكبير (ص٣٥١).

(٢) هذا تفسير ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]. انظر: الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٨)، والزهد لأبي داود (١/ ١٤٧)، والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ٩٢).

العجز والكسل؛ فلا يستوعب أن يطيع الله، ولا يقع منه معصية أبدًا، وأن يشكر الله، فلا يكفر شيئًا من نعمه، وأن يذكر الله، فلا ينسى أبدًا، هذا صعبٌ ومقامٌ لا يصل إليه الإنسان، ولكن إذا فعل ما يستطيع من هذه الأمور، فإن الله يعفو عما لا يستطيعه العبد بمنِّه وكرمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وتقوى الله علق الله عليها خيرات كثيرة، وتكرر ذكرها في القرآن: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور:١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٥-١٩]، هذه صفاتهم، لم يحصلوا على هذه الجنات والعيون إلا بهذه الأمور العظيمة:

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: يقومون الليل أو أكثر الليل، ويعترفون بتقصيرهم.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: ومع قيامهم يعترفون بتقصيرهم، ولذلك يستغفرون بالأسحار، فيجمعون بين العمل الصالح وبين الاستغفار، والاعتراف بالتقصير في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكما أنهم يحسنون فيما بينهم وبين الله يحسنون فيما بينهم وبين الخلق، ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، هذه من صفات المتقين.

وفي الآية الأخرى يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور:١٧-١٩]، لم ينالوا هذا الشيء إلا بالعمل الصالح، فالجنة لا تُدرك بالتمنيات والكسل، وإنما تُدرك بالأعمال الصالحة، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، أي: بسبب ما كنتم تعملون، فالعمل الصالح سببٌ لدخول الجنة.

وفي الآية الثالثة يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر:٥٤، ٥٥]، هذا جزاؤهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة بسبب التقوى.

هذا فيما بين العبد وبين ربه: أن يحافظ على طاعة الله، وأن يتجنب محارم الله، فإذا فعل ذلك، فقد أتى بالتقوى فيما بينه وبين ربه عَزَّوَجَلَّ.

والكلمة الثانية: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»، فالإنسان محل للخطأ، ومحل للمخالفة، ولكن الله جَلَّوَعَلَا بلطفه ورحمته أن جعل له باب التوبة وباب العمل الصالح، فإذا صدرت منه سيئة، فليبادر بالتوبة، وليتبع التوبة بالعمل الصالح؛ فإن الحسنة تكفر السيئة وتمحوها، «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»(١)، فمن حافظ على الصلوات الخمس، وحافظ على صلاة الجمعة، وحافظ على صيام رمضان، فإن الله يكفر بهذه الأعمال سيئاته الصغائر، وأما الكبائر فلابد لها من التوبة، أو أن الله يعفو عنها سبحانه، لابد أن العبد يتوب منها، أو أن الله جَلَّوَعَلَا

(١) أخرجه أحمد (١٥/ ١٠٦)، ومسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤)، وابن ماجه (١٠٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يعفو عنها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، فهو يتعامل مع نفسه بهذا العمل الجليل أنه إذا صدرت منه معصية، فلا يتمادى في المعاصي ويتساهل، بل يبادر بالتوبة، وكذلك لا يقنط من رحمة الله، ويظن أنه لا يُغفر له، يأتيه الشيطان ويقول له: أنت عملت كذا وكذا؛ فلا تنفعك التوبة. فيقنط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، ويقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

والتوبة لا تبقي ذنبًا ولو كان كبيرًا، التوبة الصادقة لا يبقى معها ذنب، يتوب الله على من تاب، حتى الكافر إذا تاب، تاب الله عليه، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، ﴿مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ منهم من الكفر والشرك والأعمال القبيحة، إذا أسلموا وتابوا، فإن الله يغفر لهم ذلك.

التوبة تَجُبُّ ما قبلها، والإسلام يَجُبُّ ما قبله، والهجرة تَجُبُّ ما قبلها(١)، والأعمال الصالحة يكفر الله بها الأعمال السيئة، والتوبة لا تبقي ذنبًا، إذا كانت

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٢٩/ ٣٦٠)، عَنْ ابْنِ شِمَاسَةَ، أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، قَالَ: «لَمَّا أَلْقَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامَ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِيُبَايِعَنِي، فَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: لَا أُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ اللهِ حَتَّى تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي، قَالَ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **يَا عَمْرُو أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، يَا عَمْرُو أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الذُّنُوبِ**».

توبة صادقة، فإن الله يتوب على صاحبها، لكن لابد من التوبة، أما أن الإنسان يتمادى في الذنوب ويتساهل، ويعتمد على الرجاء فقط، فهذا من الغرور، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، فلا يجوز الاعتماد على الرجاء فقط وترك العمل، ونقول: الله غفور رحيم. نعم، الله غفور رحيم، لكن الله شديد العقاب، لا تنسَ هذا؛ أن الله غفور رحيم، وأنه شديد العقاب لمن لم يتب إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فلا يتساهل ولا يقنط من رحمة الله، لا يعتمد على الرجاء فقط، ويترك العمل، ويقول: الله غفور رحيم، ويتمادى في السيئات، ولا يقنط من رحمة الله، إذا حصل منه ذنب، فيترك التوبة، بل يكون بين الخوف والرجاء دائمًا، يكون خائفًا راجيًا، الله جَلَّ وَعَلَا يقول عن الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذين ذكرهم في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧]. فيكون العبد بين الخوف والرجاء، لكن لا يخاف خوفًا يقنطه من رحمة الله، ولا يرجو رجاء يؤمّنه من مكر الله عَزَّ وَجَلَّ، بل يكون بين هذا وهذا، معتدلًا بين الخوف والرجاء؛ لأن الخوف يحمله على ترك الذنوب، والرجاء يطمعه برحمة الله، ويحثه على العمل الصالح والتوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا يقول بعض العلماء: من عبد الله بالخوف فقط، فهو خارجي -الخوارج[1] هم الذين يأخذون بنصوص الوعيد-، ومن

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَحْقِرُ أحدكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مع** =

عبد الله بالرجاء فقط فهو مرجئ -المرجئة[١] يتساهلون في المعاصي، ويقولون: العمل ليس من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، فيتساهلون في المعاصي، ويقولون: يكفي الإيمان في القلب، ولو أن الإنسان لم يعمل شيئًا، الإيمان بالقلب يكفي، أو الإيمان باللسان والقلب يكفي، هؤلاء المرجئة يعتمدون على آيات الرجاء فقط، وينسون آيات الوعيد-، ومن عبد الله بالمحبة فقط، فهو صوفي[٢]؛ لأن الصوفية يقولون: نحن نعبد الله لا طمعًا في جنته، ولا خوفًا من ناره، ولكننا نعبده لأننا نحبه، من أجل المحبة فقط[٣]، وهذا ضلال وكفر.

الله يُعبد خوفًا ورجاء ومحبة، ومن عبد الله بالخوف والرجاء والمحبة، فهو مؤمن، ينبغي أن نعرف هذه الأمور.

= صِيَامِهِمْ يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ». أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًّا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

(١) المرجئة: قيل من الإرجاء أي: من التأخير لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل من الرجاء لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم فرق شتى. انظر: (مقالات الإسلاميين) (ص١٣٢)، و(الفرق بين الفِرق) (ص١٩٠).

(٢) هذا القول موجود في كتب كثيرة لشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: أمراض القلوب وشفاؤها (١/ ٧٥)، والتحفة العراقية (ص٧٥)، والفتاوى الكبرى (٥/ ٦٢)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٨١)، والتفسير القيم (١/ ٢٦٠).

(٣) هذا القول نُسب إلى أحمد بن الموفق أبو الحسن الصوفي، المتوفى سنة خمس وستين ومائتين، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٧٢)، انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (١٢/ ١١٠ ١١٣)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٨٦)، وطبقات الحنابلة (١/ ٢٣٠، ٢٣١)، والمقصد الأرشد (٢/ ٢٦٨).

«وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»، لا تستمر على السيئة، وتتساهل بها، بل بادر بالتوبة، ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ ﴾ [النساء:١٧]، ﴿مِن قَرِيبٖ﴾؛ من لحظتها يتوبون إلى الله، ولا يؤجلون التوبة؛ لأنهم لا يدرون متى يموتون، ولا يدرون هل يدركون المستقبل الذي يأملونه أو لا يدركونه، فيبادرون بالتوبة قبل الفوات.

«وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»، يحاسب الإنسان نفسه، وينظر في أعماله، فما كان من الحسنات، يزيد عليها، يتزود، وما كان من السيئات، فإنه يتوب منه، ما دام في زمن الإمكان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٨، ١٩].

الكلمة الثالثة: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»، فالإنسان يتعامل مع الناس، لا يمكن أن يعيش وحده، ولا يمكن أن يستغني عن معاملته مع الناس، وإذا تعامل مع الناس واختلط مع الناس، فإنه قد يلقى ما يكره منهم، قد يلقى منهم ما يكره من الاعتداء عليه، أو من ظلمه، أو من غير ذلك من أذى، يلقى منهم أذى، فينبغي له أن يسعهم بخلقه، أن يكون عنده خلقٌ حسن، يتعامل مع الناس بالخلق الحسن؛ كما كان النبي ﷺ يتعامل مع الناس بخلقه الحسن، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ [القلم:٤]، وقال سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]. النبي ﷺ أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقًا حسنًا، فيتعامل مع الناس بالمسامحة والعفو، وعدم العجلة في مؤاخذة المسيء، ويقابل السيئة بالحسنة؛ كما قال تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤].

وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلقى كثيرًا من الأذى من الناس، ولكنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتسامح مع الناس، ويعفو عنهم، ولم ينتصر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسه قط، وإنما ينتصر لله عَزَّ وَجَلَّ، إذا انتهكت حرمات الله، فإنه ينتصر لها، أما إذا كان الأذى عليه هو، فإنه يصبر ويقابل السيئة بالحسنة، وكم لقي من الكفار من الأذى والمضايقات! فلما أسلموا، عفا عنهم، وصاروا من خيرة صحابته، ولم يؤاخذهم بما صدر منهم في الأول، بل عفا عنهم وتألفهم.

خذ مثلًا أهل مكة، ماذا صنعوا معه ومع أصحابه من المضايقات والأذى، حتى اضطروهم إلى الهجرة من مكة إلى المدينة، فلما فتح الله عليه مكة عام الفتح، وظفر بأعدائه، كانوا ينتظرون منه أن ينتقم منهم؛ جزاء على ما صنعوه معه ومع أصحابه، فلما وقعوا في قبضته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانوا ينتظرون منه أن يبطش بهم، ولكنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما اجتمعوا في المسجد الحرام وخطبهم، قام خطيبًا فيهم، فقال: **«يَا أَهْلَ مَكَّةَ مَاذَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ قَالَ: اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»**(١)، فعفا عنهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان ذلك سببًا في إسلامهم ومحبتهم للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان الرجل يؤذي الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويبغضه، والرسول يتعامل معه بالحلم والعفو، حتى يحمله ذلك على أن يُسلم، ويصبح الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من كل شيء، بعد أن كان عدوًا ومبغضًا يصبح محبًّا للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في الثقات (٢/ ٥٦)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٩٩)، وفي معرفة السنن والآثار (١٣/ ٢٩٣). وانظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢)، وزاد المعاد لابن القيم (٣/ ٤٠٧، ٤٠٨).

قال صفوان بن أمية: «أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ الخَلْقِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي، حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيَّ»(١)، تعامل معه بالخلق الحسن، وأعطاه من المال يتألفه، فلما أدرك هذا الخلق العظيم من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حمله ذلك على الإسلام، وأسلم وحسن إسلامه، يقول: «أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ الخَلْقِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي، حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيَّ»، هذا تعامله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا قال: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»، فهذه كلمات عظيمة يجعلها المسلم منهجًا له في هذه الحياة مع ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع نفسه التي تقوده إلى المعاصي والمخالفات التي يعاملها بكثرة الاستغفار وكثرة التوبة، ومنعها من الظلم، ومنعها من المعاصي؛ لأن هذه هي مصلحتها.

أما إذا أعطاها شهواتها، وتركها وما تشتهي، فقد ضرها وظلمها، ظلم نفسه وضيعها، فإذا أخذها بالحزم، وأخذها بالعمل الصالح، وترك العمل السيء، فإنه قد احسن إلى نفسه، فأنقذها من عذاب الله، وأنقذها من الكفر والمعاصي والسيئات إلى الإيمان والحسنات، فوضع نفسه في الموضع اللائق بها؛ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٩]، أي: زكى نفسه بالطاعات والأعمال الصالحة، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، دسى نفسه ودنسها، ودسها في التراب بدل أن يقيمها، هذا خاب وخسر؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠]، فتزكية النفس على قسمين:

القسم الأول: تزكية منهي عنها، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]، بمعنى أن الإنسان لا يمدح نفسه، ويُعجب بنفسه، هذه تزكية

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤/ ١٧)، والترمذي (٦٦٦).

ممنوعة؛ لا يزكي نفسه بمعنى: أنه يمدحها، ويُعجب بها، ولا يعترف بخطئه، يقول: أبدًا أنا لا أخطئ. لا، هذا زكى نفسه التزكية المنهي عنها؛ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء:٤٩]، ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، يعني: يمدحونها، ويُعجبون بأفعالهم.

القسم الثاني: التزكية المحمودة: وهي تزكيتها بالطاعة والتوبة من الذنوب، هذه محمودة ومطلوبة، مطلوب أنك تزكي نفسك بالطاعة وفعل الخير وترك الشر؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون:٤]، يزكون أنفسهم بالطاعة والعمل الصالح.

والثالثة: التعامل مع الناس بالأخلاق الطيبة والأخلاق الكريمة، ولا يقابل الناس بالإساءة، أو يقابلهم بالانتقام إذا ظلموه؛ ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى:٤٠]، وقال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى:٤٣].

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يمنَّ علينا وعليكم بالهداية والتوفيق والعمل الصالح، والإخلاص لوجهه الكريم، وأن يثبتنا وإياكم على الدين القويم إلى يوم نلقاه، وأن يعيذنا وإياكم من شر الفتن ما ظهر منها وما بطن، وألا يسلط علينا بذنوبنا من لا يخافه ولا يرحمنا!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

احفظ الله يحفظك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: **يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»(١)، هذا حديث عظيم يوجه فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الغلام، وهو ابن عمه ابن عباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان هذا الطفل الصغير يحرص على تلقي العلم عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحضر مجالسه، ويأتي إلى بيته؛ لأن فيه خالته ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يحرص على أن يقتدي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدعا له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»(٢)، يعني: التفسير، تفسير القرآن، واستجاب الله دعوة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصار عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أفقه الناس في دين الله، ومن

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٩)، والترمذي -واللفظ له- (٢٥١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٥)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٥٣١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أعلم الناس بتفسير كتاب الله حتى سُمِّي بحَبْر الأمّة، وترجمان القرآن[(١)]؛ ببركة دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ**»، هذا فيه مشروعية تعليم الأطفال الصغار، وتربية الأطفال على طاعة الله؛ لأن الطفل إذا وُجه توجه، وثبت ذلك في قلبه إذا كبر، التعليم في الصغر -كما يقولون- كالنقش في الحجر، وهذا يؤخذ منه أنه يجب على المسلمين أن يعتنوا بشبابهم، ويعتنوا بأطفالهم، ويربوهم، ويعلموهم، ولا يهملوهم.

«**إِنِّي أُعَلِّمُكَ**»، فيه تعليم الصغار، وفيه أن الصغار لا يؤتى لهم بالعلم الكثير، وإنما يؤتى لهم بالشيء اليسير، شيئًا فشيئًا، تدرج في التعليم، «**إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ**»، من أجل أن يحفظها ويعيها، أما لو جاء له بكلام كثير، فإنه قد لا يستوعبه، فهذا فيه منهج التعليم، وأنه ينبغي أن يكون بالتدريج شيئًا فشيئًا، وأن الكلام القليل أدعى للحفظ والفهم.

ثم بيّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الكلمات:

الأولى: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»، الجزاء من جنس العمل، فإذا حفظت الله، حفظك الله، ومعنى «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**»، أي: احفظ أوامره ونواهيه، وذلك بالعمل بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

حفظ الله يراد به: طاعة الله جَلَّ وَعَلَا في أمره ونهيه ودينه، فإذا حفظت دين الله، حفظك الله؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ**﴾ [محمد:٧]، وقال تعالى:

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٣٨٣)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٨٤٥- ٨٤٧، ٩٥٧)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦١٨)، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**نَعَمْ تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ**».

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج:٤٠]، ومعنى ذلك: من نصر دين الله، نصره الله، ومن حفظ دين الله، حفظه الله، الجزاء من جنس العمل.

الكلمة الثانية: «احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»، «تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»، أي: تجد أن الله جَلَّوَعَلَا أمامك، فإذا حفظت دينه، فإنه سبحانه قريب منك، وهو أمامك، قريب منك دائمًا وأبدًا، فمن تقرب إلى الله تقرب الله إليه؛ كما في الحديث: «**وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا**»(١)، أما من ابتعد عن الله، فإن الله يبعده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

ثم الكلمة الثالثة: «وَتَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ» بطاعته وعبادته في حالة الرخاء.

«**يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»، يعني: في وقت الشدة، فالذي يلازم طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الرخاء واليسر، فإنه إذا وقع في شدة وكربة، فإن الله ينقذه منها، هذه فائدة عظيمة، أما من ضيع الله جَلَّوَعَلَا في الرخاء، ضيعه الله في الشدة؛ «**وَتَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ**»، بعض الناس لا يعرف الله جَلَّوَعَلَا إلا في حال الشدة، وأما في حال الرخاء، فإنه ينسى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وما هكذا أهل الإيمان؛ أهل الإيمان دائمًا وأبدًا مع الله في الرخاء وفي حالة الشدة، وإذا وقعوا في شدة، يسر الله لهم، وفرج لهم بما أسلفوا من الأعمال الصالحة، الأعمال الصالحة التي تعملها في حالة الرخاء ينقذك الله بها من الشدة ومن الكرب.

ولما وقع يونس عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، لما وقع في بطن الحوت في الظلمات، ودعا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أنقذه الله، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ [الصافات:١٤٣]، يعني: كان في حال الرخاء من المصلين، ﴿ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ.

يعني: من المصلين، كان كثير الصلاة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكثير العبادة في حالة الرخاء، فلما وقع في الشدة، أنقذه الله؛ ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤]، هذا فيه معنى الحديث: «**وَتَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»، فعلى المسلم أن يكثر من عبادة الله وطاعته دائمًا حتى إذا وقع في شدة أنقذه الله منها.

ثم بين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن كل شيء بقضاء الله وقدره، فالعبد يتوكل على الله، ولاينظر إلى الناس، وإنما يصلح الذي بينه وبين الله، يصلح الله الذي بينه وبين الناس.

«**وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلْقَ لَوْ اجْتَمَعُوا**»، الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم.

«**لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ**»؛ كتبه في القضاء والقدر واللوح المحفوظ، هذا فيه التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والإيمان بالقضاء والقدر الذي هو ركن من أركان الإيمان الستة(١).

الإيمان بالقضاء والقدر: أن كل شيء يحدث ويحصل، فإنما هو مقدر وكائن ومكتوب، فهذا يوجب على العبد ألا يجزع ولا يسخط، وأن يصبر على قضاء الله وقدره، ويعمل الأسباب، يعمل الأسباب النافعة.

الله أمر باتخاذ الأسباب، لم يأمرنا بالاعتماد على القضاء والقدر، بل أمرنا باتخاذ الأسباب النافعة، لكن لو فات الشيء، عملت السبب، ولم يحصل المقصود، فأنت تعلم أنه لم يقدر لك، لو قُدِّر لحصل.

---

(١) حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ سبق تخريجه (ص١٧).

أنت فعلت السبب، لكن لم يحصل المقصود، تعلم أن هذا بقضاء الله وقدره، فلا تجزع ولا تسخط، ولا تيأس أيضًا. لا تيأس، أنت عليك العمل، وعليك فعل الأسباب النافعة، وأما النتائج فهي عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأما لو أنك عطلت الأسباب ولم تعمل شيئًا، لن تحصل على شيء، هل حصلت على زرع وأنت لم تزرع؟ حصلت على ذرية وانت لم تتزوج؟ ليس بصحيح هذا؛ الأشياء بأسبابها، الله أمرنا باتخاذ الأسباب النافعة، ونهانا عن الكسل؛ تعطيل الأسباب، لكن لا نعتمد على الأسباب، وإنما نعتمد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«**وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ**»، لو اجتمع الناس كلهم على أن يضروك بشيء، والله لم يقدر هذا الضرر، لم يحصل.

«**لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»، فلا تجزع، ولا تسخط، ولكن تعمل الأسباب الواقية والنافعة بإذن الله، فتجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والإيمان بالقضاء والقدر هذا يعطي أن الأمر كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنك تعلق قلبك بالله، علق قلبك بالله، ولا يهمك أمر الناس، أو تنسب هذا الشيء إلى الناس دون نظر إلى القضاء والقدر، نعم، أنت تعمل الأسباب الواقية من الناس.

الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يلبس الدرع في الجهاد، الدرع من الحديد للوقاية من السلاح، كان يأخذ السلاح صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه أسباب، لم يكن يترك الأسباب، كان يفعل الأسباب، وهو سيد المتوكلين على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالمسلم يجمع بين فعل الأسباب النافعة مع التوكل على الله، والإيمان بالقضاء والقدر، وهذا يدفعه، الإيمان بالقضاء والقدر يدفعه إلى العمل وعدم اليأس والقنوط، وأن يعلم أن الأمور بيد الله، وليست بيد الناس، وإنما هي بيد الله عَزَّوَجَلَّ، وأن من توكل على الله كفاه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣].

فهذا حديث عظيم جمع نصائح عظيمة وفوائد كثيرة، وهو منهج يسير عليه المسلم في حياته، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

التمسك بالسنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

يكون حديثنا اليوم مع الحديث الشريف عن العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «صَلَّى بِنَا رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ وَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ. قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَأَوْصِنَا. فَقَالَ: **أُوصِيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيْرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُوْرِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١).

هذا حديث عظيم يحتاج إليه المسلمون في كل وقت، ولا سيما في هذا الزمان، وفي كل زمان، فقوله: «وَعَظَنَا رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، هذا فيه مشروعية الوعظ؛ أن العلماء يعظون الناس، بمعنى: أنهم يذكرونهم، ويخوفونهم بالله عَزَّ وَجَلَّ، ويذكرونهم الموت وما بعده من أمور تكون بعد الموت هائلة، ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه، وذكرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، فالوعظ مطلوب، والقرآن سماه الله موعظة، فيشرع للعلماء أن يعظوا الناس، ويذكروهم

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

ويخوفوهم بالله عَزَّوَجَلَّ، فليس الأمر مقصورًا على التعليم -تعليم الأحكام-، هذا شيء مطلوب.

ولكن مع التعليم يكون هناك موعظة تُحرك القلوب، وتُذكر الناس بمستقبلهم وما ينتظرهم، وتذكرهم بعقوبات المعاصي والمخالفات، وتذكرهم كذلك بجزاء الإحسان، جزاء الطاعة، وما أعد الله للمتقين، وما أعد للكافرين والعصاة والمذنبين والمنافقين، كل هذا يحتاج إلى أن يُذكر به.

والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعظ أصحابه «مَوْعِظَةً بَلِيغَةً»، يعني: بلغت القلوب، وأثرت فيها، فينبغي للواعظ كذلك أن يعظ الناس بموعظة بليغة تؤثر فيهم.

«مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ»، يعني: خافت منها القلوب.

«وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ»: بالبكاء من خشية الله، ومن الخوف من المستقبل.

فالموعظة لها مكانة في الإسلام، خلاف الذين ينادون ويقولون: لاتذكروا الجنة والنار، ولا تُذكروا الناس بهذه الأمور! ينتقدون! هناك ناس الآن ينتقدون الوعاظ، وينتقدون خطب الجمع إذا كانت تشتمل على موعظة، وذكر للجنة والنار، ينتقدون هذا لجهلهم وغفلتهم، فالموعظة مطلوبة، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٣]، والرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعثه الله مبشرًا ونذيرًا؛ مبشرًا لأهل الإيمان، ونذيرًا لأهل الكفار والمعاصي.

«مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ»، فهذا فيه مشروعية الموعظة من أهل العلم، ولكن لا يداوم عليها كل يوم، وإنما تكون بعض الأحيان؛ لأن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يُتَخَوَّلُ أصحابه بالموعظة خشية

السآمة[(١)]، يتخولهم، يعني: يعظهم، ولا يداوم على ذلك في كل يوم، وإنما في الأوقات المناسبة، لا سيما إذا حصل من الحوادث ما يقتضي التذكير؛ كما ذكر ﷺ يوم كسفت الشمس في عهده؛ فإنه ﷺ صلى بالناس صلاة الكسوف، ثم وعظهم بعد الصلاة وذكرهم بمناسبة هذا الحادث ألا يمر هذا الحادث بدون اعتبار[(٢)].

كذلك الحوادث الأخرى ينبغي للعلماء أن ينتهزوا الفرصة، فيعظوا الناس على إثرها؛ حتى يتنبهوا، ولا تمر الحوادث بدون اعتبار، وبدون تذكير.

«قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ»، «مُوَدِّع»، يعني: مفارق، المودع هو المفارق؛ لأنهم شعروا من هذه الموعظة قرب أجل الرسول ﷺ، وانتقاله من هذه الدنيا إلى الرفيق الأعلى وترك الأمة، فالموت كتبه الله على بني آدم، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران:١٨٥]: الأنبياء والرسل والصالحون وغيرهم، الموت كتبه الله، ولا أحد

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٨، ٧٠، ٦٤١١)، ومسلم (٢٨٢١)، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٠٥٨)، ومسلم (٩٠١)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ، فَأَطَالَ القِرَاءَةَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَأَطَالَ القِرَاءَةَ وَهِيَ دُونَ قِرَاءَتِهِ الأُولَى، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ دُونَ رُكُوعِهِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ، فَصَنَعَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: **إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُرِيهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ، فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ**».

يبقى على قيد الحياة، ويُعمر في هذه الدنيا، الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كغيره أتى عليه الموت، ومات صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لما رأوا هذه الموعظة البليغة، فهموا أنها عند رحيله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الدنيا، فقالوا له: «فَأَوْصِنَا»، طلبوا منه الوصية؛ لأن الذي يريد أن يسافر، أو يريد أن يرحل عن أهله أو عن أحبابه ينبغي له أن يوصي أحبابه وأقاربه وإخوانه، يوصيهم من بعده؛ كما وصى إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢، ١٣٣]، فهذا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصى، وهذا يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصى، وهذا نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصى عند موته، وقال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ».

«بِتَقْوَى اللهِ»، أوصى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما وصى الله به؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، أوصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأولين والآخرين بتقواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتقوى كلمة جامعة تجمع كل الخير. والتقوى في اللغة: أن تجعل وقاية بينك وبين ما تكره، وقاية تقيك منه؛ كما تتخذ الوقاية ضد البرد، تتخذ الوقاية دون الشمس، أشعة الشمس تتخذ وقاية تقيك من أشعة الشمس في القيلولة حرارة الشمس، تتخذ وقاية عن الشوك بالنعال، تلبس النعال من أجل أن تقيك عن

الشوك وعن حرارة الرمضاء، هذه الوقاية، فالوقاية: أن تتخذ ما يدفع عنك ما يضرك[١].

وكذلك الطاعة وترك المعصية يقيك ذلك من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بماذا تتقي النار؟ هل تتقي النار بالملابس، هل تتقي النار بالأبنية والحصون، هل تتقي النار بالجنود؟ لا، النار لا يقي منها شيء -والعياذ بالله-، لا يقي منها إلا شيء واحد، هو تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: اتخذوا وقاية بينكم وبين النار، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾: بأي شيء، اتقوا النار بالعمل الصالح وترك المحرمات، لايقي من النار إلا تقوى الله؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١، ٧٢]، فلا ينجي من النار إلا تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتقوى الله جَلَّ وَعَلَا هي فعل أوامره وترك نواهيه؛ فعل أوامره رجاء ثوابه سبحانه، وترك ما نهى عنه خوفًا من عقابه، هذه تقوى الله. الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، هذه وصية من الله جَلَّ وَعَلَا، وصية لنا.

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اتقوا عذابه وسخطه وغضبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) انظر: (ص٢٩٨).

﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، هذه أشكلت على بعض السلف؛ لأن تقوى الله حق تقاته لا أحد يستطيعها، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، فسروها: أَنْ يُطَاعَ فَلا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلا يُكْفَرَ(١)، من يستطيع هذا؟! من يستطيع أن يسلم من هذه الأمور؟!، من يستطيع أن يقوم بتقوى الله حق تقاته؟!

ولذلك أشكلت هذه الآية على بعض السلف؛ لأن السلف يفقهون القرآن، لا يقرؤون القرآن عبورًا ومرورًا بدون التفات إلى معانيه، بل يلتفتون ويتفقهون في معانيه، فلما قال لهم: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، أشكل ذلك عليهم، وصعب عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، فخفف الله عن المسلمين، بعضهم يقول: هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، وبعضهم يقول: لا، هذه الآية مفسرة لقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، فمن اتقى الله حسب استطاعته، فقد اتقى الله ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، بحسب استطاعته، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

على كل حال السلف كانوا يقرؤون القرآن بتدبر، لم يكونوا يمرونه على الألسنة ويترنمون به ويرتلونه بدون تدبر وبدون تفهم؛ ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣]، أشكل ذلك -أيضًا- عليهم، أشكل عليهم: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، من الذي يسلم من عمل شيء من السوء؟ فجاء أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر ذلك له، فقال: «غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٩٩).

أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ»[١]؛ لأنهم فهموا أن الآية: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، يعني: في الآخرة، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أن ما يجري على الإنسان في الدنيا من المكاره أنه مما يجزى به، ومما يكفر الله به خطاياه، فعند ذلك اطمأن أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واطمأن المسلمون.

الشاهد من هذا: أن السلف كانوا يقرؤون القرآن بتأمل وتفقه في معانيه.

«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ»، «تَقْوَى اللهِ»، هذه عامة. «وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ» هذه من تقوى الله، ولكنه نص عليها لأهميتها.

«وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ»، لمن؟ السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين.

ولاحظوا المناسبة في هذا: أنه لما قرب رحيله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ولي الأمر، فإذا رحل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسيكون بعده ولي أمر، كانوا يسمعون ويطيعون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأوصاهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسمعوا ويطيعوا لمن يخلفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن يأتي بعده من ولاة أمور المسلمين في كل زمان، وولاة أمور المسلمين هم خلفاء للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ»، من تولي أمر المسلمين، وجبت طاعته دون نظر إلى نسبه، أو إلى جاهه، إذا تولى أمر المسلمين، وجبت طاعته؛ لما في طاعة ولي الأمر من المصالح العظيمة: من اجتماع الكلمة، ومن حصول القوة للمسلمين، ومن حقن الدماء، ومن إنصاف المظلوم من الظالم، ومن منع العدوان؛ عدوان الناس بعضهم على بعض.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٩).

لو لم يكن هناك ولاة أمور، لصارت الدنيا فوضى؛ كما كانوا في الجاهلية فوضى، سفك دماء، وسلب أموال، وهتك أعراض، فلما جاء الإسلام حصل الأمن والاستقرار والانقياد لولي الأمر، والانقياد للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكذلك بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب الامتثال، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩].

﴿ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾: تجب طاعة ولاة أمور المسلمين في غير المعصية.

أما المعصية فـ«**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»(١) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لما يترتب على طاعة ولاة الأمور من الخير، ومن الأمن، والاستقرار واجتماع الكلمة، والهيبة للمسلمين، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما التمرد وشق عصا الطاعة على ولاة أمور المسلمين، فهذا يحصل به فوضى، يحصل به الشر، يحصل به التفكك، يحصل به تسلط الظلمة، يحصل به اعتداء الأعداء على المسلمين، تذهب بلاد المسلمين؛ من يدافع عنها، من يمنع الظالم من ظلمه، من يحكم بين الناس بالشرع، إلى غير ذلك من المحاذير التي تترتب على معصية ولاة الأمور وشق عصا الطاعة.

ماذا حصل على المسلمين من النكبات إذا خرجوا على ولاة الأمور؛ ابتداء بمقتل عثمان الخليفة الراشد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الخليفة الراشد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، لما اعتدى عليه هؤلاء الظلمة الطغاة الذين شقوا عصا الطاعة وقتلوه، وقع في

---

(١) أخرجه أحمد بنحوه (٢/ ٣٣٣)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصله في البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠) بلفظ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**».

الأمة الخلاف الذي لا يزال إلى الآن، والأمة تعاني من الشقاق والخلاف والقتل والقتيل وغير ذلك، ثم تعاقب هذا، كلما حصل تمرد على ولي أمر من ولاة أمور المسلمين، حصل على المسلمين من النكبات، ومن الفوضى، ومن ضياع الأمن وهتك الأعراض، وسلب الأموال، وسفك الدماء، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله؛ ولذلك أوصى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسمع والطاعة، وإن تأمر على الناس إنسانٌ ليس له نسبٌ رفيع، ما دام أنه مسلم تولى أمر المسلمين، فإنه تجب طاعته أيًّا كان، لا لشخصه، وإنما لمنصبه، وهو ولاية أمور المسلمين.

فيجب على المسلمين أن يفقهوا هذه النصيحة وهذه الوصية من الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عند رحيله من الدنيا ماذا أوصاهم؟ أوصاهم بعد تقوى الله بالسمع والطاعة لمن يوليه الله أمر المسلمين.

وهذا نؤجل بقية الكلام على الحديث إلى الدرس القادم -إن شاء الله.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الدين النصيحة ١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

حول حديث من أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن جوامع الكلم التي أُوتيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

هذا الحديث هو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»**[(٢)].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي»**. وأخرجه أحمد (١١/ ١٧٩) عن عَبْد اللهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا كَالْمُوَدِّعِ، فَقَالَ: **أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ** -قَالَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- **وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ، وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَتُجُوِّزَ بِي، وَعُوفِيتُ، وَعُوفِيَتْ أُمَّتِي، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي، فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، أَحِلُّوا حَلَالَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ»**. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٨، ٧/ ١٧١)، وعبد الرزاق (٦/ ١١٢) عن عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **«إِنِّي أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ، وَاخْتُصِرَ لِيَ اخْتِصَارًا»**. وأخرجه الدارقطني (٥/ ٢٥٤) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَاخْتُصِرَ لِيَ الْحَدِيثُ اخْتِصَارًا»**.

(٢) سبق تخريجه (ص٢٥١).

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»: هذا من باب الحصر، حصر الدين كله في النصيحة؛ لأن الدين كله نصيحة، والنصيحة: الشيء الخالص، يقال: لبن ناصح، أي: خالص من الغش، فالنصيحة: هي الخلوص من الغش[(١)].

والدين -ولله الحمد- دين خالص؛ ليس فيه غش ولا خديعة، وإنما هو دين واضح بيّن صادق لا يتطرق إليه شك، فهو كله نصيحة؛ ليس فيه شيء خال من النصيحة.

وكرر ذلك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عادته أنه يكرر الكلام ثلاث مرات؛ حتى يُفهم عنه، وأيضًا كرر ذلك للاهتمام بهذا الموضوع العظيم.

فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، يدل على أن من كان له نصيحة ونصح أنه عنده دين، كلما زادت النصيحة في الإنسان، كلما كان ناصحًا، كان دينه أكثر وأقوى، وكلما نقصت النصيحة عند الإنسان، كان دينه ناقصًا، وإذا فُقِدت النصيحة من الإنسان، لم يبق عنده دين -نسأل الله العافية!

«قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟» لما بين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الدين النصيحة، سألوه: لمن تكون النصيحة التي هذا شأنها؟ بيَّن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها تكون لخمسة أشياء: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، ولعامة المسلمين، هذه مجالات النصيحة.

النصيحة لله جَلَّ وَعَلَا، كيف تكون النصيحة لله؟ يعني: بأن تكون مخلصًا لله عَزَّ وَجَلَّ، فيما يكون بينك وبين الله تكون مخلصًا؛ لا يكون بينك وبين الله نفاق أو

---

(١) انظر مادة (نصح) في: العين (٣/ ١١٩)، وتهذيب اللغة (٤/ ١٤٦)، والصحاح (١/ ٤١٠)، ومقاييس اللغة (٥/ ٤٣٥).

غش، أو مخادعة، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، بل يكون ما بينك وبين الله على طريق النصح والإخلاص والصدق فيما بينك وبين الله عَزَّوَجَلَّ، والنصيحة لله عَزَّوَجَلَّ تكون بالإيمان به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الإيمان الذي لا يتطرق إليه شك، الإيمان الصادق بالله عَزَّوَجَلَّ، الإيمان بالله هو أول أركان الإيمان، الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ.

ويكون الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ بأنواع التوحيد الثلاثة:

* **الإيمان بتوحيد الربوبية**؛ بأن الله هو الرب الخالق الرازق المحيي المميت، المدبر الذي لا يشاركه أحدٌ في ملكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكل هذا الكون وكل هذه المخلوقات كلها مخلوقات لله جَلَّوَعَلَا؛ لا يخلق غيره، ولا يدبر الأمر غيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو الخالق، وما سواه مخلوق، وهو الرب وما سواه عبد، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، فالرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الله المالك، المدبر، الذي يربي عباده بنعمه، ويغذيهم برزقه. فتؤمن بذلك أن الله هو الرب وحده، أنه هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، وأن أحدًا لا يشارك الله في شيء من ملكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]، القطمير أضعف شيء، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]، والقطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمر، اللفافة البيضاء التي تكون على النواة[(١)]، هذه المعبودات التي يعبدها المشركون لاتملك ولا هذا الشيء اليسير الذي لا شيء

---

(١) انظر مادة (قطمر) في: العين (٥/ ٢٥٩)، وتهذيب اللغة (٩/ ٣٠٤)، والصحاح (٢/ ٧٩٧)، ولسان العرب (٥/ ١٠٨).

أقل منه، ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾. فالملك لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

* **وكذلك توحيد الألوهية؛** تُخلص لله عَزَّوَجَلَّ بتوحيد الألوهية، وهو العبادة، فما دام أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، فهو الذي يستحق العبادة دونما سواه ممن لا يملك شيئًا؛ ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٣، ٧٤]، فما دام أنه جَلَّوَعَلَا هو المنفرد بالربوبية والخلق والتدبير والإحياء والإماتة، فإنه هو الذي يستحق العبادة دونما سواه ممن لا يملك لنفسه ﴿ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان:٣]؛ ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢]، كل هذه أفعال الله جَلَّوَعَلَا، لا أحد يشك فيها، ولا أحد يدعي أن أحدًا يشارك الله فيها، فلماذا يُعبد معه غيره ممن لا يتصرف في هذا الكون، ولا يخلق ولا يرزق ولا يدبر، لماذا؟ ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾، يعني: شركاء. ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنه

لا شريك له في خلقه وأمره، وتدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا من العجائب، وهذا من إقامة البرهان على توحيد العبادة، البرهان على وجوب إفراد الله بالعبادة هو أنه هو الخالق، هو الذي فعل هذه الأشياء التي ذكرها في هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢]، ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ هذه الأشياء أن الله هو الذي يفعل هذه الأشياء، فلماذا تعبدون معه غيره ممن لا يستطيع أن يعمل شيئًا؟! هذا من انتكاس الفطر، الشرك هذا خلاف ما فطر الله الناس عليه، وهو من دعوة الشيطان، الشيطان هو الذي دعا الناس إلى أن يعبدوا غير الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا في يوم القيامة يتبرأ منهم؛ ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾، يعني: منقذكم مما أنتم فيه، ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾: أنا أشد منكم عذابًا، ولا تقدرون أن تنقذوني، ولا أنا أقدر أن أنقذكم، ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ [إبراهيم:٢٢، ٢٣]، هذا ما يقوله الشيطان يوم القيامة لأهل النار الذين دعاهم في هذه الدنيا إلى الشرك، فأجابوه، دعاهم إلى المعاصي، فأجابوه، في يوم القيامة يخطب فيهم هذه الخطبة؛ من باب التوبيخ لهم، في حين أنه لا ينفع الندم في ذاك اليوم، ولا يستدرك ما فات في ذاك اليوم، بخلاف ما كان في الدنيا؛

الإنسان يستدرك ويتوب ويرجع إلى الحق، وأما إذا قامت القيامة، بل إذا مات الإنسان، إذا حضره الموت، لا يستطيع أن يتخلص مما هو فيه من الشرك والكفر والذنوب والمعاصي، لا يستطيع.

فالنصح لله عَزَّوَجَلَّ: ألا يعبد غيره، أما إذا عُبِد غيره، فهذا غش، هذا غش في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكذب، هذا كذب وغش؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا ليس له شريك في ملكه؛ فلا يكون له شريك في عبادته، يجب أن يفرد بالعبادة، وهذا هو النصح لله عَزَّوَجَلَّ؛ إفراد بالعبادة. أما من عبد معه غيره، فهذا غَش في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولم ينصح لله عَزَّوَجَلَّ.

* وكذلك من النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ: إثبات الأسماء والصفات له، إثبات الأسماء التي أثبتها لنفسه في كتابه، والتي أثبتها له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته كما جاءت من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه.

من النصيحة لله: أن نثبت لله عَزَّوَجَلَّ أسماءه وصفاته سبحانه؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨]، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الله جَلَّ وَعَلَا له أسماء؛ منها ما ذكره الله في القرآن، ومنها ما ذكره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهناك أسماء لله لم يذكرها، بل استأثر بها في علم الغيب، ولم يُعلمها أحدًا؛ كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»(١)، فدل على أن هناك أسماء لله لم يُعلم بها أحدًا من خلقه، لا يعلمها إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٦)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣)، والطبراني في الدعاء =

وكذلك له صفات؛ لأن كل اسم من أسمائه يتضمن صفة من صفاته؛ فالعليم يتضمن صفة العلم، الرحمن الرحيم يتضمنان صفة الرحمة، السميع يتضمن صفة السمع لله عَزَّوَجَلَّ، البصير يتضمن صفة البصر لله عَزَّوَجَلَّ. كل اسم من أسمائه فإنه يتضمن صفة من صفاته، ولذلك صارت أسمائه حسنى، بمعنى: أنها كاملة لا أكمل منها، تامة.

فمن النصيحة لله: أن نثبت لله أسماءه وصفاته، ولا نؤولها عن معانيها؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، ما معنى: ﴿يُلْحِدُونَ﴾؟ الإلحاد: هو الميل(١)، والمراد به هنا: الميل عن الحق إلى الباطل.

فالإلحاد في أسماء الله -كما ذكر أهل العلم- أنواع:

النوع الأول: جحودها، جحود الأسماء والصفات أو جحود بعضها، هذا إلحاد، فمن جحد أسماء الله جَلَّوَعَلَا كالجهمية(٢)، هذا إلحاد، أو جحد بعضها، فهذا إلحاد -أيضًا-، الإيمان بالبعض والكفر بالبعض كفرٌ بالجميع، وكذلك الإلحاد فيها؛ تفسيرها بغير معانيها هذا من الإلحاد فيها؛ كأن يُفسر الرحمة بإرادة

= (ص٣١٤)، وفي الكبير (١٠/ ١٦٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(١) انظر مادة (لحد) في: العين (٣/ ١٨٢)، وتهذيب اللغة (٤/ ٢٤٣)، والصحاح (٢/ ٥٣٤)، ومقاييس اللغة (٥/ ٢٣٦).

(٢) هم أتباع الجهم بن صفوان أبي محرز الراسبي، مولاهم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرًا عظيمًا، وهو رأس في التعطيل، قُتل سنة ١٢٨هـ، قتله سَلْم بن أحوز. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ١٥٩)، والتعريفات للجرجاني (ص١٠٨)، وفتح الباري (١٣/ ٣٤٥)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٥٩٠).

الإنعام، تُفسر اليد بالقدرة، يُفسر الوجه بالذات؛ كما يقوله المؤولة المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، يفسرونها بغير معانيها الصحيحة؛ يأتون لها بمعانٍ غير معانيها، هذا إلحاد في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فيجب أن تثبت وتثبت معانيها التي تدل عليها، ولا تُفسر بغير معناها الصحيح، فهذا من الإلحاد في أسماء الله وصفاته.

وهناك من يثبت أسماء الله وصفاته، يثبتها ألفاظًا فقط، يثبتها ألفاظًا وينفي معانيها، ويؤولها بغير معانيها، ويفسرها بغير تفسيرها، هذا تحريف وإلحاد في أسماء الله وصفاته.

كذلك من الإلحاد في أسماء الله وصفاته: أن يُسمَّى الله باسم لم يسم به نفسه، أو يوصف بصفة لم يصف بها نفسه، أن يزاد عليها شيءٌ ليس منها، فلايجوز لنا أن نسمي الله إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لانزيد أسماء لله من عندنا، هذا من القول على الله بلا علم.

وكذلك لا نصف الله جَلَّ وَعَلَا بصفة لم يثبتها لنفسه، ولم يثبتها له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا من الإلحاد في أسماء الله وصفاته؛ أن نزيد عليها شيئًا من عندنا، أو نضيف إليها شيئًا من عندنا نستحسنه ونضيفه إليها.

كذلك من الإلحاد في أسماء الله أن يُسمى بها الأصنام؛ كما ذكروا أن اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، أخذوا هذه الأسماء من أسماء الله، فسموا بها أصنامهم، هذا من الإلحاد[1].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٥٩٧)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣١١)، والوجيز للواحدي (ص٤٢٣)، والتفسير البسيط (٩/ ٤٨٢، ٢١/ ٤٠).

إذًا الإلحاد في أسماء الله أنواع:

أولًا: نفيها وجحودها؛ كمذهب الجهمية.

ثانيًا: تفسيرها بغير معناها الصحيح؛ كما هو مذهب المعتزلة[١] والأشاعرة[٢]، وكل من حرف في أسماء الله وصفاته فسرها بغير تفسيرها.

ثالثًا: أن يضيف إليها شيئًا لم يثبته الله ولا رسوله من عندنا، يزيد عليها.

رابعًا: أن تسمى بها المعبودات والأصنام؛ كما فعل أهل الجاهلية.

---

(١) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها.
وقد افترقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.
انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٩١-٧٩٢).

(٢) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتلمذ على أبي علي الجبائي زوج أمه، ومضى على ذلك صدرًا من حياته، ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه وسلك طريقة ابن كلاب، وانتشر مذهبه، ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث، وانتسب إلى الإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة: الإبانة، والموجز، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب.
توفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قاله الذهبي، ويقال: بقي إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة. انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٨٤)، وسير أعلام النبلاء(١٥/ ٨٥)، والبداية والنهاية (١١/ ٢١٢)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٠٣).

هذا الإلحاد في أسماء الله وصفاته، وهذا من الغش، وإثباتها كما جاءت من النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ، ويجب أن نعرف هذا.

كذلك من النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ: ألا نقول عليه بغير علم؛ أن نحلل ما حلله الله، وأن نحرم ما حرمه الله، لا نتعدى الكتاب والسنة في الحلال والحرام، ما حرمه الله حرمناه، وما أباحه الله أبحناه، وما سكت الله عنه سكتنا عنه، هذا من النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ، ولا نحرم الحلال، ولا نحلل الحرام، فمن أحل ما حرم الله، وحرم ما أحل الله، لم يكن ناصحًا لله عَزَّوَجَلَّ. الواجب علينا ألا نقول على الله بغير علم، ونحلل ونحرم من عند أنفسنا من غير دليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن أهل الجاهلية حرموا أشياء لم يحرمها الله عَزَّوَجَلَّ، حرموا أشياء من بهيمة الأنعام ومن الحرث، وجعلوها لأصنامهم، وأباحوا أشياء حرمها الله؛ كما استباحوا الميتة، واستباحوا الربا، واستباحوا محرمات.

وكذلك من هذه الأمة من تجرأ وأفتى، أفتى بغير علم، وحرم وحلل بدون دليل، فهو مشابه لأهل الجاهلية، الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم، وأيضًا هذا من القول على الله بغير علم، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف:٣٣].

ومن النصيحة لله جَلَّ وَعَلَا: تحكيم كتابه، الحكم بشرعه، الحكم بما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا من النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ، أما من حكم بغير ما أنزل الله، فإنه لم يكن ناصحًا لله عَزَّوَجَلَّ.

ونقف عند هذا الحد في هذا الدرس، وفي الدرس القادم -إن شاء الله نستكمل بقية الحديث.

وفق الله الجميع للعلم النافع والعمل الصالح والإخلاص في القول والعمل، ونسأله أن يفقهنا في دينه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا.

نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الدين النصيحة ٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

صح في الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(١)، هذا حديث وجيز الكلام جامع لمعانٍ عظيمة، وقد أوتي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جوامع الكلم وفصل الخطاب، ومن ذلك هذا الحديث؛ فإنه جمع الدين كله في أربع كلمات أو خمس كلمات، قال: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، جمع الدين كله في النصيحة، ثم فصلها، وبينها لمن تكون؛ تكون لله جَلَّ وَعَلَا، هذا أول شيء، تكون لكتاب الله، تكون لرسول الله، تكون لأئمة المسلمين، تكون لعامة المسلمين.

والنصيحة مأخوذة من نصح الشيء إذا خلص، والناصح هو الشيء الخالص من الغش، الشيء الخالص من الغش يسمى ناصحًا، فمن أراد أن يسلم من الغش، فليتصف بهذه الأمور:

الأمر الأول: النصيحة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بمعنى: أن يخلص فيما بينه وبين الله عَزَّ وَجَلَّ، يخلص الدين لله في توحيده وعبادته وفعل أوامره وترك نواهيه، هذا هو

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥١).

الناصح لله عَزَّوَجَلَّ، أي: المخلص لله، فيتجنب الشرك الأكبر والأصغر، ويلتزم بالتوحيد لله عَزَّوَجَلَّ؛ فلا يعبد إلا الله، لا يدعو إلا الله، لا يخاف ولا يرجو إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يعبد بأي نوع من العبادة إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فلا يعبد غير الله، ولا يدعو غير الله، ولا يذبح لغير الله، ولا ينذر لغير الله، يخلص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ بجميع أنواعها، لا يصرف منها شيئًا لغير الله؛ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠]، والإله معناه: المعبود، فالعبادة يجب أن تكون لواحد، وهو الله، لا تكون لاثنين؛ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل:٥١]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بشرٌ أرسله الله إلينا؛ ليبلغنا عن ربه عَزَّوَجَلَّ، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، فليخلص أعماله جميعها لله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر:١١، ١٢].

وكذلك من النصيحة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: أن يثبت ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، أو أثبته له رسوله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فلا يحرف ولا يؤول أسماء الله وصفاته عما جاءت عليه، بل يثبتها لله كما جاءت، ويعتقد ما تدل عليه من المعاني؛ لأنها أسماء وصفات لله جَلَّوَعَلَا؛ يُعرف بها، ويتوسل بها إليه؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

والإلحاد في أسماء الله: هو تأويلها، أو جحد معانيها، أو تفويض معانيها إلى الله؛ لأن التفويض معناه: التعطيل أيضًا؛ لأنه لا يفوض إلا بعدما عطل،

ولم يعتقد ما دلت عليه، فيجب أن يثبت ما أثبته الله لنفسه؛ لأنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق حديثًا من خلقه، وكذلك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعلم بالله وما يليق به.

وقد جاءت هذه الأسماء والصفات في كتاب الله وفي سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجب أن نثبتها، وأن نعتقد ما دلت عليه من المعاني العظيمة والكمالات لله عَزَّوَجَلَّ، وندعو الله بها، ونتعرف إلى الله بها، هذا هو الواجب، ولا ندخل فيها متأولين، ولا معطلين، ولا نشبهها بصفات خلقه، أو نكيفها؛ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، قال سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

فلا يجوز أن نشبه الله بخلقه، وإنما نقول: هذه أسماء وصفات لله، والمخلوقون لهم أسماء وصفات -أيضًا- قد تشترك مع أسماء الله وصفاته في الألفاظ، وتشترك معها في المعاني، ولكنها تختلف في الكيفية والحقيقة، فلله أسماء وصفات تليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وللمخلوقين أسماء وصفات تليق بهم وببشريتهم؛ فلا تشابه بين الله وبين خلقه في وجه من الوجوه، هذا هو الواجب على المسلم، وهذا هو النصيحة لله مع اتباع كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، هذه هي النصيحة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن قصر في شيء من هذه الأمور، فإنه لا يكون ناصحًا لله عَزَّوَجَلَّ، إما بأن يكون خاليًا من النصيحة لله، أو يكون ناقص النصيحة فيما بينه وبين الله بحسب مخالفته.

هذا هو الواجب على المسلم فيما بينه وبين الله: أن يكون ناصحًا لله عَزَّوَجَلَّ، ليس عنده غش، وليس عنده تقصير في حق الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه ربه وخالقه ومدبره، ومصيره ومرده إليه يوم القيامة، فيخاف من الله، ويخشى من الله، ويتقي ربه، ويراقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائمًا وأبدًا.

والنصيحة لكتاب الله -وهو القرآن-: الإيمان بأنه كلام الله، منزلٌ من الله، غير مخلوق، تكلم الله به حقيقة، وأوحاه إلى رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة جبريل الأمين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبلغه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأمة، وتناقلته الأمة جيلًا بعد جيل، وهو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حروفه ومعانيه، لا يشبهه كلام؛ لأنه كلام الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود:١٣]، ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣]، لم يستطيعوا؛ لأنه كلام الله، ولا يستطيع البشر أن يأتي بكلام مثل كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فنؤمن بأن القرآن كلام الله تكلم الله به حقيقة، ونقله جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأمين، الروح الأمين، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلينا، وبقي محفوظًا بحفظ الله سبحانه؛ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فلا يتطرق إليه نقص، ولا يعتريه خلل، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]؛ كما أُنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يزد فيه حرف، ولم ينقص منه حرف؛ لأن الله قد حفظه وتولاه، فلا يستطيع أحدٌ أن يزيد فيه أو ينقص؛ ليبقى حجة على الناس؛

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩]، فمن بلغه هذا القرآن، قامت عليه الحجة، وانقطعت معذرته أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا لم يتبعه، ولم يؤمن به.

فالنصيحة لكتاب الله تعني: الإيمان بأنه كلام الله، منزلٌ غير مخلوق، وتعني: العمل بكتاب الله، وتلاوة كتاب الله، وتعلم كتاب الله على الوجه المطلوب؛ «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[1]، فمن النصيحة لكتاب الله بعد الإيمان به: تعلمه وتعليمه وتلاوته، واتباع ما جاء به؛ بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، هذا هو من النصيحة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فمن أعرض عن القرآن، ولم يلتفت إليه، فإن الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦]، هذه هي النصيحة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

النصيحة لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: هي التصديق برسالته، والإيمان برسالته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنه رسول من عند الله، وأنه عبد الله ورسوله، ليس له من الربوبية والإلهية والعبادة شيء، وإنما هو بشر ورسول من عند الله، نؤمن به ونتبعه، ونطيعه ونعظمه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بما يليق به، ولا نغلو في حقه كما غلت النصارى في عيسى بن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فقالوا: إنه هو الله، أو ابن الله، أو ثالث

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧)، من حديث عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ثلاثة، بل نقول: إن عيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله ورسوله، وإن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله ورسوله.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُطْرُونِي»، يعني: لا تغلو في حقي، «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»(١)، هذا من النصيحة لرسول الله: عدم الغلو في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورفعه فوق منزلته التي أعطاه الله إياها، واتباعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتصديقه فيما أخبر به، وألا نعبد الله إلا بما شرعه، هذه هي النصيحة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والنصيحة لأئمة المسلمين: والمراد بأئمة المسلمين: ولاة أمور المسلمين من الأمراء والعلماء، فيجب علينا أن ننصح لهم بمعنى: أننا لا نخالف أمرهم إلا إذا كان في معصية، فإننا نتجنب المعصية؛ «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»(٢)، ولكن إذا كان أمرهم ليس فيه معصية، فيجب علينا أن نطيع، وأن نمتثل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء:٥٩]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ أَطَاعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»(٣)، وقال: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»(٤)؛ نسمع ونطيع في المنشط والمكره(٥)، وعلينا السمع

---

(١) سبق تخريجه (ص١٧٢).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٤٧)، من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧١٩٩)، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ».

والطاعة لولاة أمورنا؛ لأن ذلك فيه مصالح عظيمة، ومعصيتهم ومخالفتهم فيها مضار كثيرة؛ من تفرق الكلمة، وتشتت الأمر، وتسلط الأعداء.

والله جعل ولاة الأمور حماية للمسلمين؛ يقيمون فيهم حدود الله، ويحكمون بينهم بكتاب الله، ويردون الظالم عن المظلوم، ويؤدون الحقوق إلى مستحقيها، ويأمن بهم البلد، وينقمع بهم العدو، فلابد للمسلمين من ولاة أمور يقومون على شؤونهم، وينفذون فيهم أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي الخروج على ولاة الأمور فساد كبير وشر مستطير؛ كما حصل عبر التاريخ ممن خالفوا ولاة الأمور، ما حصل من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة. قال العِرْبَاض بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «صَلَّى بِنَا رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ وَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَأَوْصِنَا. فَقَالَ: **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُوْرِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١).

هذه وصية رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنا: أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا بالمعروف؛ لأن في ذلك الخير واجتماع الكلمة، ونصرة الحق، وفي مخالفة ولاة الأمور من الشر ما لا يعلمه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كما حصل عبر التاريخ مما هو معلوم.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

ومن النصيحة لولاة الأمور: أن ندعو لهم بالتوفيق، النصيحة لولاة الأمور أن ندعو لهم بأن يوفقهم الله للحق، وأن يعينهم على الحق، وأن يصلحهم الله؛ لأن صلاحهم صلاح للمسلمين، ولأن فسادهم فساد لأمر المسلمين، فندعو لهم بالصلاح والاستقامة والتوفيق والإعانة، هذا من النصيحة لهم.

أما الذين يدعون على ولاة الأمور، فهؤلاء بين رجلين:

- إما جهال لا يعرفون الشريعة وما جاء فيها.

- وإما أنهم مغرضون حاقدون على المسلمين، يريدون أن يفرقوا كلمتهم، ويشتتوا شملهم، وهذا من الخيانة، هذا من الخيانة لولاة الأمور، ومن الخيانة لعامة المسلمين.

الدعاء لولاة الأمور أمرٌ مطلوب، وهو من النصيحة لولاة الأمور.

وكذلك من النصيحة لولاة الأمور: أن يقوم الإنسان بالعمل الذي وكلوه إليه، الوظائف التي وكلوها إلى الناس، ووظفوا الناس فيها؛ ليقوموا بأعمالها، النصيحة لولاة الأمور: أن يقوم الموظفون بالأعمال على الوجه المطلوب، وألا ينقصوا شيئًا من العمل الوظيفي، وألا يقدموا أحدًا على أحد، يقدموا غير المستحق على المستحق، أن ينجزوا الأعمال التي عندهم، أن يحافظوا على الدوام وعلى ساعات العمل، وألا ينقصوا شيئًا من ذلك، هذا من النصيحة لولاة الأمور، ومن النصيحة لعامة المسلمين.

وأما النصيحة لعامة المسلمين: فإنها تعني: التعامل معهم بالصدق، والتعامل معهم بالوفاء، وعدم الغش، وعدم الخيانة، وعدم الغيبة، وعدم

النميمة، والإصلاح بين الناس، هذا من النصيحة لعامة المسلمين، أن نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، أن ندعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ، أن نبين للناس أمور دينهم، أن نعلمهم الخير، وننهاهم عن الشر، ولا نترك الناس على المخالفات، بل ننهاهم، ونأمرهم، وندعوهم، وندعو لهم بالخير، وننصح في المعاملات؛ فلا نغش في المعاملة، ولا نخون، ولا نخون الأمانات والأسرار التي بين الناس، ولا نقع في أعراض إخواننا المسلمين بالغيبة، أو بالنميمة، أو بالتحريش، وإنما نسعى للإصلاح؛ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، ثم ذكر النصيحة لعامة المسلمين، فالذي يغش المسلمين في المعاملات هذا ليس ناصحًا للمسلمين، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»(١).

الذي يسعى بالتفريق بين المسلمين، الذي يسعى في إيقاد العداوة بين المسلمين هذا ليس ناصحًا للمسلمين؛ لأنه يريد أن يفرق بين المسلمين.

الذي يسكت ويترك الناس على الباطل، ويتركهم على المنكرات، ويتركهم يسيرون إلى جهنم، ولا ينصحهم ولا يذكرهم، ولا ينهاهم عما هم عليه، ويبين لهم الطريق الصواب، هذا غاش للمسلمين، هذا ليس ناصحًا للمسلمين؛ فالمسلم يكون ناصحًا دائمًا وأبدًا، متصفًا بالنصيحة فيما بينه وبين الله، فيما بينه وبين كتاب الله، فيما بينه وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما بينه وبين ولاة الأمور،

---

(١) سبق تخريجه (ص١٣٣).

فيما بينه وبين إخوانه المسلمين، صفته النصيحة دائمًا وأبدًا، وتجنب الغش، تجنب الخيانة، وتجنب الكذب، وتجنب الزور، وتجنب السباب، وتجنب الغيبة والنميمة، وتجنب الإفساد بين الناس، يكون شأنه الإصلاح بين المسلمين، طلب الإصلاح.

ومن الصدقات التي يتصدق بها الإنسان: أن يصلح بين الاثنين؛ «**تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ**»[1]، يقول ﷺ: «**تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ**»، صدقة منك.

فالإصلاح مطلوب؛ ﴿**وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ**﴾ [النساء:١٢٨]، ولا يتم أمر المسلمين إلا بالعمل بهذا الحديث بأقسامه الخمسة: النصيحة لله، النصيحة لكتاب الله، النصيحة لرسول الله ﷺ، النصيحة لولاة الأمور، النصيحة لعامة المسلمين. وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدين النصيحة ٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

ما زال الحديث متواصلًا في معنى قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[(١)].

توقفنا عند قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلِكِتَابِهِ»، أي: تكون النصيحة لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، والمراد بكتاب الله: القرآن، القرآن الكريم الذي أنزله الله على نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو آخر الكتب، ولفظ الكتاب يُطلق على جميع الكتب المنزلة من عند الله عَزَّ وَجَلَّ: التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وغيرها من الكتب المنزلة من عند الله، ولكن المراد بكتاب الله هنا: القرآن العظيم.

النصيحة لكتاب الله تتضمن أمورًا كثيرة:

أولًا: الإيمان بأنه كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ منزلٌ من عند الله، تكلم الله به حقيقة، وسمعه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونزل به على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾

(١) سبق تخريجه (ص٢٥١).

نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤]، ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ منزلٌ من عند الله لا من غيره.

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾، وهو جبريل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾: على قلب محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبلغه محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأمته، وتناقلته الأمة جيلًا بعد جيل، نقل التواتر القطعي واليقيني الذي لا شك فيه.

وقد تكلف الله جَلَّوَعَلَا بحفظه، فلا يُبدل ولا يُغير؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، فهو محفوظ بحفظ الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما أُنزل على محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لم يُغير منه حرفٌ واحد، وهذا من فضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على هذه الأمة؛ لأن الكتب السابقة استحفظ الله عليها العلماء -علماء الأمم السابقة-؛ ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة:٤٤]، ولكنهم حرفوها وغيروها، حرفوا التوراة، حرفوا الإنجيل، وغيروا فيهما.

أما هذا القرآن، فلم يكل الله حفظه لأحد، وإنما تكفل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بحفظه، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١]، يعني: منيع، لاأحد يتجرأ عليه، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢].

فالنصيحة لهذا الكتاب:

أولًا: أن نعتقد أنه كلام الله، لا كلام غيره، منزلٌ من عند الله عَزَّوَجَلَّ، غير مخلوق؛ كما تقوله الجهمية والمعتزلة ومن سار في ركابهم، فهم لايؤمنون أنه كلام الله، أن الله تكلم به، وإنما يقولون: إنه مخلوق؛ خلقه الله؛ إما في اللوح المحفوظ، وإما في جبريل، وإما في محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وهذا كفرٌ بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن النصيحة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ: تعلمه وتعليمه؛ أن المسلم يتعلمه، وإذا تعلمه يُعلمه لغيره؛ كما قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(١)، «**خَيْرُكُمْ**»: خير هذه الأمة، «**مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» لغيره.

فيجب على المسلمين أن يتعلموا القرآن، وأن يعنوا بتعليمه للناس.

ومن النصيحة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ: تلاوته، والإكثار من تلاوته وترديده، وفي تلاوة القرآن أجرٌ عظيم؛ قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»(٢)، فإذا قرأ المسلم آية من كتاب الله أو سورة، أو سورًا، أو قرأ القرآن كله، فإن له بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها.

وكم عدد حروف القرآن؟ حروف القرآن كثيرة، فيكون الأجر لمن يتلو القرآن يكون أجرًا كثيرًا بعدد الحروف كل حرف بعشر حسنات، هذا خيرٌ كثير، فيكثر المسلم من تلاوته، يكثر من تلاوته محتسبًا الأجر من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يقرؤه، يتلوه في الصلاة الفريضة والنافلة، ويقرؤه خارج الصلاة.

ومن النصيحة لكتاب الله: إتقان القراءة؛ أن يحرص الإنسان على أن يتقن القراءة، فيقرأ على الوجه الصحيح بلغة القرآن الكريم، فلا يلحن، لا يلحن في القرآن؛ فينصب المرفوع، ويرفع المنصوب، ويغير الإعراب في كلام الله عَزَّوَجَلَّ، بل يقرؤه على الوجه الصحيح، وذلك بتعلمه وتلقيه، تلقيه عن المقرئين المتقنين، القرآن يؤخذ بالتلقي، ولا يؤخذ من المصاحف استقلالًا، وإنما يُقرأ من

(١) سبق تخريجه (ص٣٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

المصاحف لكن على المقرئين؛ لأن الكتابة في المصاحف تحتمل؛ لأنها كُتِبت على الرسم العثماني، تحتمل قراءات متعددة من القراءات السبع، فلا يمكن للإنسان أن يتقن قراءة القرآن إلا إذا تلقاه عن المقرئين الذين تلقوه عن مقرئين قبلهم وهكذا.

فلا يتعلم القرآن على المصحف؛ لأنه قد يقرأ على غير الوجه المطلوب، والرسم يحتمل عدة قراءات، فلابد من أخذه عن المعلمين؛ «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»، «تَعَلَّمَ»: دل على أنه يُتعلم، ويتلقى، لكن لا مانع أن المسلم يقرأ القرآن بحسب استطاعته، ولا يترك قراءة القرآن، ولو كان لا يقيم القراءة تمامًا، إذا كان هذا منتهى استطاعته، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»(١).

«لَهُ أَجْرَانِ»؛ أجر التلاوة، وأجر المشقة، فالمسلم لا يترك القرآن ولو بالتهجي، ولكن مهما أمكنه أن يتعلم القرآن على الوجه الصحيح، فإنه يجب عليه ذلك.

ومن النصيحة لكتاب الله: أن يُقرأ على الوجه الصحيح؛ لا يُخرج القرآن عن حدوده، لا يخرجه عن حدوده في التلاوة؛ بأن يبالغ في المدود، ويبالغ في أحكام التجويد، ويتشدق، بل يتوسط؛ خير الأمور الوسط، فلا يهمل التجويد، ولا يبالغ فيه، وإنما يتوسط، يعرف أحكام التجويد ويدرسها ويتقنها على أيدي المقرئين، ويقرأ قراءة مجودة، يمد في موضع المد، ويدغم في موضع الإدغام والغنة وغير ذلك، لكن من غير إسراف في المدود، وإسراف في الغنة، وإسراف

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

في تطبيق أحكام التجويد؛ لأن بعض الذين يقرؤون القرآن -خصوصًا الذين يحترفون القراءة- تجدهم يخرجون القرآن عن حدوده إلى ما يشبه الغناء، إلى ما يشبه الأغاني، وهذا ليس من النصيحة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، النصيحة أن تقرأه بصوت حسن، تحسن الصوت به، وتقرأ على الوجه الصحيح، ولا تهذه هذًا، وتسرع في قراءته(١)، ولا تمططه بالمدود الزائدة حتى تخرجه عن حدوده، بل عليك بالتوسط، وكلما حسنت الصوت بالقرآن، كان أعظم للأجر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ كَأَذَنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ»**(٢)، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»**(٣)، يعني: يحسن صوته فيه، يحسن صوته بالتلاوة، يحاول المسلم أن يحسن صوته بالتلاوة.

ومن النصيحة لكتاب الله: أن يتلو القرآن قاصدًا بذلك وجه الله عَزَّوَجَلَّ، يقصد الثواب والأجر بالتلاوة، لا يقصد الرياء والسمعة بتلاوته، وإنما التلاوة عبادة، التلاوة عبادة يحسن النية فيها لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يقرؤه من أجل الرياء والسمعة.

وكذلك لا يقرؤه من أجل التكسب الدنيوي بقراءته، وإنما يقرؤه تعبدًا لله عَزَّوَجَلَّ، وابتغاء الأجر والثواب من الله عَزَّوَجَلَّ، لا يتخذ قراءة القرآن حرفة يأخذ

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧٧٥)، ومسلم (٨٢٢)، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ اللَّيْلَةَ فِي رَكْعَةٍ، فَقَالَ: «هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ، لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ، فَذَكَرَ عِشْرِينَ سُورَةً مِنَ الْمُفَصَّلِ، سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ».

(٢) أخرجه مسلم (٧٩٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليها أجرًا في المآتم، قراءته في المآتم، أو قراءته على الجنائز، أو في الحفلات من أجل التكسب، وأخذ الأجرة، بل يقرؤه ويتلوه عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وطلبًا للأجر من الله عَزَّوَجَلَّ، هذا من النصيحة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن النصيحة لكتاب الله: أن يقرأه بتدبر لمعانيه؛ لا يقرؤه مجرد مرور على الآيات والسور، وإنما يقرؤه بتدبر لمعانيه وحضور قلب عند تلاوته، يحضر قلبه عند تلاوته، ويتدبر في آياته؛ في آيات الوعد، وآيات الوعيد، وآيات الأحكام، وآيات الأخبار والقصص، فيتعظ بتلاوته، ويتفقه في معانيه، هذا هو التدبر؛ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢]، فالتدبر مطلوب، وليس المقصود أنك تختم القرآن عدة ختمات في اليوم أو في الأسبوع أو في الشهر، بل المقصود: ماذا استفدت من القراءة؟ ماذا استفدت من القرآن؟ ماذا فهمت من القرآن؟ الله أنزله للتدبر والتفقه في معانيه؛ كان السلف الصالح لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يعرفوا معانيهن والعمل بهن، قال: «فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»(١)؛ العلم والعمل.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٦٦)، والطبري في تفسيره (١/ ٧٤) عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ».

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ». أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٧٤).

وأخرج ابن وضاح في البدع (٢/ ١٧٠)، والفريابي في فضائل القرآن (١/ ٢٤١)، وابن أبي شيبة =

فهذا من النصيحة لكتاب الله أنك تتفهم وتتدبر في معانيه بحسب ما أعطاك الله من الفهم، وتراجع كتاب التفسير الموثوقة، تراجعها وتقرؤها، تستعين بها على فهم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تعتمد على فهمك، بل لابد أن تراجع تفسير القرآن من كتب التفسير الموثوقة؛ لأن القرآن لا يُفسر بالرأي، وإنما يُفسر بالأثر.

تفسير القرآن على أربعة أوجه:

أولًا: تفسير القرآن بالقرآن؛ القرآن يفسر بعضه بعضًا، فما أُجمل في موضع تجده مفصلًا في موضع آخر، وما أُطلق في موضع تجده مقيدًا في موضع آخر، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، هذا الوجه الأول: تفسير القرآن بالقرآن.

الوجه الثاني: تفسير القرآن بسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا وَكل إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيان القرآن؛ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وقد بيَّنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، وذلك في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها تفسير القرآن.

الوجه الثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن الصحابة تلقوا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم تلاميذ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تلقوا تفسير القرآن منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيؤخذ التفسير من أقوال صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

= في مصنفه (٦/ ١١٧)، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّا أَخَذْنَا الْقُرْآنَ عَنْ قَوْمٍ، فَأَخْبَرُونَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْأُخَرِ حَتَّى يَعْمَلُوا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْعِلْمِ، قَالَ: فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا...»

الوجه الرابع: تفسير التابعين، وهم تلاميذ الصحابة، التابعون هم تلاميذ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعي: هو الذي لم يدرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما وُجِد في عهد الصحابة، وتعلم على الصحابة، هذا يسمى بالتابعي.

فيؤخذ تفسير التابعين؛ لأنهم تلقوا التفسير عن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال مجاهد بن جبر التابعي الجليل، يقول: «عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ مِنْ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ فَأَسْأَلُهُ عَنْهَا»(١)، لأن القرآن تلقى تفسيره عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فهذا نهج التابعين؛ أنهم أخذوا تفسير القرآن عن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين علموهم وتلقوا العلم عنهم، فهذه أوجه التفسير(٢).

ولا يجوز تفسير القرآن بالرأي، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(٣). «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ»(٤)، ذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في أول تفسيره، ذكر هذا الحديث في أول تفسيره(٥).

هذه وجوه التفسير التي يؤخذ تفسير معاني القرآن منها، وهي مدونة في كتب التفسير؛ مثل تفسير ابن جرير الطبري، تفسير ابن كثير، تفسير البغوي.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٨٥، ٣/ ٧٥٥)، والطبراني في الكبير (١١/ ٧٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٧/ ٢٨٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي -واللفظ له- (٢٩٥٢)، والنسائي في الكبرى (٧/ ٢٨٦)، من حديث جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٠-١١).

وقد أُلِف في تفسير القرآن بالسنة مؤلفات، منها: الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور للحافظ السيوطي وغيره من الكتب.

المهم أن طالب العلم يأخذ معاني التفسير من المصادر الصحيحة، لا يأخذها من رأيه، أو يأخذها من كتب أهل الضلال، بل يأخذها من المصادر الصحيحة للتفسير؛ حتى يضمن السلامة في تفسير القرآن الكريم، ويسلم من التأويل الباطل الذي تشتمل عليه بعض الكتب التي لا تتمشى على منهج السلف، لا سيما في أمور العقيدة وأمور الأسماء والصفات؛ فإن أهل المذاهب المنحرفة يفسرون كلام الله بحسب مذاهبهم، ويؤولون القرآن بحسب مذاهبهم، ولا يرجعون إلى الأصول والمصادر الصحيحة للتفسير؛ فمن النصيحة لكتاب الله: أن يُتلقى تفسيره من المصادر الصحيحة الموثوقة.

ومن النصيحة لكتاب الله: العمل بما في القرآن، وتعلم القرآن، وتلاوته، وتدبره، كل هذه وسائل، وسائل لأي شيء؟ للعمل؛ لأن المطلوب هو العمل، وإنما التعلم، تعلم القرآن وتلاوته وتدبره هذه كلها وسائل للعمل، للعمل بالقرآن؛ فلا يكفي أنك تقرأ القرآن وتتقن التلاوة، وتعرف التفسير، لا يكفي هذا، لابد من العمل، لابد من العمل بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ على الوجه الصحيح، ولن تستطيع العمل بكتاب الله على الوجه الصحيح، إلا إذا تعلمته وتلوته وتدبرته، وفهمت مراد الله منه بالتفسير الصحيح.

فالغاية والمطلوب هو العمل بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ بتحليل ما أحله، وتحريم ما حرمه، ورد المتشابه منه إلى المحكم؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧]، وقد ذكر العلماء

أن المحكم هو الواضح البين، وأما المتشابه فهو الذي يحتاج في بيانه إلى غيره، المتشابه يحتاج في بيانه إلى الآيات الأخرى التي تبين؛ مثل: العام والخاص، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ، هذا رد المتشابه إلى المحكم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]؛ فأهل الزيغ يأخذون الآيات المتشابهة التي ليست واضحة في نفسها، وإنما تحتاج إلى ردها إلى الآيات الأخرى التي تفسرها، هم يأخذونها، ولا يردونها إلى المحكم، يأخذونها على تشابهها، فيفتتنون ويفتنون الناس.

أما الراسخون في العلم؛ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]: المحكم والمتشابه، فيردون المتشابه إلى المحكم فيفسره ويوضحه؛ لأنه -كما سبق- أن القرآن يفسر بعضه بعضًا؛ فلا يأخذون المتشابه، ولكن يردونه إلى المحكم، فيفسرون كلام الله بكلام الله، أو بكلام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتضح معناه على الوجه الصحيح.

المتشابه لا يؤخذ وحده، ولا يستدل به وحده، وإنما يُفسر بالمحكم من الآيات، هذه طريقة الراسخين في العلم، وأما أهل الزيغ فإنهم يأخذون المتشابه، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، ويحرصون على المتشابه؛ لأنهم يريدون التضليل والتلبيس على الناس، فيحرصون على المتشابه، ويتركون المحكم، وهذه طريقة حذر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»(١)؛ سمى الله في قوله:

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧]، حذرنا الله منهم؛ لئلا يضلونا، ويقولون: إنهم يستدلون بكلام الله. وهذا باطل، لم يستدلوا بكلام الله؛ لأن كلام الله يفسر بعضه بعضًا، وإنما يستدل بكلام الله من يرد المتشابه إلى المحكم، هذا هو الذي يستدل بكلام الله، وأما الذي يأخذ المتشابه، هذا لا يستدل بكلام الله، وهذا مقصوده الزيغ والانحراف عن المنهج الصحيح، وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان، أهل شر، وأهل فتنة، وأهل زيغ وضلال، يريدون أن يغرروا بالناس، ويقولون: هذا القرآن، نحن نستدل بالقرآن. يأخذ آية متشابهة، ويستدل بها على مذهبه، أو على مقصوده، ويقول: أنا استدل بالقرآن.

فنقول له: لم تستدل بالقرآن، وإنما استدللت بالمتشابه.

الاستدلال التام بالقرآن هو: رد بعضه إلى بعض.

فهذه الوجوه التي ذكرتها من النصيحة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهناك أشياء كثيرة حول كتاب الله عَزَّوَجَلَّ لا يتسع المقام لذكرها، ومن أرادها، فليراجع كتب التفسير وكتب أهل العلم؛ لأجل أن يستفيد من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ على الوجه الصحيح.

وفق الله الجميع للعلم النافع والعمل الصالح والفقه في دينه.

نسأله سبحانه أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الدين النصيحة ٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

نستكمل الكلام إلى قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»[١]، وقد وصلنا إلى آخر الحديث من قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»، لما كان البشر بحاجة إلى الاجتماع؛ للتعاون على مصالحهم، وكان الاجتماع لا يتم إلا بقيادة تقوده، كان المسلمون كذلك بحاجة إلى الاجتماع حول قيادة منهم، وهم أئمتهم، والأئمة جمع إمام، والإمام هو الذي يُقتدى به، والأئمة في هذا الحديث هم ولاة الأمور الذين يقودون الرعية، وتلتف حولهم الرعية، ويصلحون من شأنها؛ بإنصاف المظلوم من الظالم، والحكم بينهم في النزاع، وكف عدوان بعضهم على بعض؛ فلا يقوم اجتماع إلا بإمام وقيادة أيًّا كان هذا الاجتماع، ولكن المسلمين أحرى ما يكون بهذا الاجتماع الذي تقوم به مصالحهم؛ الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٣]، ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٥]، ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال:٤٦]، والآيات في هذا كثيرة تحث على الاجتماع، وتنهى عن الفرقة؛ لأن اجتماع المسلمين تنتظم به مصالحهم، تقوى به كلمتهم، ويهابهم عدوهم.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥١).

فكان لابد من قيادة من المسلمين يلتفون حولها، ولا تستقيم هذه القيادة إلا بمناصحة الشعب والرعية والجماعة، مناصحتها لهم وائتلافها حولهم، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النصيحة: «وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»؛ لأن المجتمع الإسلامي ينقسم إلى قسمين: إلى قيادة، وإلى رعية، وهم العامة.

القيادة: هم الأئمة، والعامة هي الرعية؛ فتكون النصيحة للأئمة وللرعية؛ لأن المسلم عضو في هذا المجتمع، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»(١)، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ**»(٢)، شبههم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبههم بالجسد الواحد الذي يتألم بعضه لألم البعض الآخر.

وفي الحديث الآخر أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**»(٣).

وفي الحديث الآخر يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا**»(٤)، إلى غير ذلك من الأحاديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم -واللفظ له- (٢٥٨٦)، من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ**».

(٤) سبق تخريجه (ص٢٥).

فيجب على المسلم أن يكون ناصحًا لإمامه، وناصحًا لإخوانه.

النصيحة للإمام تتضمن أمورًا، ومن النصيحة للإمام تنبيهه على ما فيه المصلحة له وللرعية؛ تنبيهه وصدق المشورة معه بما فيه صلاح الراعي والرعية، وتنبيهه على ما يحصل من خطأ، ومن خلل ليتداركه.

ولكن هذه النصيحة للإمام تكون بالطريقة اللائقة التي تؤثر عليه، وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، والكلام الطيب، وأن تكون سرًا بين الناصح وبين المنصوح، النصيحة تكون سرًّا بين الناصح وبين المنصوح أيًّا كان هذا المنصوح، لاسيما إذا كان له ولاية وله سلطة، فينبغي أن يخاطب بالخطاب اللبق الذي يتقبله، ولا ينفر منه؛ فإن الله سبحانه لما أرسل موسى وهارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ إلى فرعون الطاغية الجبار، ماذا قال لهما؟ قال: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤]، ﴿ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾؛ لأنه صاحب سلطة وصاحب قوة، إذا عنفت عليه، فإنه يستعمل قوته وسلطته، وإذا خاطبته بالكلام اللين، فإن هذا يؤثر عليه؛ ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾، فإذا كان هذا مع فرعون الطاغية الكافر، فكيف بولاة أمور المسلمين؟ إنهم أولى بأن يقال لهم القول الطيب والكلام المؤثر الذي ليس فيه تشهير ولا تنفير، وهذا يكون سرًا بين الناصح وبين الإمام.

أما الكلام في شأن ولاة الأمور في غيبتهم، الكلام بهم، وتلمس عثراتهم، وبيان أخطائهم على الناس، من غير أن يكون ذلك بطريقة مباشرة معهم، الكلام فيهم في المجالس أو عند الناس، فهذا يحدث شرًّا وفتنة، ويُبغض الراعي للرعية، وهذا شأن النمامين والمغتابين، فهذا العمل لا يعتبر نصيحة، وإنما يعتبر

غيبة ونميمة وتفريقًا بين المسلمين، ولا يترتب عليه مصلحة أبدًا، إنما يترتب عليه مضرة.

فنصيحة ولي الأمر تكون مباشرة بين الناصح والمنصوح سرًّا، لا يدري عنها أحد، وتكون بكلام طيب مؤثر من غير إثارة، ومن غير تعنيف، هذا من النصيحة لولاة الأمور.

ومن النصيحة لولاة الأمور: طاعتهم في غير معصية؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء:٥٩]، فأمر بطاعتهم مع طاعته سبحانه وطاعة رسوله؛ لما في ذلك من المصلحة، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ أَطَاعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي**»(١)، إلا إذا كان أمر ولي الأمر بمعصية، فـ«**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»(٢). وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»(٣)، فإذا أمر بمعصية، فإنه لا يطاع في تلك المعصية، ولكن لا يرتفع أمره، ولايته باقية، ويطاع في غير هذه المعصية، يطاع في غيرها من الأوامر الأخرى التي ليس فيها معصية.

وولي الأمر يطاع في غير المعصية، ويُصبر على ما يصدر منه من ظلم، أو من تصرف غير لائق، حتى في أمور دينه، حتى لو كان غير مستقيم في أمور دينه ما لم يصل إلى حد الكفر، فإذا كان عنده مخالفات في أمور الدين، ولا تصل إلى حد الكفر، فإنه يطاع، ولا تنتقض ولايته؛ لما في الصبر عليه، ولما في طاعته

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٤٠).
(٢) سبق تخريجه (ص٣٢٢).
(٣) سبق تخريجه (ص٣٢٢).

ولو كان غير مستقيم تمامًا؛ لما في ذلك من المصلحة الراجحة على الخروج عليه وشق عصا الطاعة؛ لأن الصبر على ولاة الجور، الصبر على طاعتهم فيه من المصلحة ما يترجح على الخروج عليهم؛ لأن الخروج على ولاة الأمور بحجة أنهم عصاة هذا فعل الخوارج الذين حذر منهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هذا ليس من مذهب أهل السنة والجماعة، هذا مذهب الخوارج الذين يخرجون على ولاة الأمور إذا جاروا أو ظلموا، وأيضًا الخروج عليهم يترتب عليه من المفاسد أكثر مما يترتب على الإنكار عليهم في هذه المخالفة، يترتب عليه سفك الدماء، يترتب عليه تفرق شمل المسلمين، يترتب عليه ضياع جماعة المسلمين؛ كما حصل في شواهد التاريخ، ولهذا أوصى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر حياته، قال: «**أُوصِيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ**»[1]،عبد يعني: مملوك؛ لما في السمع والطاعة لولي الأمر من الخير، ولو كان هو في نفسه عبدًا مملوكًا، أو كان فيه نقص من وجه من الوجوه لا يصل إلى حد الكفر، أما إذا وصل الأمر إلى الكفر، فإنه لا يصلح أن يكون وليًّا للمسلمين، لا يكون كافر وليًّا للمسلمين، ولهذا قال: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، الخطاب للمسلمين؛ بأن يكون ولي الأمر مسلمًا من المسلمين، وفي هذا الحديث: «**وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ**»، يقول: «**وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ**»، فيشترط أن يكون الإمام وولي الأمر مسلمًا.

ولما ذكر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يحصل من بعض الولاة من الأمور المنكرة، لما ذكر ما يحصل منهم من الأمور غير اللائقة، قالوا: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ،**

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»[١]، وفي رواية: «إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٢].

فيجب الصبر على ولاة الأمور وطاعتهم في غير معصية الله؛ الصبر على ظلمهم وجورهم؛ لما يترتب على ذلك المصلحة الراجحة من اجتماع كلمة المسلمين وهيبة المسلمين، وتلافي النزاع، وتلافي الشقاق، وتلافي انحلال الأمر.

ومن النصيحة لولاة أمور المسلمين: أنهم إذا أسندوا إليك أمرًا من الأمور، من أمور وظائف الدولة، إذا كنت موظفًا ومتوليًا لأمر من أمور الدولة، فإنه يجب عليك أن تؤدي العمل الذي وُكِّل إليك من غير تقصير، ومن غير خلل، الموظف يقوم بأعماله الوظيفية على الوجه المطلوب، ولا يضيع أعمال الوظيفة، ويتهاون بها؛ فتضيع مصالح المسلمين بهذه الطريقة.

فيجب على كل موظف -أيًّا كانت وظيفته كبيرة أو صغيرة- أن يقوم بأعمالها الوظيفية على الوجه المطلوب، ولا يقصر في شيء منها، هذا من النصيحة لولي الأمر؛ القيام بالأعمال؛ لأن القيام بالأعمال الوظيفية فيه مصلحة للمجتمع مصلحة للرعية، وفيه طاعة لولي الأمر.

فلو أن كل موظف قام بالعمل على الوجه المطلوب، لتكاملت مصالح المسلمين، وانتظم أمرهم، وإنما يحصل الخلل من تساهل الموظفين، وعدم قيامهم بوظائفهم، وإخلالهم بأعمالهم، فهذا من النصيحة لولي الأمر أن تقوم بالعمل الوظيفي الذي أُسند إليك من أمور المسلمين.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٥)، من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٥)، ومسلم (١٧٠٩)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك من النصيحة لولي الأمر: أنه إذا ائتمنك على شيء من أموال المسلمين، إذا ائتمنك على شيء من أموال الدولة الإسلامية أن تكون أمينًا في ذلك، حافظًا لهذه الأمانة؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، فيجب على من وُلي وائتمن على شيء من أموال الدولة أن يكون أمينًا ناصحًا، يحفظ ما اُستحفظ عليه على الوجه المطلوب، ولا يضيعه، هذا من النصيحة لولي الأمر، والنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذر من الرشوة، ولعن الراشي والمرتشي[1]، فالموظف الذي يأخذ الرشوة هذا غاش لولي الأمر، وغاش للرعية، غاش لأئمة المسلمين وعامتهم، قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَدَايَا الْعُمَّالِ غُلُولٌ**»[2].

فالموظف لا يجوز له أن يأخذ شيئًا من المال العام الذي تولى حفظه، ولا أن يأخذ شيئًا من الرعية على سبيل الرشوة، وإنما يكتفي بما يفرض له ولي الأمر من الراتب الحلال في مقابل عمله، وأما أنه يأخذ شيئًا من المال العام، أو يأخذ شيئًا من الرعية، فهذا إذا أخذ شيئًا من المال العام، فهذا غلول، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٦١]، وبيَّن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الغال الذي يأخذ من المال العام بدون إذن ولي الأمر، بيَّن صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يأتي به يوم القيامة يحمله على رقبته؛ إن كان بعيرًا، إن كان شاة، إن كان غير ذلك يأتي به يحمله[3]؛ ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٦١].

---

(١) سبق تخريجه (ص١٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٩/ ١٤)، والبزار في مسنده (٩/ ١٧٢)، والبيهقي في السنن الصغير (٤/ ١٣٥)، من حديث أبي حميد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢)، عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ =

فالأخذ من المال العام هذا غلول، والأخذ من الرعية في مقابل إنجاز أعمالهم ومعاملاتهم هذا رشوة، هذا سماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرشوة، ولعن الراشي والمرتشي، وهذا خيانة لولي الأمر، وخيانة لعامة المسلمين.

ومن النصيحة لولاة الأمور: الدعاء لهم بالصلاح والاستقامة؛ لأن صلاحهم صلاحٌ للمسلمين، فيدعو لهم بالصلاح والتوفيق، هذا من النصيحة لولاة الأمور، وأما الكلام فيهم وسبّهم وتنقصهم، فهذا من الخيانة لولاة أمور المسلمين، وأما النصيحة لعامة المسلمين -للرعية-، أنت واحد من الرعية، والرعية إخوانك، فيجب عليك أن تنصح لهم، تنصح لهم إذا استشاروك في شيء، من استشارك يجب عليك أن تنصح له، وأن تبدي له ما ترى المصلحة فيه، ولا تشر عليه بشيء ترى أنه غير صالح، هذا من الخيانة، إذا استشارك أخوك على شيء، فإنك تبدي له النصيحة، وتجتهد في بيان ما ترى أنه الصلاح، وإذا ائتمنك أخوك على سر، فإنك لا تفشي سره، هذا من النصيحة له؛ أن تحفظ السر الذي يبديه لك، ولا تفشه.

وكذلك من النصيحة لعامة المسلمين: الصدق في التعامل معهم في البيع، في الشراء، إذا تعاملت معهم ببيع أو شراء، فإنك تكون ناصحًا، لاتغش إخوانك المسلمين. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»[1]، فتصدق في

= رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنَ الأَزْدِ، يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأُتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، قَالَ: فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ».

(١) سبق تخريجه (ص١٣٣).

المعاملة، تصدق في البيع والشراء. مرَّ ﷺ يومًا على بائع طعام، إنسان يبيع الطعام، عنده كومة من الطعام، فأدخل ﷺ يده فيها، فأدرك في أسفلها بللًا، يعني: رطوبة. فقال: «**مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ فَقَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ**»، يعني: المطر. قَالَ: «**أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**»(١)، فمن النصيحة أن تبين العيوب التي في السلعة، إذا كنت تبيع وتشتري، لا تكتم العيوب، وتقول: هذه السلعة طيبة وسليمة وليس بها عيب، بينما بها عيب، لابد أن تبيّن؛ «**أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ**»، يعني: هذا العيب ألا أظهرته حتى يعرفه الزبون، ويقدم على بصيرة وعلى بيِّنة، هو يشتريه على أنه سليم، ثم فيما بعد يتبين أنه معيب؛ لأنك كتمت العيب، هذا غش، عدَّه النبي ﷺ غشًا، وتبرأ ممن فعله، وقال: «**مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**»(٢)، فيجب على الذين يتعاملون في أسواق المسلمين أن يتعاملوا على الصدق، فكما لا ترضى ألا يغشك أحد، فكيف ترضى أنت أن تغش الناس؟!

الواجب أن تعامل إخوانك كما تعامل نفسك، قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٣)، هذا هو النصيحة لعامة المسلمين.

كذلك من النصيحة لعامة المسلمين: أنك إذا رأيت نقصًا على أخيك في دينه، أو في أمر من الأمور، فإنك تبين له، تنصحه، تنصحه سرًّا بينك وبينه، تبين له الخطأ الذي هو واقع فيه؛ حتى يتداركه، هذا من النصيحة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (ص١٣٤).

(٣) سبق تخريجه (ص٢٩٤).

من النصيحة لعامة المسلمين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم السكوت عليه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»[(١)].

ومن النصيحة لعامة المسلمين: حفظ أعراضهم، وعدم الكلام في أعراضهم بغيبة، أو نميمة؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»[(٢)]، فيجب أن تحترم إخوانك المسلمين، هذا من النصيحة لهم: حفظ أعراضهم، وعدم الاعتداء عليهم بغيبة أو نميمة، أو وشاية؛ فهم إخوانك، فكما لا ترضى أن أحدًا يغتابك، أو أحدًا ينم عليك، فأنت أيضًا ترضى لإخوانك ما ترضاه لنفسك، هذا هو مقتضى النصيحة لعامة المسلمين.

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، والفقه في دينه، والاستقامة على طاعته، وأن يصلح أحوال المسلمين، أن يصلح ولاة أمور المسلمين، وأن يصلح مجتمعات المسلمين، وأن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) سبق تخريجه (ص٢٨١).

السنة ومكانتها

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

فإن اللقاء في مثل هذا الوقت المبارك، وفي مثل هذا المكان المبارك في بيت من بيوت الله، وبعد أداء فريضة من فرائض الله، وانتظار فريضة أخرى لهو من أطيب اللقاءات؛ لنتذاكر فيه ما تيسر فيه من أمور ديننا؛ ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠].

وكلمتنا في هذا اللقاء -كما سمعتم- من عنوانها أنها السنة ومكانتها في الإسلام، والمراد بالسنة: سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وهي ما ثبت عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من قول، أو فعل، أو تقرير[(١)]، هذه هي السنة. والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣]، والهُدى: هو العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بُعِث بالعلم النافع، والعمل الصالح، وإذا اجتمع العلم النافع والعمل الصالح، تمت السعادة في الدنيا والآخرة؛ فإن العلم

(١) انظر: الخلاصة في معرفة الحديث (ص٢٧)، وفتح المغيث للسخاوي (١/ ٢٥)، وتدريب الراوي للسيوطي (١/ ٤١)، والتعريفات للجرجاني (ص١٢٢).

دون عمل لا فائدة منه؛ بل يكون حجة على الإنسان، وكذلك العمل بدون علم لافائدة منه؛ لأنه يكون ضلالًا.

إذًا: لابد للمؤمن من العلم والعمل، وهذا هو الذي بعث الله به رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ حيث بعثه ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣]، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، فأعظم منَّة امتن الله بها على المؤمنين هي بعثة هذا الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بشيرًا ونذيرًا، ومبلغًا عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وسراجًا منيرًا، أرسله رحمة للعالمين، وأرسله إلى الناس كافة، فوجبت طاعته واتباعه، وامتثال أمره واجتناب نهيه؛ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠]، وقال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

والآيات في وجوب طاعته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كثيرة وشهيرة، وليس الغرض هو إحصاءها، وإنما الغرض التنبيه عليها وذكر ما تيسر منها.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»(١)، فطاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعه والاقتداء به أمرٌ لابد منه للمؤمن؛ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، تارة يأمر الله بطاعة الرسول مع طاعته جَلَّ وَعَلَا مثل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩]، وتارة يأمر بطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفردًا مثل قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]؛ لأن طاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تابعة لطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يأمر إلا بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه، فهو مبلغٌ عن الله -جل شأنه.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، فطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعه والاقتداء به، واحترامه وتوقيره، ومحبته أشد من محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين واجب على كل مسلم؛ كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٢)، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى

---

(١) سبق تخريجه (ص١٨٩).
(٢) أخرجه مسلم (٤٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الأعراف:١٥٧]، هذه أوصاف الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٧، ١٥٨].

والآيات في هذا كثيرة، غرضنا التنبيه على ما تيسر منها، ومن أراد استقصاءها، فليراجع كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وليتدبره، يجد فيه كثيرًا من الآيات تأمر باتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتداء به، وتقديم شرعه ودينه وسنته على كل شيء.

فسنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي نحن بصدد الحديث عنها هي ما صح عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من:

* قول صدر منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أمرًا أو نهيًا.
* أو فعل فعله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأفعال التي شأنها التشريع للأمة.

* أو تقرير أقر عليه من رآه يعمله، وهو من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوى، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤]، فإذا أمر بأمرٍ، أو نهى عن نهيٍ، فإنما ذلك من قِبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يفعل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العبادات والطاعات إلا ما شرعه الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه معصوم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، معصوم من الخطأ، ولا يقر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدًا إلا على حق، أما من لم يكن على حق، من كان على خطأ، فإن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبين خطأه، وينهاه، ويأمره بالحق والصواب.

هذه سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي ما ثبت من الأحاديث التي رواها الأئمة والرواة الأثبات، وهي مدونة في دواوين السنة وكتب الأحاديث المحفوظة المعتنى بها من قِبل حفاظ الإسلام وأئمة الدين، هذه الأحاديث الثابتة عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي سنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشتملة على قوله، وفعله، وتقريره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وواجبنا نحو هذه السنة: واجبنا أن نطلع عليها، وأن نتدبرها، ونقرأها، ونعمل بها؛ لأن السنة النبوية تأتي في الدرجة الثانية بعد القرآن؛ لأن أصول الأدلة عند المسلمين:

أولها: كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو المصدر الأول.

وبعده سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن السنة تفسر القرآن، وتبينه، وتوضح مجمله، فالسنة مبينة للقرآن، والله جَلَّ وَعَلَا وَكل بيان هذا القرآن إلى

رسوله ﷺ، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، فالرسول ﷺ يبين كتاب الله، ويفسره.

وفي القرآن آيات تدل على أهمية سنة الرسول ﷺ، وتعظمها، وتعلي من شانها، منها:

قوله في شأن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤]، فهذه شهادة من الله جَلَّ وَعَلَا لرسوله ﷺ أنه لا ينطق بكلام إلا بوحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه لا ينطق من قِبل هوى نفسه، وإنما يتكلم بما أوحاه الله إليه من أمور هذا الدين مبلغًا ومبينًا للناس.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧] دليل على وجوب العمل بسنة رسول الله ﷺ؛ لأن الله أمرنا أن نأخذ ما أعطانا، وأن نترك ما نهانا عنه، نأخذ ما أعطانا؛ بأن نفعل ما أمرنا به ﷺ من الطاعات والقربات، ونترك ما نهانا عنه من المعاصي والسيئات والمخالفات، ونأخذ ما أعطانا من الحلال، ونترك ما نهانا عنه من الحرام في المعاملات، وفي غيرها من شؤون الحياة، فما أعطانا رسول الله ﷺ من الأوامر والنواهي، ما أعطانا رسول الله ﷺ وأذن لنا فيه من الأوامر والمباحات والطاعات نأخذه، وما نهانا عنه من المعاصي والمخالفات نتركه؛ ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، شديد العقاب لمن لم يمتثل ما أمره الله من طاعة هذا الرسول ﷺ وترك مخالفته.

من لم يمتثل، فإن الله شديد العقاب؛ لأن هذا الذي لم يمتثل استحق العقاب، أما الذي امتثل وأطاع الرسول فيما أمر به ففعله، وأطاعه فيما نهى عنه فتركه، هذا يستحق الثواب؛ لأنه امتثل ما أُمِر به.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [الجمعة:٢]، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: فسرها العلماء بأن المراد بها السنة الثابتة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]، فدلت هذه الآيات على أن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شريعة واجبة الامتثال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٣٦].

فإذا أمر الله جَلَّ وَعَلَا بأمرٍ، أو أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمرٍ، فإنه يجب على المؤمنين، يجب على المؤمن والمؤمنة امتثال هذا الأمر، ومن لم يمتثل، فقد عصى الله ورسوله؛ ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٣٦]، أما من أطاع الله ورسوله، فقد اهتدى وأصاب، ومن عصى الله ورسوله، فقد ضلَّ؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا»[(٢)]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾، يعني:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٥٧٥-٥٧٦)، وتفسير الماوردي (١/ ٢٠٨)، والقرطبي (٢/ ١٣١)، وابن كثير (١/ ٤٤٤- ٤٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٩٧)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يستأذنوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور:٦٢، ٦٣]: تنبهوا لهذا! ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾، يعني: أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، هذا وعيد من الله جَلَّ وَعَلَا للذين يخالفون سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعيدٌ لهم بإحدى عقوبتين: إما أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم، هم معرضون لإحدى المصيبتين:

إما فتنة، والفتنة هي الزيغ عن الحق؛ كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ»(١)، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥]، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فالذي يبلغه الحق، ولم يمتثل هذا يصاب -والعياذ بالله- بالزيغ، الذي يرد الحق، ويتبع هوى نفسه، ولا يقبل سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استبانت له، ويستمر على ما هو عليه من الخطأ؛ تعصبًا لهواه، واتباعًا للمضلين من الخلق هذا يُبتلى بالزيغ، يعني: بفساد القلب، فلا يقبل الحق بعد هذا؛ عقوبة له، وهذه هي الفتنة.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٤٧).

والفتنة -والعياذ بالله- من أعظم العقوبات، كون الإنسان يُقتل، أو تُقطع أطرافه أسهل عليه من أن يُفتن في قلبه؛ لأن القتل غايته أن يفارق الإنسان هذه الحياة، والإنسان لابد أن يفارق الحياة، لابد من الموت.

أو تُقطع يده، أو عضو من أعضائه هذا سهل وقد يعيش بدون يد، وبدون عضو، لكن إذا فسد قلبه -والعياذ بالله-، فما قيمة حياته؟ تصبح حياته وبالًا عليه، والسبب في فساد قلبه: هو أنه بلغته سنة رسول الله ﷺ فرفضها، واستمر على ما هو عليه من الخطأ، فعصى الله على بصيرة، وعلى علم؛ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣]، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣]، هذه المصيبة الأولى، وذكرها الله هي الأولى؛ ليدل على أنها أشد.

ثم ذكر بعدها العقوبة الثانية: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يعني: مؤلم، والعذاب الأليم هو: ما يصيبهم من العقوبات في الدنيا من القتل، والأسر، والتشريد، وتسليط الأعداء؛ فإن الأعداء لم يتسلطوا على المسلمين إلا بمخالفتهم سنة نبيهم ﷺ، أو قتل، أو نهب، أو سلب، أو خوف.

كل ما يصيب الناس من الآفات في هذه الدنيا فإنما هو بسبب ذنوبهم ومخالفتهم لنبيهم ﷺ؛ كما قال ﷺ: «**فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**»(١). وقد يكون العذاب الأليم في الآخرة، وهو أشد من عذاب الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحاصل: أن من يخالف سنة الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعدما تبينت له، من يخالفها تعصبًا لهواه، ورغبة عن السنة، فإنه مهدد بهاتين العقوبتين: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، ولهذا كان السلف يعظمون سنة رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويقدمونها على قول كل أحد.

فهذا عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما ذكر للناس مشروعية فسخ الحج إلى العمرة، وأن الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمر بذلك، وكان قد خالف في هذه المسألة من خالف من الصحابة، قال لهم: «أَقُوْلُ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ! وَتَقُوْلُوْنَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟! يُوْشِكُ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ؛ أَقُوْلُ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ، وَتَقُوْلُوْنَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!»(١)، هذا دليل على أن السلف كانوا لا يبغون بسنة رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بديلًا، ولا يتمسكون بالأقوال، وإن كانت صادرة من أئمة كبار وأتقياء وأوفياء وأبرار، لكن لا، لا يقدمون على سنة رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شيئًا أبدًا؛ «أَقُوْلُ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ! وَتَقُوْلُوْنَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!»، هذا إنكار عظيم، وقال: «يُوْشِكُ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ».

وهذا الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ يقول: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ؛ وَيَذْهَبُوْنَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ!!»(٢)، يعني: سفيان الثوري رَحِمَهُٱللَّهُ، وهو إمام جليل وإمام عظيم وإمام تقي نقي رَحِمَهُٱللَّهُ مشهود له بالفضل، ولكن ليس لأحدٍ قول

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٢٨ رقم ٣١٢١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: «تَمَتَّعَ النَّبِيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا يَقُولُ عُرَيَّةُ؟ قَالَ: يَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ؛ أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَيَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!».

(٢) سبق تخريجه (ص٢٤٧).

مع رسول الله ﷺ. «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ؛ وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ!! وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣] أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ»[(١)].

وهذا الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ مَنِ اسْتَبَانَتْ لَهُ سُنَّةٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَدَعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ»[(٢)]، ويقول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا صَحَّ الحَدِيْثُ، فَهُوَ مَذْهَبِي، وَإِذَا صَحَّ الحَدِيْثُ فَاضْرِبُوا بِقَولِي الحَائِطَ»[(٣)].

ويقول الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلنا رادٌّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر»[(٤)]، يعني: رسول الله ﷺ.

ويقول الإمام مالك أيضًا: «أَوَكُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِجَدَلِ هَؤُلَاءِ؟»[(٥)]، هكذا يقول الإمام مالك.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٤٧).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٢)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٣٥).

(٣) يروى عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٠١)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤٨)، ومجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١١)، وحلية الأولياء (٩/ ١٠٧)، والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص٥٧).

(٤) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٣١٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٥٠٣)، والبداية والنهاية (١٤/ ١٤٠)، والآداب الشرعية (٢/ ٢٩٣)، وإعلام الموقعين (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٥) انظر: اعتقاد أهل السنة (١/ ١٤٤)، وحلية الأولياء (٦/ ٣٢٤)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٨٩)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٨).

يقول: «كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ»، يعني: أشد جدلًا.

«مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِجَدَلِ هؤلاء؟!»، هذا إنكار من الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أنه لا يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يترك ما نزل به جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فلا ينبغي أن الإنسان يضعه على الأرض، وأن يجعله تكية يتكئ عليه، ويكتب عليه، هذا لا ينبغي؛ لأنه لا يتناسب مع عظمة القرآن الكريم.

إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(١).

هذا حديث عظيم بيَّن فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحلال والحرام؛ بأن كلًّا منهما بَيِّنٌ.

«بَيِّنٌ»، يعني: واضح من كتاب الله ومن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد بيَّن الحلال والحرام في كتابه، وكذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن لأمته الحلال والحرام، فالحلال ما أحله الله، ما دل الدليل على أنه حلال؛ مثل: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة:٢٧٥]، ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:٥٧]،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [الأنعام:١٥١]، إلى آخر الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام، ذكر الله فيها المحرمات، محرمات كثيرة في ثلاث آيات: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأنعام:١٥١]، ثم ذكرها، وفي قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ [الإسراء:٢٢]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩]، كل هذه محرمات وضحها الله في كتابه.

كذلك الحلال؛ ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١]، ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦]، ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾: ما أُخِذ حيًّا من السمك، ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾: ما مات فيه، كله حلال، ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ﴾، هناك أشياء نص الله على حلها، وأشياء نص الله على تحريمها، وهناك أشياء لم يُنص على تحريمها، ولكن عموم الأدلة يقتضي تحريمها، هذه حرام. هناك أشياء نص الله على حلها، وأشياء لم ينص على حلها، لكن عموم الأدلة تقتضي حلها، فهذه لا إشكال فيها؛ الحلال يؤخذ، والحرام يُجتنب، هذا شأن المسلم مع الحلال والحرام؛ أنه يأخذ الحلال الطيب، ويترك الحرام الخبيث، هناك أشياء مشكلة؛ لا يُدرى هل هي من الحلال أو من الحرام، مترددة بين كونها من قسم الحلال، أو كونها من قسم الحرام، مترددة؛ لاختلاف الأدلة فيها؛ فبعض الأدلة يدل على أنها حلال، وبعضها يدل على أنها حرام، فهي مشتبهة بين الحلال والحرام، هذه موقف المسلم منها أنه يتوقف عنها.

«لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ»، فدل على أن القليل من الناس يعلم، وهم العلماء، العلماء يعلمون بما أتاهم الله من العلم يعلمون هذه المشتبهات؛ هل هي من الحلال، أو من الحرام، وأما العوام، وأما طلبة العلم والمبتدئون الذين لا يستطيعون تمييز هذه الأشياء المشتبهة طريقتهم: التوقف فيها.

«فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ»، اتقى الشبهات، يعني: تجنبها، الأشياء المشتبهة التي لا يُدرى هل هي حلال أو حرام يتجنبها، تتقيها، مثلما تتقي الشوك والرمضاء تتقي -أيضًا- هذه المشتبهات، وفي الحلال غنية -ولله الحمد- في الحلال البيِّن غنية للمسلم.

«فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ»، يعني: تركها، وقى نفسه منها.

«فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ»، أي: طلب البراءة، طلب البراءة لدينه؛ لئلايتناول شيئًا محرمًا، فيضر هذا بدينه، لا تكون هذه الأشياء المشتبهة من الحرام فتضر بدينه.

وكذلك عرضه: الناس يتكلمون فيه إذا رأوا أنه لا يتورع ولا يتوقف، يعني: كل شيء عنده حلال، لا يتوقف عن شيء، الناس يتكلمون فيه، يقولون: هذا ليس عنده دين، لا يخاف الله.

ولا شك أن العرض مطلوب أن الإنسان يقي عرضه من الناس مثلما يقي دينه، الدين هذا هو الأصل، والعرض كذلك لا يعرض نفسه للقيل والقال، ومن دعا الناس إلى سبِّه سبوه بالحق وبالباطل، الإنسان يخاف على عرضه، العرض غال، ليس العرض رخيصًا، فيتجنب هذه الأشياء؛ محافظة على دينه، ومحافظة على عرضه.

«وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ»: الإنسان الذي لا يتورع، ويأخذ المشتبهات هذا إذا تساهل في المتشبهات، تساهل في الحرام.

«وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ»: لم يتق، تجرأ على المشتبهات، أخذها وهو لا يدري هل هي حلال أو حرام، تعود، ثم يسهل عليه غشيان الحرام، والأول الذي اتقى الشبهات هذا حماه الله عَزَّوَجَلَّ، جعل بينه وبين الحرام حاجزًا، وهو الورع والتقى.

فالإنسان إذا لم يتبين له الشيء؛ هل هو من الحلال أو من الحرام، يتوقف، ولا يُدخل نفسه في شيء لا يدري عنه، لا يمشي الإنسان مع طريق لايدري عنه، ربما يقع في حفر، ربما يقع في نار، في هلاك، لا يمشي إلا مع طريق يعرفه وواضح أسلم له.

فهذا منهج بيِّنه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لنا في مسألة الحلال والحرام، والذي لايُدرى من أيهما؛ أننا نأخذ الحلال، ونترك الحرام، ونتوقف عن المشتبه؛ احتياطًا، وتورعًا.

قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى»، من عادة العرب والملوك والخلفاء أنهم يحمون جانبًا من المراعي من المواشي التي لبيت المال، هذا في الإسلام، كان الخلفاء يحمون جانبًا من المراعي لمواشي الجهاد ترعى فيه، ويمنعون الناس من الرعي فيه[1]، أما في الجاهلية، فكانوا يحمون جانبًا من

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٣٧٠)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «لَا حِمَى إِلَّا للهِ وَلِرَسُولِهِ. وَقَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَمَى النَّقِيعَ، وَأَنَّ عُمَرَ حَمَى السَّرَفَ وَالرَّبَذَةَ».

المراعي لأنفسهم، يختصون به دون الناس، يستأثرون به، هذا من أمور الجاهلية؛ لأن الناس: «شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْمَاءِ، وَالْكَلَأ، وَالنَّارِ»(١)، لا يجوز لأحدٍ أن يمنع الناس من الرعي في الفلاة؛ الكلأ المباح.

لكن ولي أمر المسلمين لأجل المصلحة العامة له أن يحمي جانبًا من المراعي يخصصه لمواشي الجهاد ومواشي بيت المال؛ لأنه لمصلحة الجميع، مصلحة الناس جميعًا، لا يحميه لنفسه هو، لا، إنما يحميه لمصلحة الناس، هذا الحمى في الجاهلية، والحمى في الإسلام.

فالذي يأتي ويرعى بمواشيه عند حدود الحمى يوشك أنه تدخل مواشيه في الحمى، كذلك الذي يأخذ المشتبهات هذا مثل الذي يرعى حول الحمى، نفسه لا تقف عند المشتبهات، بل تطمح إلى الحرام؛ لأنه لم يجعل بينها وبين الحرام فاصلًا، فإذا استكملت المباحات، تطلعت إلى المحرمات، هذه النفس، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، مثل مواشي الراعي، إذا قرب من الحمى، رعت مواشيه في الحمى، ومن الحزم للراعي أن يُبعد مواشيه عن الحمى؛ حتى لا ترعى فيه، كذلك المسلم يُبعد نفسه عن الحرام؛ لئلا تقع في الحرام.

ثم قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى»، ملوك الدنيا، كل ملك له حمى.

والله جَلَّ وَعَلَا له حمى، فما هو حمى الله؟ حمى الله هو محارمه التي حرمها على عباده، هذه حمى حماها، ومنع من الدخول فيها، ولذلك تسمى حدود الله، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٧٧)، من حديث رجل من المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه ابن ماجه (٢٤٧٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لاحظ! ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾: لا تقرب حدود الله المحرمات، ابعد عنها؛ لئلاتقع فيها، فالحديث يوافق الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧]، ابعد، ابعد نفسك عنها، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧]؛ «كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ».

ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً»، يعني: قطعة من اللحم، هذه القطعة الصغيرة إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت هذه القطعة، فسد الجسد كله، ما هي هذه القطعة؟ هي القلب، قلب الإنسان إذا صلح، صلح جسده، وإذا فسد، فسد جسده، فهذا فيه العناية بالقلب بالدعاء، كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر من قوله: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»(١).

وكذلك من أسباب صلاح القلب: الأعمال الصالحة، الأعمال الصالحة يصلح بها القلب، الأعمال السيئة يفسد بها القلب، كلما عمل سيئة، أثرت في قلبه حتى يُختم على قلبه، إذا كثرت سيئاته يُختم على قلبه، وقبل أن يختم عليه كلما أذنب ذنبًا، ينكت نكتة سوداء في قلبه هذا الذنب، ثم يزيد، يزيد، حتى يغطي القلب، وهذا هو الختم والران؛ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

ومن أسباب فساد القلوب: الأعمال السيئة.

ومن أسباب فساد القلوب: أكل الحرام، أكل الحرام يفسد القلب.

---

(١) أخرجه أحمد (١٩/ ١٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٣٧)، والترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من أسباب فساد القلوب: الغفلة عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

من أسباب فساد القلوب: الاشتغال باللهو من المعازف والمزامير والأغاني، هذه تفسد القلوب.

من أسباب فساد القلوب: السمع والبصر، السمع منفذ للقلب إذا استعملته في الحرام، فسد عليك القلب، والبصر إذا أطلقته في الحرام، يفسد عليك القلب، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، ففساد القلوب له أسباب.

وصلاح القلوب له أسباب: الأعمال الصالحة تصلح القلوب، ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، الإكثار من ذكر الله يصلح القلوب، تلاوة القرآن بالتدبر تصلح القلوب، أكل الحلال الطيب يصلح القلب.

هذه المضغة إذا فسدت، فسد الجسد كله، وإذا صلحت، صلح الجسد كله؛ لأنها ملك الأعضاء، القلب هو ملك الأعضاء، فإذا صلح الملك، صلحت الرعية، وإذا فسد الملك، فسدت الرعية، والناس على دين ملوكهم كما يقولون.

هذا مما يعطي الإنسان أنه يحرص على قلبه، يحرص على أسباب صلاح قلبه، ويتجنب أسباب فساد القلب؛ قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فإذا فسد القلب، وعمى القلب، فسد الجسد كله.

هذا فيه حث على أن الإنسان يحرص على ما يصلح قلبه؛ من الأقوال والأعمال، والمآكل والمشارب، وما يسمع وما يبصر، يحفظ قلبه، ولا يتساهل في هذه الأمور، ويتجنب ما يفسد القلب.

مجالسة الأشرار تفسد القلوب، ومجالسة الأخيار تصلح القلوب، فعليك العناية بقلبك؛ لئلا يفسد بسبب تصرفاتك وأعمالك وأقوالك.

اعتن بقلبك، حافظ عليه؛ لأنه هو مصدر الصلاح، أو مصدر الفساد لجسمك، فإذا فسد القلب، فإن الجوارح تنطلق في الحرام، وإذا صلح القلب الجوارح تنطلق في الطيبات والأعمال الصالحة.

ليست العبرة بالجسم أو بنضارة الوجه أو بقوة البدن، لا، ليست العبرة بذلك، العبرة بهذا القلب، ربما يكون الجسم مريضًا أو مشلولًا، أو متعطل الحركة، ولكن القلب حي بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وربما يكون الجسم قويًّا، ولكن القلب ميت، الجسم حي والقلب ميت، لا فائدة من حياة الجسم، فالعبرة بهذا القلب، وهو محل نظر الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من العبد؛ «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[1]، هذا محل نظر الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فعلى المسلم أن يحافظ على قلبه؛ حتى تسلم له جوارحه وأعضاؤه، ويستعملها في الحلال والطاعات والأعمال الصالحة، وإلا إذا فسد قلبه، فإنه لن يتورع عن حرام، ولا يكف عن حرام، ولا يعيش إلا مع الحرام، ولا يرتاح إلا مع المعاصي، وينفر من الطاعات، ينفر من الخير؛ لأن قلبه فاسد، تجد من الناس من ينفر من الخير، ويبغض الطاعات، ولا يحب سماع القرآن، ولا يحب المواعظ؛ لأن قلبه فاسد، ومن الناس من يألف الطاعات، ويألف الخير، ويحب

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أهل الخير؛ لأن قلبه حي، قلبه سليم، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]، القرآن لا ينتفع به إلا القلب السليم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧].

هل هناك أحد ليس له قلب؟! لا، ليس هناك أحد ليس له قلب، كل الناس لهم قلوب، لكن المراد بالقلب: الحي السليم، هو المراد، فالذي قلبه غير سليم هذا ليس فيه فائدة، لا يستفيد من قلبه، وإن كان قلبه صحيحًا طبيًّا، من ناحية الطب قلبه سليم صحيح، ليس به مرض، لكن من ناحية الدين قلبه ميت أو مريض من ناحية الدين؛ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]، يعني: هل هم لا يرون؟! يرون، لهم عيون يرون بها، لكن لا يبصرون بها بصر إيمان، وبصر علم، وإنما يبصرون مثل بصر البهائم التي تنظر الأشياء ولا تستفيد منها.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾، الله قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾، لم يخلقهم بدون قلوب، لهم قلوب، لكن لا يفقهون بها، والعبرة بالفقه، في فقه القلوب، ليست العبرة بوجود القلب فقط، العبرة بالقلب الذي يفقه ويبصر، هذه العبرة، ولا يحصل هذا إلا بالأسباب التي يفعلها العبد؛ أسباب حياة القلب، وأسباب حياة البصيرة، وذلك بالأعمال الصالحة من أكل الحلال وتجنب الحرام، تجنب السماع المحرم والنظر المحرم، تجنب هذه الأشياء.

أنت الذي تتسبب في صلاح قلبك، أو تتسبب في فساد قلبك، أنت بأعمالك وتصرفاتك.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا وإياكم البصيرة في ديننا، وأن يثبت قلوبنا على الحق، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

آية المنافق ثلاث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

النفاق العملي لا يخرج من الإسلام، ولكن صاحبه عليه وعيد شديد، وهو يُنقص الإيمان إلا إذا تاب منه صاحبه، وذلك كما في هذا الحديث: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ»، يعني: النفاق العملي؛ «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1]، من اتصف بواحدة من هذه الصفات، فهو منافق نفاقًا عمليًّا عليه وعيد، وربما يجره ذلك إلى النفاق الأكبر، وهذا مما يوجب الحذر من صفات المنافقين، ومثله -أيضًا- الذي يترك صلاة الجماعة، الذي يترك صلاة الجماعة من غير عذر هذا نفاق، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا»[2]، فترك الصلاة مع الجماعة من غير عذر هذا نفاق، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا»، يعني: صلاة الجماعة، «وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ»[3]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ»، الآية معناها: العلامة، «آيَةُ الْمُنَافِقِ»، أي: علامة المنافق التي يُعرف بها.

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه مسلم (٦٥٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ»؛ ثلاث خصال:

الخصلة الأولى: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ»، الكذب حرام، كبيرة من كبائر الذنوب، وإذا حدث الإنسان الناس بحديث، وأخبرهم عن شيء، يجب عليه أن يكون صادقًا، وأن يترك الكذب، ولا يحدث الناس وهو كاذب فيما يقول.

بعض الناس يتساهل في الكذب، يتكلم بكلام غير صحيح؛ حصل كذا، أو يحصل كذا، وما أشبه ذلك؛ فلان جاء، أو فلان ذهب، أو فلان قال كذا وكذا، وهو كاذب. لا يجوز للإنسان أن يتحدث إلا وهو صادق، أما أن يتحدث على الناس كذبًا، هذا نفاق، هذا من صفات المنافقين؛ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:٨-١٠]، هذه الآية وإن كانت في المنافقين النفاق الاعتقادي، لكن تدل على أن الكذب من صفات المنافقين، فالذي يكذب -ولو كان مؤمنًا- إذا كذب، فقد اتصف بصفة من صفات المنافقين، يكون فيه خصلة من النفاق تُنقص إيمانه.

فيجب على الإنسان أن يحفظ لسانه عن الكذب، ولا يحدث الناس إلا وهو صادق، لا يخبر عن شيء إلا وهو صادق، لا يعود نفسه الكذب، ثم إن الكذب يترتب عليه عواقب سيئة، هذا أشد، الكذب يترتب عليه عداوة بين الناس -كالنمام، النميمة كذب، والمغتاب-، ويفسد بين الناس، ويفرق بين الناس، يورث البغضاء والعداوة بين الناس، هذا كذب، وأيضًا يسبب شرًّا وفتنة، ويفرق بين المؤمنين، لا تستهينوا بهذا الأمر، يجب تجنب هذا الأمر.

والمفروض في المؤمن أن يكون أداة إصلاح، يصلح بين الناس بدل أن يفرق بينهم ويحرش بينهم، الواجب على المؤمن العكس؛ أن يكون أداة إصلاح في المجتمع، يؤلف بين القلوب، ويصلح بين المتخاصمين والمتنازعين، هذا المفروض في المؤمن.

«إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ»، إذا حدث عن خبر، فهو يكذب، يتعمد الكذب، وإذا أخبر عن سلعة أو عن قضية، كذب، وقال: إنها من الصنف الجيد، ومن الصنف الممتاز، أو قال: إن ثمنها كذا وكذا، أو انا اشتريتها بكذا؛ من أجل أن يزيد ثمنها على الزبائن، هذا كذب، يترتب عليه ضرر، يترتب عليه أنه يخدع الناس، ويأكل أموالهم بالباطل، يعتمدون على خبره، ويدفعون أموالهم على غير حقيقة، بينما يتبين أن السلعة من الصنف الرديء أو المعيب، أو الصنف الرخيص، فلا يكذب على الناس في المعاملات، ولا يكذب على الناس في الأخبار، وقد سمى الله الذي يخبر خبرًا كاذبًا بأنه فاسق؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، يعني: تثبتوا ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

الخصلة الثانية: «وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»، إذا وعدك، قال: أنا آتيك غدًا، أو بعد غد، أو في الساعة الفلانية، لا يحضر عند الموعد، أو وعدك بأن يعطيك شيئًا، ثم لم يف بوعده، هذا من صفات المنافقين؛ المؤمن يفي بوعده، ولا يخلف بموعده، يتقيد بالمواعيد، ولا يتخلف عنها، وإذا عرض له عارض، ولم يتمكن من الوفاء بالوعد، يعتذر، ويخبر صاحبه بأنه لم يتمكن من الحضور، لم يتمكن من المجيء، لم يجد الشيء الذي وعده إياه، أما أنه يسكت ويتركه، فهذا من إخلاف الوعد

الذي هو من صفات المنافقين، بعض الناس يتساهل في المواعيد، ويكذب في المواعيد، ويضر الناس بهذا الإخلال؛ وقد يبنون على وعده، ويتكلفون المجيء، ويتكلفون الحضور بناء على وعده، ثم لا يحضر ولا يأتي، ولا يعتذر حتى، ربما يكون الموعود جاء من مسافة بعيدة، ربما يكون أنفق مالًا من أجل الحضور، ثم لا يجد صاحبه قد وفى بوعده، وغرر به، ماذا تكون حال الشخص الذي حضر، وتكلف، وانتظر؟ هذا ضرر، هذا ضرر عليه بسبب هذا الوعد الكاذب، فإذا لم تقدر على الوفاء بالوعد، فلا تعد الناس، لا تعدهم، تقول: أنا لا أقدر أن أحضر في المكان الفلاني، أنا لاأستطيع الحضور في الساعة الفلانية، أنا لا أقدر؛ من أجل أن يكون الناس على بيِّنة وعلى بصيرة، فأنت لا تعد إلا إذا كنت ستفي بالوعد، أما إذا كنت لا تفي بالوعد، فأرح الناس، أرحهم، لا تعدهم.

«وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»؛ أخلف الموعد.

الصفة الثالثة: «وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»، إذا اؤتمن خان هذه المشكلة، إذا اؤتمن خان: إذا أُعطي أمانة خان فيها، والأمانة مأخوذة من الأمن، وهو ضد الخوف، الأمانة من الأمن، فإذا أحدٌ أودعك شيئًا، فقد ائتمنك؛ أودعك سرًّا من الأسرار، أودعك مالًا تحفظه له، فهذه أمانة، إذا أُؤتمنت على عمل، ولي الأمر أسند إليك عملًا وظيفيًّا، هذه أمانة، العمل أمانة، الوظيفة أمانة، يجب عليك الوفاء بها، القيام بالوظيفة على الوجه المطلوب أمانة قد حُمِلت إياها.

وكذلك الأمانة بين العبد وربه، الأمانة تكون بين العبد وبين الناس، وتكون بين العبد وبين ربه، فجميع أنواع العبادات والطاعات وفعل الواجبات وترك المحرمات كلها أمانات بينك وبين الله، الله ائتمنك على الصلاة، ائتمنك

على الزكاة، ائتمنك على الصيام، ائتمنك على الحج والعمرة، ائتمنك على فعل الواجبات، ائتمنك على الطهارة للصلاة، كل هذه أمانات بينك وبين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يعلم عنها إلا الله، فيجب عليك أن تفي فيما بينك وبين الله، وتؤدي الأمانات التي حملك الله إياها، وكذلك الأمانة بينك وبين الناس -كما ذكرنا-، الوظيفة والأعمال أمانة ائتمنك عليها ولي الأمر، فعليك أن تقوم بها. الأسرار التي تودع إياها، إنسان يفضي إليك بسره، ويخبرك عن أمرٍ لا يحب أن يطلع عليه، فتذهب وتفشيه وتنشره بين الناس هذه خيانة، خيانة للأمانة، الأسرار أمانة.

الأموال التي تودع عندك للحفظ، تحفظها لأصحابها، الودائع هذه أمانة، العمل الذي تُستأجر عليه، المقاولة التي تتعهد بها، مقاولة بناء، مقاولة عمل، استأجروك على أن تعمل عملًا هذا أمانة في ذمتك، يجب عليك أن تؤدي العمل على الوجه المطلوب؛ من أجل أن تكون الأجرة حلالًا لك، وإلا فإن الأجرة مع بخس العمل تكون حرامًا عليك؛ لأنك أخذتها في غير مقابل.

فالأمانة واسعة، كل شيء اُستحفظت عليه بينك وبين الله، أو بينك وبين الناس، فإنه أمانة، والأمانة شأنها عظيم، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾، يعني: خفن منها ومسؤوليتها، ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

الأمانة أبت السماوات والأرض والجبال ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾؛ لأنهن علمن مسؤوليتها وتبعتها، فآثرن العافية، ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾، يعني: خفن من تبعات الأمانة، أما الإنسان فإنه لم يبال، حملها، ومن الناس من أدى، ومن الناس

من خان فيها، ولهذا قال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٧٣]، المشركون والمنافقون خانوا في الأمانة، فاستحقوا العذاب، المؤمنون أدوا الأمانة، فاستحقوا المغفرة من الله والتوبة من الله والرحمة من الله، هذه الأمانة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[(١)]، المنافق لا يبالي بالأمانات، سواء كانت بينه وبين الله، أو كانت بينه وبين الناس، يتساهل في الأمانة، ويضيعها، ولا يهتم بها؛ ولهذا جاء في الحديث: أنه في آخر الزمان تكون الأمانة مغنمًا[(٢)]، يأخذها الإنسان يفرح بها؛ من أجل أن يضيعها على صاحبها، ويستخدمها لنفسه، ويعتبرها مغنمًا، مع أنها حمل ثقيل عليه، مكلف أن يؤديها، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمْ: الْأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْهُ الصَّلَاةُ**»[(٣)]، أول ما يُفقد من الدين:

(١) أخرجه أحمد (٢٤/ ١٥٠)، وأبو داود (٣٥٣٤).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٢١١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا اتُّخِذَ الفَيْءُ دُوَلًا، وَالأَمَانَةُ مَغْنَمًا، وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا، وَتُعُلِّمَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَأَطَاعَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ، وَعَقَّ أُمَّهُ، وَأَدْنَى صَدِيقَهُ، وَأَقْصَى أَبَاهُ، وَظَهَرَتِ الأَصْوَاتُ فِي المَسَاجِدِ، وَسَادَ القَبِيلَةَ فَاسِقُهُمْ، وَكَانَ زَعِيمُ القَوْمِ أَرْذَلَهُمْ، وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخَافَةَ شَرِّهِ، وَظَهَرَتِ القَيْنَاتُ وَالمَعَازِفُ، وَشُرِبَتِ الخُمُورُ، وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا، فَلْيَرْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيحًا حَمْرَاءَ، وَزَلْزَلَةً وَخَسْفًا وَمَسْخًا وَقَذْفًا وَآيَاتٍ تَتَابَعُ كَنِظَامٍ بَالٍ قُطِعَ سِلْكُهُ فَتَتَابَعَ**».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٥٠٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٤١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الأمانة، فيقل الأمناء في آخر الزمان؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا**»(١)، القبيلة كلها ليس فيها إلا واحد يُذكر أنه أمين؛ لقلة الأمانة في آخر الزمان، والله المستعان!

فعلى المسلم أن يحذر من صفات المنافقين، وأن يتصف بصفات المؤمنين الصادقين؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ**﴾ [التوبة:١١٩].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم لصالح القول والعمل، وأن يعيذنا وإياكم وجميع المسلمين من النفاق.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

فما زلنا مع الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة مجيء جبريل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحضرة أصحابه في صورة رجل يتعلم من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والغرض من ذلك تعليم أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمور دينهم.

وقد أخذنا الجزء الأول من الحديث، وهو السؤال عن الإسلام، وجواب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن: «**الْإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، والكلام الآن في الجزء الثاني من الحديث، وهو السؤال عن الإيمان؛ قال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. فَقَالَ** النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[١]، هذا هو الإيمان.

والإيمان صفة عظيمة يمنُّ الله بها على ن يشاء من عباده، قال الله سبحانه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]، فمن

---

(١) سبق تخريجه (ص١٧).

منَّ الله عليه بالإيمان، فإنه يكون سعيدًا في الدنيا والآخرة؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:٩، ١٠]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف:١٠٧، ١٠٨]، قال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١، ٢]، إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠، ١١]، فالله جَلَّ وَعَلَا أعد الجنة بما فيها من النعيم المقيم والأجر العظيم للمؤمنين، فالجنة دار المؤمنين ودار المتقين، هذا هو الإيمان.

وقد عرف العلماء الإيمان بأنه: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية[1]، هذا هو الإيمان.

قول باللسان: بأن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتحقق هاتين الشهادتين علمًا وعملًا، وصدقًا وإخلاصًا، ومتابعة وانقيادًا.

واعتقاد بالقلب: بأن يعتقد قلبك ما ينطق به لسانك من الشهادتين، وكل ذكر لله عَزَّوَجَلَّ، فالنطق باللسان بدون اعتقاد القلب لا يفيد شيئًا؛ فإن المنافقين كانوا ينطقون بألسنتهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويذكرون الله، ولكن لا يؤمنون بقلوبهم، ولا يعتقدون ذلك في قلوبهم، فهم في

---

(١) انظر: لمعة الاعتقاد (ص٢٣)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٨٤).

الدرك الأسفل من النار -والعياذ بالله-، ولم ينفعهم النطق باللسان؛ لابد من اعتقاد القلب؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، يعلمون بقلوبهم ما تنطق به ألسنتهم، ويعتقدون ذلك، ويؤمنون به.

وعمل بالجوارح: وذلك بأن تؤدي الواجبات التي أوجبها الله عليك؛ من فرائض وواجبات وسنن ومستحبات، تعمل وتتحرك بطاعة الله بالصلاة، والصيام، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، وكذلك من جميع الطاعات الواجبة والمستحبة، وأن تترك ما حرم الله من المعاصي والسيئات بجميع أنواعها، فهذا هو العمل بالجوارح، وبذلك يجتمع الإسلام والإيمان، الإسلام والإيمان يجتمعان.

يزيد بالطاعة: كلما أطاع العبد ربه، وكلما فعل طاعة من الطاعات، زاد فيها إيمانه، فالإيمان يزيد، يزيد بالطاعات القولية والفعلية والمالية، كلما أطاع العبد ربه، زاد إيمانه، وكلما سمع القرآن أو تلا القرآن، زاد إيمانه؛ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]، فالإيمان يزد بتلاوة القرآن واستماع القرآن، ويزيد بفعل الطاعات، حتى يكون أمثال الجبال، يكون إيمانًا عظيمًا ينمو ويزيد؛ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم:٧٦].

وينقص بالمعاصي: كلما عصى المؤمن ربه، نقص إيمانه، حتى ربما يكون إيمانه بمقدار حبة خردل أو أضعف من ذلك، فالإيمان يضعف مع المعاصي، كلما

صدرت من المؤمن معصية، نقص بها إيمانه، حتى ربما لا يبقى معه من الإيمان إلا مقدار حبة خردل أو أقل من ذلك، وربما يزول الإيمان بالكلية؛ فلايبقى مع صاحبه ولا حبة خردل -نسأل الله العافية!

المعاصي تنقص الإيمان، تنقصه حتى ربما تقضي عليه قضاء تامًّا، فيخرج صاحبه من الإيمان إلى الكفر، وبذلك يحذر المؤمن من المعاصي والسيئات؛ لأنها خطر على إيمانه وعلى دينه، فالمعاصي تنقص الإيمان، وتسحب منه، حتى لا يبقى منه شيء، أو يبقى منه شيء قليل جدًّا، ويكون إيمانًا ضعيفًا على خطر عظيم من الزوال.

فالمؤمن يتجنب المعاصي والسيئات، وإذا وقع في شيء منها -لأن الإنسان ليس بمعصوم-، إذا وقع في شيء من المعاصي، فليبادر بالتوبة والاستغفار، ومن تاب إلى الله واستغفر الله، تاب الله عليه، وغفر ذنوبه، ومحا عنه سيئاته، إنما الخطر على الإنسان الذي يعصي، ثم يعصي، ثم يعصي، ولايتوب، فهذا معنى قولهم: يزيد الإيمان بالطاعة، وينقص بالمعصية.

فلا تغفل -أيها المسلم- عن إيمانك، عليك أن تنميه بالطاعات وتجنب المحرمات والمعاصي، وإذا وقعت في شيء منها، فلتبادر إلى التوبة الصادقة والاستغفار؛ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التحريم:٨]، هذه هي التوبة.

وهذا الإيمان الذي سمعتم تعريفه له أركان بينها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جوابه لسؤال جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ»؛ أن تؤمن بالله، هذا الركن الأول، والإيمان بالله معناه: التصديق الجازم بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو

رب كل شيء ومليكه، وأنه الخالق لكل شيء، والمدبر لجميع الأمور، وأن تعبده وحده لا شريك له، وأن تؤمن بما له من الأسماء والصفات.

فالإيمان بالله يشمل أنواع التوحيد الثلاثة:

* **توحيد الربوبية**: وهو الإيمان بأن الله خالق كل شيء، وأنه مالك الملك، وأنه المدبر للكون، وأنه الذي يحيي ويميت، وأنه الذي يرزق ويعطي ويمنع، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الفعال لما يريد، لا راد لما قضاه، ولا معقب لحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

* **وتوحيد الألوهية**: بأن تعبد الله، تخلص له العبادة، جميع أنواع العبادات من صلاة وصيام وذكر لله وزكاة وحج، وجميع أنواع الطاعات تخلصها لله عَزَّوَجَلَّ، لا تصرف منها شيئًا لغير الله؛ لا دعاء، ولا استغاثة، ولا توكل، ولا رغبة، ولا رهبة، كل ذلك تخلصه لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢، ٣]، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، قال الله سبحانه: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:١٤]، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، يقول لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، هذا هو توحيد الألوهية؛ توحيد العبادة، والله خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك

له، ونهاهم عن عبادة ما سواه من الأشجار والأحجار، والقبور والأضرحة، والأولياء والصالحين، والجن والإنس، لا تجوز العبادة إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن صرف منها شيئًا لغير الله، فهو مشرك كافر -سواء كان ذلك المصروف له جنيًّا، أو إنسيًّا، أو حجرًا، أو شجرًا، أو قبرًا، أو وليًّا، أو ملكًا من الملائكة، أو نبيًّا من الأنبياء-، العبادة لله وحده لا شريك له.

* وكذلك تؤمن بأسماء الله وصفاته التي وصف الله بها نفسه، وسمى بها نفسه، أو وصفه بها رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو سماه بها رسوله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، قال الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤]، وكثيرًا في القرآن ما يختم الله الآيات بأسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذا هو الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ بأن تفرده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكل ما يستحقه من العبادة والإجلال والكمال، والذل والخضوع والعبودية له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه ربك، وهو خالقك، وهو الذي يملك أمرك، وهو الذي يثيبك، وهو الذي يعاقبك إذا خالفت أمره.

فيجب عليك أن تؤمن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده إيمانًا صادقًا لا يزعزعه شك أو تردد، هذا هو الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا هو الركن الأول: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ**».

الركن الثاني: أن تؤمن بملائكته: والملائكة عالم من عالم الغيب، خلقهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من نور، خلق الملائكة من نور، وخلق الجن -ومنهم إبليس- خلقهم من نار، وخلق آدم من تراب، خلقه من سلالة من طين، وخلق سلالته من ماء مهين؛ كما بيّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك(١).

الملائكة خلقهم الله من النور، وهم عالم عظيم في السماوات لا يعلم عددهم ولا عظم خلقتهم إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يعبدون الله، يسبحون الليل والنهار، لا يفترون؛ كما وصفهم الله سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]، يعني: الملائكة، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧]، فهم يطيعون الله عَزَّوَجَلَّ، والله جَلَّوَعَلَا دبرهم بأن ينفذوا أوامره في هذا الكون، الملائكة ينفذون أوامر الله في هذا الكون:

* فمنهم الموكل بالوحي الذي ينزل به على الأنبياء وهو جبريل صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.
* ومنهم الموكل بالقطر والنبات، وهو ميكائيل.
* ومنهم الموكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠)(٢٩٩٦) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُول اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٧٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٠٠، ٧٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣١٥)، وابن أبي شيبة في العرش (ص٨٦-٨٧) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «... **فَمَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِسْرَافِيلُ، خَلَقَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَافًّا قَدَمَيْهِ، لَا يَرْفَعُ طَرْفَهُ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّبِّ** عَزَّوَجَلَّ **سَبْعُونَ نُورًا، مَا فِيهَا نُورٌ كَانَ يَدْنُو مِنْهُ إِلَّا احْتَرَقَ، فَإِذَا أَذِنَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **فِي شَيْءٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ارْتَفَعَ ذَلِكَ اللَّوْحُ حَتَّى يَضْرِبَ جَبْهَتَهُ فَيَنْظُرُ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِي أَمَرَنِي بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مِيكَائِيلَ أَمَرَهُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مَلَكِ الْمَوْتِ أَمَرَهُ بِهِ، قُلْتُ:** =

* ومنهم الموكل بالأجنة في البطون.

وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ»، يعني: أربعين يومًا، «ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ»، يعني: أربعين يومًا ثالثة، «ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً»، يعني: قطعة لحم، «مِثْلَ ذَلِكَ»، يعني: أربعين يومًا، هذه مئة وعشرين يومًا، «ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»[(١)]، هؤلاء موكلون بالأجنة في البطون.

* ومنهم الموكل بقبض الأرواح، وملك الموت؛ ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، وله أعوان، ملك الموت له أعوان من الملائكة؛ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ

= يا جِبْرِيلُ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟، قَالَ: عَلَى الرِّيحِ وَالْجُنُودِ، فَقُلْتُ: فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ مِيكَائِيلُ؟ قَالَ: عَلَى النَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، فَقُلْتُ: فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَلَكُ الْمَوْتِ؟ قَالَ: قَبْضُ الْأَنْفُسِ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّهُ هَبَطَ إِلَّا بِقِيَامِ السَّاعَةِ».

(١) أخرجه البخاري (٣١٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤)، ومسلم (٢٦٤٦).

تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [الأنعام:٩٣]. هـؤلاء موكلـون بقبـض الأرواح، ملائكـة، ولهـم رئيـس مـن الملائكة يرأسـهم(١).

* ومنهم الموكل بحفظ أعمال بني آدم، الملائكة الحفظة يلازموننا بالليل والنهار، يكتبون ما صدر منا من الأقوال والأفعال، ويسجلون ذلك سواء كانت خيرًا أو شرًا، فما منا من أحدٍ إلا وموكل به ملكان: أحدهما يكتب الحسنات، والآخر يكتب السيئات، ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]، فهؤلاء موكلون بحفظ أعمال بني آدم؛ كما في الحديث الصحيح: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ»(٢)؛ ملائكة ينزلون بالليل يحفظون أعمالكم إلى أن يطلع الفجر، ينزلون في وقت صلاة العصر، ويستمرون معنا إلى صلاة

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٧٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٠٠، ٧٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣١٥)، وابن أبي شيبة في العرش (ص٨٦-٨٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «... **فَمَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِسْرَافِيلُ، خَلَقَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَافًّا قَدَمَيْهِ، لَا يَرْفَعُ طَرْفَهُ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّبِّ** عَزَّ وَجَلَّ **سَبْعُونَ نُورًا، مَا فِيهَا نُورٌ كَانَ يَدْنُو مِنْهُ إِلَّا احْتَرَقَ، فَإِذَا أَذِنَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **فِي شَيْءٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ارْتَفَعَ ذَلِكَ اللَّوْحُ حَتَّى يَضْرِبَ جَبْهَتَهُ فَيَنْظُرُ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِي أَمَرَنِي بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مِيكَائِيلَ أَمَرَهُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مَلَكِ الْمَوْتِ أَمَرَهُ بِهِ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟، قَالَ: عَلَى الرِّيحِ وَالْجُنُودِ، فَقُلْتُ: فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ مِيكَائِيلُ؟ قَالَ: عَلَى النَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، فَقُلْتُ: فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَلَكُ الْمَوْتِ؟ قَالَ: قَبْضُ الْأَنْفُسِ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّهُ هَبَطَ إِلَّا بِقِيَامِ السَّاعَةِ**».

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٢١٠) (٦٣٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**».

الفجر، ثم ينزل ملائكة آخرون، فيلازموننا بالنهار من صلاة الفجر إلى صلاة العصر؛ في صلاة الفجر يجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار يشهدون معنا صلاة الفجر، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾، يعني: صلاة الفجر؛ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، يعني: تحضره ملائكة الليل وملائكة النهار، ويجتمعون في صلاة العصر، فيصعد الذين كانوا معنا في النهار، ويبقى ملائكة الليل، وفي الليل يصعد الذين كانوا معنا في الليل، ويبقى ملائكة النهار، يتعاقبون مع بني آدم.

فعلى المسلم أن يستحضر ذلك، وأن يستحضر أنه محاط بالملائكة يسيرون معه، ويجلسون معه، ويكتبون معه كل ما يصدر منه من قول أو عمل صالحًا أو سيئًا؛ واحد يكتب الأعمال الصالحة، والآخر يكتب الأعمال السيئة.

والإيمان بالملائكة له فائدة عظيمة، وهو أن الإنسان يتحفظ أن يصدر منه شيء، أن يصدر منه عمل سيء فيسجلونه عليه، ويثق -أيضًا- أنه لا يضيع له عمل صالح أبدًا؛ فإنه محفوظ ومسجل، سواء كان عملًا صغيرًا أو كبيرًا، لا يضيع لك شيء أبدًا، ولا يُترك لك شيء أبدًا من السيئات، كلها تُكتب، وكلها تُعرض عليك يوم القيامة؛ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٣-١٥].

هؤلاء هم الملائكة الذين يجب الإيمان بهم، والإيمان بهم ركنٌ من أركان الإيمان الستة.

والركن الثالث: الإيمان بالكتب: الكتب المنزلة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي أنزلها على الرسل؛ لأجل هداية الخلق، الله جَلَّ وَعَلَا أنزل على الرسل كتبًا فيها هداية الخلق، فيها الشرائع، وفيها الأوامر والنواهي، وهذا من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن أعظمها ثلاثة كتب: التوراة، والإنجيل، والقرآن، هذه أعظم الكتب، وأعظم الثلاثة هو القرآن العظيم، القرآن العظيم هو أعظم الكتب، وهو المهيمن على الكتب.

والزبور الذي أنزله الله على داود، صحف إبراهيم وموسى، نؤمن بها كلها، نؤمن بكل ما أنزله الله عَزَّوَجَلَّ؛ ما أنزله علينا، وما أنزله على من كان قبلنا؛ ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦]، فنؤمن بجميع الكتب، فمن آمن بكتاب وجحد كتابًا، فإنه كافر بالجميع، من آمن بجميع الكتب كلها إلا كتابًا واحدًا، فإنه يكون كافرًا بجميع الكتب؛ لأنها كلها من عند الله، فلا يجوز أن يؤمن الإنسان ببعضها، ويكفر بالبعض الآخر؛ ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة:٨٥]، ولهذا أمرنا أن نقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة:١٣٦]، إلى آخر الآية.

فنؤمن بجميع الكتب، أما من يؤمن ببعضها ويكفر ببعضها، فإنه كافر بجميعها؛ لأنها كلها من عند الله عَزَّوَجَلَّ، كلها حق، كلها يُصدق بعضها بعضًا،

فيها هداية الخلق، فيها بيان الخير من الشر، والإيمان من الكفر، والهدى من الضلال، الله أنزلها رحمة بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل: الرسل الذين اختارهم الله من البشر يجب الإيمان بهم جميعًا، أولهم نوح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآخرهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء:١٦٣]، فجميع الرسل يجب الإيمان بهم من أولهم إلى آخرهم، وخاتمهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن كفر بواحد منهم، فإنه كافر بالجميع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١]، فمن كفروا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا كافرين بجميع الأنبياء، النصارى لما كانوا كافرين بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانوا كافرين بجميع الأنبياء، وهكذا كل من كفر برسول واحد، بنبي واحد، فإنه كافرٌ بالجميع، ولاينفعه إيمانه ببقية الرسل؛ لأن الكفر بنبي واحد كفرٌ بالجميع؛ لأنهم كلهم رسل الله؛ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [البقرة:٢٨٥]، هذا هو الواجب، هذا هو الإيمان.

أما الذي يؤمن ببعض الرسل، ويكفر بالبعض، فإنه يكون كافرًا بالجميع، ولا ينفعه الإيمان بمن آمن به منهم، بل هو ليس مؤمن بمن يزعمه أنه مؤمن به منهم.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر: اليوم الآخر هو اليوم الذي بعد الدنيا، فاليوم الأول هو الدنيا، واليوم الآخر هو اليوم الذي بعد الدنيا، وهو البعث والنشور؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبعث من في القبور، هؤلاء الذين ماتوا، ودُفِنوا في القبور، واندرست قبورهم، وبليت أجسامهم، وتفرقت عظامهم، وتشتت شعورهم، وفنيت لحومهم، وصاروا ترابًا إذا شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن الله يبعثهم من القبور، ويقومون من القبور كما خُلِقوا أول مرة؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨].

﴿فَصَعِقَ﴾، يعني: ماتوا جميعًا.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، الأولى: نفخة الصعق، والثانية: نفخة البعث.

وهذا يسيرٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان:٢٨]، الذي خلقكم أول مرة، وأوجدكم من عدم، وجعلكم بشرًا تنتشرون، وتمشون على وجه الأرض وأنتم في الأول عدم، ليس لكم وجود، أليس قادرًا من باب أولى على أن يعيدكم؟! ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم:٢٧] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالذي قدر على البدء قادر على الإعادة، الله ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ولا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهنا شاهد ترونه أنتم، وهو أن الأرض تمرون عليها وهي يابسة هامدة، ليس فيها عود ولا ورقة، كلها ميتة هامدة، ثم يُنزل الله عليها المطر، ثم بعد

أيام تأتونها وهي خضراء رابية، تهتز بأنواع النباتات، وأنواع الزهور، وأنواع الأشجار، من الذي أحياها بعد موتها؟ كانت بالأمس يابسة هامدة، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:٥-٧]، هذا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:١٠٢].

فيبعث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الأجسام الفانية في القبور، ويعيدها كما كانت في الخلق الأول متكاملة، ثم يأمر إسرافيل، فينفخ في الصور، فتطير الأرواح من القرن والصور، كل روح إلى جسمها، ثم يحيى هذا الجسم ويتحرك، ثم يخرجون من القبور يمشون إلى المحشر؛ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، يعني: من القبور، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥١-٥٤]، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٦-٨]، ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج:٤٢-٤٤]، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٤].

يبعثهم الله من قبورهم، ثم يقومون منها، ثم تُنفخ الأرواح في الأجساد، ثم يمشون من قبورهم إلى المحشر، لا يتخلف أحد، ولا يتغيب أحد، كلهم يمشون إلى المحشر في صعيد واحد، يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ثم يأتي بعد ذلك الحساب على الأعمال، ثم يأتي بعد ذلك وزن الأعمال في الميزان؛ وزن الحسنات والسيئات، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢، ١٠٣]، ثم تتطاير الصحف؛ فمنهم آخذٌ كتابه بيمينه، وهم أهل السعادة، وآخذٌ كتابه بشماله، ومن وراء ظهره، وهم أهل الشقاء -والعياذ بالله-؛ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، يفرح، ويقول للناس: ﴿ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾؛ لأن فيه ما يسر، الإنسان إذا كان معه كتاب وفيه شيء يسره، يرغب في أن الناس يطلعون عليه، ﴿ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:١٩-٢٤]، أين الأيام الخالية؟ الدنيا، بما اسلفتم في الدنيا من الأعمال الصالحة؛ لأنكم حفظتم أعماركم في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا جزاؤكم عند الله؛ ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]، الماضية، أيام الدنيا؛ لأن الدنيا هي دار العمل، أما الآخرة فإنها دار جزاء وليست دار عمل.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾: بيده اليسرى -والعياذ بالله-، ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾، يقول: يا ليتني على موتتي لم أُبعث، ليتني لم أُبعث، ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى

مَالِيَهۡ﴾، كان له في الدنيا أموال، قصور وأرصدة، وجاه ومكانة، هذا لم يغن عنه شيئًا، لما لم يعمل بطاعة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٩]، ليس له حجة، السلطان: الحجة.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢]، تُدخل فيه السلسلة من فمه، وتُخرج من دبره -والعياذ بالله-، اسلكوه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا بذراع الملك، سبعون ذراعًا، سلسلة من حديد- والعياذ بالله- يُسلك فيها -والعياذ بالله-، ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٢]، السبب ما هو؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحاقة:٣٣]، كان في الدنيا لا يؤمن بالله العظيم، يقول: ليس هناك رب، وليس هناك بعث، وليس هناك حساب، هذه خرافات، ليس هناك إلا الحياة الدنيا. يقول هذا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الحاقة:٣٣-٣٥]، لم يكن يؤدي الزكاة التي أوجبها الله في ماله، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾ [الحاقة:٣٤-٣٥]، يعني: صديق ينفعه، أو يدافع عنه، ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ [الحاقة:٣٦]: صديد أهل النار، طعامهم من صديد أهل النار- والعياذ بالله.

والصنف الأول: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٢-٢٤]، وهذا ليس له ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ [الحاقة:٣٦]، وهو صديد أهل النار-والعياذ بالله، نسأل الله العافية-، ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة:٣٧]، هذا هو الإيمان باليوم الاخر.

ولا يكفي أنك تصدق باليوم الاخر، لا يكفي هذا، لابد أن تعمل، إذا صدقت باليوم الآخر، وأنه لابد من وقوعه، وأنك لابد من أن تلقى هذا اليوم، ولابد أن تُبعث وتُجازى، فإنه لابد أن تستعد، تستعد لهذا اليوم بالأعمال الصالحة، والتوبة من السيئات قبل الممات، تستعد لهذا اليوم، تستعد للقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾، يعني: أيقنت ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٢]، فلما أيقن أنه ملاق حسابه، ماذا عمل؟ عمل الطاعات، وتاب من السيئات، واستعد للقاء هذا اليوم، ولهذا قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤].

فالإيمان باليوم الآخر يبعث على العمل الصالح، والتوبة من السيئات، والإكثار من الطاعات، هذه هي ثمرة الإيمان باليوم الآخر.

أما الذي يؤمن باليوم الاخر، لكنه لا يعمل، فهذا لم يستفد من إيمانه شيئًا.

هذا هو الركن الخامس من اركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، وهو البعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار، وما يكون يوم القيامة.

وأول منازل الآخرة: القبر، والقبر قريب، أقرب إليك من شراك نعلك.

والله لا تدري في أي ساعة تُنقل إلى القبر، وربما يكون نقلك إلى القبر قريبًا لا تدري، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان:٣٤]، فالقيامة قريبة منك، لا تحس أن القيامة بعيدة، القيامة قريبة منك، متى ما مت، دخلت في القيامة، متى ما مت، دخلت في اليوم

الآخر، أوله القبر، حينما يوضع الميت في قبره، ويتولى عنه أصحابه بعد الدفن، وإنه ليسمع قرع نعالهم، يأتيه ملكان في القبر، يأتيه ملكان -لأن القبر من عالم الغيب، لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فتعاد روحه في جسده، فيجلسانه، هذه حياة برزخية ليست مثل حياة الدنيا، حياة برزخية لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، القبر من أمور الآخرة ومن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولا يجوز لأحدٍ أن يتكلم فيه إلا بما صح عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ، وَمَا دِينُكَ، وَمَنْ نَبِيُّكَ؟**»، فالمؤمن يقول: «**رَبِّيَ اللهُ، دِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فيقال له: صدقت، فيوسع له في قبره مد بصره، ويفتح له باب إلى الجنة، ويأتيه من روحها ونعيمها، فيقول: «**رَبِّي أَقِمِ السَّاعَةَ؛ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي**».

وأما المنافق، المنافق الذي كان في الدنيا يُظهر الإيمان، وفي قلبه الكفر -والعياذ بالله-، فهذا إذا جاءه الملكان في قبره، وقالا له: «**مَنْ رَبُّكَ، وَمَا دِينُكَ، وَمَنْ نَبِيُّكَ؟**»، فإنه لا يدري ما الجواب، يقول: «**هَا، هَا لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُهُ**»، ثم يُضيق عليه في قبره حتى تختلف أضلاعه، ويُفتح له باب إلى النار، ويأتيه من سمومها وعذابها، ويقال له: هذا مرقدك إلى أن يبعثك الله، فيقول: «**رَبِّي لَا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ**»(١)؛ لأنه يعلم أن ما بعد الساعة أشد مما هو فيه الآن.

فالقبر إما حفرة من حفر النار، وإما روضة من رياض الجنة، وهو أول منازل الآخرة، من نجا منه، نجا مما بعده، ومن لم ينج منه، لم ينج مما بعده،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٤٩٩)، وأبو داود (٤٧٥٣)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولا حول ولا قوة إلا بالله! قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧]، انظروا إلى سبب التثبيت ما هو؟ الإيمان، ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [إبراهيم:٢٧]، سببه: الإيمان.

سبب الإضلال ما هو؟ الظلم؛ ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم:٢٧]، ظلم الشرك -والعياذ بالله- والنفاق؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣]، ظلم الشرك وظلم النفاق هو الذي يصيرهم إلى هذا المصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

الركن السادس من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩].

والقدر هو سر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أن تؤمن أن ما يجري في هذا الكون من شيء إلا بأمر الله وخلقه ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يكون في هذا الكون إلا شيء أراده الله وقضاه من الخير والشر، والجوع والشبع، والغنى والفقر، والإيمان والكفر، والإيمان والمعصية، والموت والحياة، والفقر والجدب والخصب، وغير ذلك لا يجري في هذا الكون إلا ما قضاه الله وقدره، وأنه لايجري عليك إلا ما قدره البله عليك وقضاه؛ أن تعلم «**أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**»(١)، كله بقضاء الله وقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٠٩).

والإيمان بالقدر يتضمن أربعة أشياء:

الشيء الأول: الإيمان بان الله علم ما كان وما يكون؛ عَلم ما كان وما يكون بعلمه الأزلي الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا، علمه الشامل الذي لايخفى عليه شيء، الله علم كل ما يكون في هذا الكون من أوله إلى آخره، لايكون هناك شيء إلا وقد علمه الله في الأزل.

ثم المرتبة الثانية: أن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ؛ فكل ما يجري في هذا الكون من أوله إلى آخره فإنه مكتوب في اللوح المحفوظ؛ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢]، أي: نخلقها، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد:٢٢، ٢٣]، فكل ما يجري في هذا الكون فإنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

والدليل على ذلك ما جاء في الحديث الصحيح، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**[١]، فكتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة، وكان ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[٢]، هذه المرتبة الثانية: الكتابة، فما يجري في هذا الكون في العموم أو بالخصوص إلا ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ٣٧٨)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرج مسلم (٢٦٥٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ =

المرتبة الثالثة: مشيئة الله؛ أنه لا يجري في هذا الكون شيء إلا وقد شاءه الله وأراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يجري في ملكه ما لا يريد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كله بمشيئة الله.

المرتبة الرابعة: أن الله خلق كل شيء؛ فلا يكون في هذا الكون إلا ما خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر:٦٢].

فالإيمان بالقدر يتضمن هذه الأمور الأربعة لابد أن تؤمن بها جميعًا:

* علم الله الشامل لكل شيء.

* أنه كتب في اللوح المحفوظ كل شي.

* أن ما يجري في هذا الكون كله بمشيئة الله وإرادته.

* أن ما يجري في هذا الكون هو خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا خالق إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا هو الإيمان بالقدر.

هذه أركان الإيمان الستة، وهذا شرحها على سبيل الاختصار والإجمال،

= صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**».

وأخرج أحمد (٣٣/ ٥٦)، والبخاري (٣١٩٠، ٣١٩١، ٧٤١٨)، والترمذي (٣٩٥١) عَنْ عِمْرَانَ ابْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: **اقْبَلُوا البُشْرَى يَا بَنِي تَمِيم**. قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ، فَقَالَ: **اقْبَلُوا البُشْرَى يَا أَهْلَ اليَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيم**. قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: **كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**. فَنَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الحُصَيْنِ، فَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ، فَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا».

وهي أركان عظيمة، والإيمان ليس مقصورًا عليها، لكن هذه الأركان أركان فقط، وبقية الطاعات وبقية الأعمال وبقية النيات الصالحة كلها مكملات.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَرْفَعُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»**(١)، فالإيمان له شُعب كثيرة، أفعال الخير كلها من شُعب الإيمان، أفعال الطاعات كلها من شُعب الإيمان.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»**(٢)، فحبك الخير لأخيك هذا من الإيمان.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»**(٣).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَيْسَ بِالْمُؤْمِنِ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ»**(٤).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ** -ثلاث مرات-، **قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟** -خاب وخسر- **قَالَ: مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»**(٥)، أي: خيانته.

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) سبق تخريجه (ص٢٩٤).
(٣) سبق تخريجه (ص٣٥٧).
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٥)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.
(٥) أخرجه البخاري (٦٠١٦)، وأحمد -واللفظ له- (١٣/ ٢٦١)، من حديث أبي شريح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ** -وفي رواية: **فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ**- **وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»(١).

كل هذه من خصال الإيمان.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ**»(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ، بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ، مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**»(٣).

هذه الصفات من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، وبرد اليقين، نسأل الله الكريم من فضله.

فالإيمان له أركان لابد من قيامه عليها، وهي التي بينها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وله شُعب كثيرة، وله خصال؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال:٢-٤]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣٠/ ٤٨٨)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه (ص٣٥٧).

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٧١]، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون:١-١١].

المؤمنون إذا دُعُوا إلى الله ورسوله، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦٠، ٦١]، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

الإيمان ليس مجرد دعوة، وإنما هو حقيقة، ولهذا يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَيْسَ الإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالِ»(١).

هذا هو الإيمان.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا وإياكم من أهل الإيمان، وأن يوفقنا وإياكم للعلم النافع، والعمل الصالح!

وصلى الله وسلم على عبده رسوله نبينا محمد الذي بلغ البلاغ المبين، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وأتباعه إلى يوم الدين.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٥٤٥)، وأحمد بن حنبل في الزهد (ص٢١٣)، والبيهقي في شُعَب الإيمان (١/ ١٥٨).

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٨٨، ١٣٨٩) عن قَتادةَ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ قَالَ: «إِنَّمَا يُوَالِي اللهُ بَيْنَ النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَالْمُؤْمِنُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِ أَيْنَمَا كَانَ، وَلَيْسَ الإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلا بِالتَّمَنِّي، وَلَعَمْرِي لَوْ عَمِلْتَ بِطَاعَةِ اللهِ وَلَمْ تَعرِفْ أَهْلَ طَاعَةِ اللهِ مَا ضَرَّكَ ذَلِكَ، وَلَوْ عَمِلْتَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ وَتَوَلَّيْتَ أَهْلَ طَاعَةِ اللهِ مَا نَفَعَكَ ذَلِكَ شَيْئًا».

حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

فما زال الحديث موصولًا -كما سبق- في بيان حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مجيء جبريل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحضرة أصحابه، وسؤاله إياه عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، وعن الساعة وأشراطها.

وانتهى بنا الكلام إلى القسم الثالث، وهو الإحسان. قال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١).

الإحسان في اللغة: مأخوذ من أحسن الشيء إذا أتقنه، وأتمه على الوجه المطلوب(٢).

والمراد به شرعًا -كما بيَّنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، وهذا يحتاج إلى بيان وتوضيح.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن الإحسان الذي يكون بين العبد وبين ربه، وهذا هو

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

(٢) انظر مادة (حسن) في: العين (٣/ ١٤٣)، وتهذيب اللغة (٤/ ١٨٢)، والصحاح (٥/ ٢٠٩٩)، ومقاييس اللغة (٢/ ٥٧).

أعلى أنواع الإحسان، وهو الإحسان فيما بين العبد وبين ربه، وهناك الإحسان بين العبد وبين الناس.

الإحسان كلمة جامعة تشمل الإحسان بين العبد وبين ربه، والإحسان بين العبد وبين الناس، والله جَلَّ وَعَلَا يقول في كتابه: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]، هل جزاء من أحسن فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ بعبادته وحده لا شريك له، وأدى حقوق الله، ليس له جزاء إلا الإحسان -الجنة-؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أن العبد أحسن فيما بينه وبين ربه، فإن الله جَلَّ وَعَلَا يُحسن عليه بأن يمنَّ عليه بالجنة وما فيها من النعيم المقيم؛ ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]، ومعنى الآية: لا جزاء للإحسان إلا الإحسان؛ قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس:٢٦]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ﴾، أي: قاموا بالإحسان فيما بينهم وبين الله جَلَّ وَعَلَا بعبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، والإحسان فيما بينهم وبين الناس.

لهم ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾، وهي الجنة، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾، وهي الجنة.

ثم قال: ﴿وَزِيَادَةٞ ﴾: زيادة على الجنة، سبحان الله! الجنة أعظم شيء، ومع ذلك يقول الله: ﴿وَزِيَادَةٞ ﴾، يعني: زيادة على الجنة، فما هي هذه الزيادة على الجنة؟ بيَّنها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن هذه الزيادة هي نظرهم إلى وجه الله الكريم، ينظرون إلى وجه ربهم في جنات النعيم، هم في الجنة منعمون مكرمون، ويكرمهم الله زيادة على ذلك بأن يبيح

لهم النظر إلى وجهه الكريم، فيتجلى لهم جَلَّ وَعَلَا فيرونه، ويتنعمون برؤيته[١]؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»[٢].

وفي هذه الآية: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: وهي النظر إلى وجه الله الكريم، فهذا أعلى درجات النعيم، وفي الآية الأخرى يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾، يعني: الجنة، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، ما هو المزيد؟ هو النظر إلى وجه الله[٣]، الذي إذا رأوه ينسون ما هم فيه من نعيم الجنة، يتلذذون برؤية ربهم، وتقر أعينهم برؤية ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويتشرفون بذلك، وذلك لأنهم عبدوه في الدنيا ولم يروه، عبدوه في الدنيا إيمانًا به وتصديقًا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهم لم يروه، فجازاهم الله جَلَّ وَعَلَا في الآخرة أنه يتجلى لهم ويرونه عيانًا بأبصارهم كما يرون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب[٤]،

(١) أخرجه مسلم (١٨١) عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ».

(٢) كما في حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٢١١) (٦٣٣) عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً -يَعْنِي الْبَدْرَ- فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]».

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٥٤)، وزاد المسير (٤/ ١٦٤)، والقرطبي (١٧/ ٢١)، وابن كثير (٧/ ٤٠٧).

(٤) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٨٠٦، ٦٥٧٣)، ومسلم (٢٩٩) (١٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَالَ أُنَاسٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ =

وكما يرون القمر ليلة البدر لا يُضامون في رؤيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(١).

أما الكفار لما لم يؤمنوا بربهم في هذه الدنيا قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، الكفار لما لم يؤمنوا بربهم في هذه الدنيا، ولم يعبدوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حجبهم عن أعظم نعيم في الاخرة، وهي رؤيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(٢)، ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين:١٥، ١٦]، نسأل الله العافية!

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه مع عبادة المتقين الذين اتقوه سبحانه في هذه الدنيا، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، يحسنون أعمالهم بالاستقامة على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فالله جَلَّ وَعَلَا يكون معهم بنصرته وتأييده وإعانته لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه معية خاصة لعبادة المؤمنين، تتضمن إكرامهم، وحفظهم، وإعانتهم، وتوفيقهم، وتسديدهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ

= فَقَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ...».

(١) كما في حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق تخريجه بالصفحة السابقة.

(٢) قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَمَّا حَجَبَ قَوْمًا بِالسُّخْطِ، دَلَّ عَلَى أَنَّ قَوْمًا يَرَوْنَهُ بِالرِّضَا). انظر: تفسير الثعلبي (١٠/ ١٥٤)، والتفسير البسيط (٢٣/ ٣٢٧)، وتفسير القرطبي (١٩/ ٢٦١)، والبحر المحيط في التفسير (١٠/ ٤٢٩).

أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف:٣٠، ٣١]، هذا جزاءهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا جزاء الإحسان عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآخرة.

وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أن الإحسان هو أعلى مراتب الدين، وهو «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، تعبد الله كأنك ترى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من شدة اليقين والإيمان، فتنتفي عنك جميع الشكوك والأوهام، فكأنك ترى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عيانًا، هذا لشدة الإيمان.

ويقتضي ذلك أن تحسن عبادته سبحانه، وأن تخشع له، وأن تخضع له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، «كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، ومن بلغ هذه المرتبة، فإنه قد بلغ أعلى مراتب الدين.

«فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، يعني: إذا لم تبلغ هذه المرتبة، فاعلم أنه يراك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا علمت أنه يراك، فإنك تخشاه وتخافه؛ إذ لا يليق بك أن تخالفه وهو يراك وينظر إليك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أحكم الحاكمين، وهو أرحم الراحمين، لا يليق بك أن تخالف أمره، وأن تفرط في طاعته وهو يراك؛ قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران:٥]، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧].

فإذا عَلم العبد أن الله يراه، وأنه مطلع عليه في جميع أحواله وفي جميع تصرفاته، وفي أي مكان لا يخفى على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذا أيقن بذلك وآمن به، فإنه يبتعد عما يغضب الله جَلَّ وَعَلَا، وعما يسخط الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولله المثل الأعلى، لو وقفت بين يدي ملك من الملوك، أو أمير من الأمراء، أو رئيس من الرؤساء، وهو ينظر إليك، هل يمكن أن تخالف له أمرًا، أو أن تعمل عملًا يغضبه وهو يراك؟! تخجل منه وتستحي، فإن لم تستح، فإنك تخاف منه أن يعاقبك، فكيف بملك الملوك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي لايخفى عليه شيء من أمرك؟! ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠].

«فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، فالإحسان على هاتين المرتبتين:

المرتبة الأولى -وهي أعم-: أن تعبد الله كأنك تراه؛ لشدة الإيمان واليقين، كأنك ترى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كأنك تراه ببصرك، وإلا فأنت لاتراه في الدنيا، ولا يراه أحدٌ في الدنيا، إنما يراه المؤمنون يوم القيامة، أما في الدنيا، فلا يراه أحد بالبصر، ولكن يراه الإنسان بقلبه ويقينه وإخلاصه، يراه بقلبه كأنه يراه ببصره، فلا يخالف له أمرًا، وإذا صدرت منه مخالفة، فإنه يخجل ويتوب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويأخذه الندم والحياء من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، هذا هو الإحسان فيما بين العبد وبين ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا يقتضي أمرين:

الأمر الأول: الإخلاص لله في العبادة، إذا كنت تعبد الله كأنك تراه، فإن هذا يقتضي أن تخلص له العبادة؛ فلا تشرك به شيئًا؛ تُخلص له العمل.

والأمر الثاني: أن تتقن العمل الذي تتقرب به إلى ربك، أن تتقنه وتكمله، ولا يكون فيه نقص، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢]، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾: هذا هو الإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: متبع للرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يعبد الله إلا بما شرعه له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيبتعد عن البدع والمحدثات والخرافات، فلا يتقرب إلى الله بشيء لم يشرعه على لسانه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو الإحسان فيما بين العبد وبين ربه: الإخلاص، والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، هذا لا شك فيه، الله جَلَّ وَعَلَا مطلع على كل شيء، لا يخفى عليه شيء، محيط بأعمال عباده خيرها وشرها، لا يخفون على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يرى المؤمن في إيمانه وعبادته، ويرى الكافر والعاصي في كفره ومعصيته.

الله جَلَّ وَعَلَا مع خلقه كلهم مؤمنهم وكافرهم بالإحاطة والعلم، وهو مع المؤمنين خاصة والمتقين بالنصر، والتأييد والتوفيق والهداية، هذا هو الإحسان فيما بين العبد وبين ربه.

أما الإحسان فيما بين العبد وبين الناس: الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، يعني: واحسنوا بالوالدين إحسانًا، ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، يعني: وأحسنوا ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣٦]، كل هذه الأنواع تحتاج منك إلى الإحسان إليها:

أولًا: الوالدان، أمرك الله جَلَّ وَعَلَا أن تحسن إليهما بالبر والصلة، وحسن القول والخدمة، والإنفاق عليهما ولين الكلام؛ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤]، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ

لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤]، فالوالدان هما أعظم محسن إليك بعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيجب عليك أن تعرف لهما حقهما، وأن تؤدي لهما معروفهما، ولن تؤدي حقهما بالكامل، ولكن تؤدي ما تستطيع، وإلا فحق الوالدين عظيم.

كان رجل يطوف بالكعبة، ويحمل أمه على ظهره يطوف بها، فرأى عبد الله ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ صاحب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: يَا ابْنَ عُمَرَ، هَلْ تَرَانِي أَدَّيْتُ حَقَّهَا؟ قَالَ: لا، ولَا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ من زفراتها[1]، ولكنك أحسنت، والله يحب المحسنين، وإلا فحقها عليك أكثر من هذا، ولا بزفرة من زفراتها يوم ولدتك وأصابها الطلق والولادة والألم، وقبل ذلك الحمل تسعة أشهر أو أكثر في بطنها، ثم بعدما وضعتك صارت تخدمك وتزيل الأذى عنك، وتنظفك وترضعك من ثدييها، وتحملك، وتدافع عنك الأذى وأنت صغير لا تستطيع حتى كبرت، فأنت لا تؤدي حقها بالكامل، ولكن تؤدي ما تستطيع.

﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾، يعني: أحسنوا بالوالدين إحسانًا، ولذا صار عقوق الوالدين -والعياذ بالله- من الكبائر الموبقة، عقوق الوالدين من الكبائر الموبقة، أي: المهلكة.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن وهب في جامعه (ص ١٤٩)، عَنْ زُرْعَةَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: «أَنَّ رَجُلًا، أَتَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ لِي أُمًّا بَلَغَهَا مِنَ الْكِبَرِ أَنَّهَا لَا تَقْضِي حَاجَةً إِلَّا وَظَهْرِي مَطِيَّةٌ لَهَا فَأُوطِيهَا وَأَصْرِفُ عَنْهَا وَجْهِي، فَهَلْ أَدَّيْتُ حَقَّهَا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلَيْسَ بَعْدَ مَا حَمَلْتُهَا عَلَى ظَهْرِي، وَحَبَسْتُ عَلَيْهَا نَفْسِي؟ قَالَ: لَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَصْنَعُ ذَلِكَ بِكَ وَهِيَ تَتَمَنَّى بَقَاءَكَ، وَأَنْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ بِهَا وَأَنْتَ تَتَمَنَّى فِرَاقَهَا».
وكما في الحديث الذي أخرجه البزار في مسنده (١٠/ ٢٧٦)، عَن سُلَيمان بْنِ بُرَيدة، عَن أَبيهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَنَّ رَجُلا كَانَ فِي الطَّوَافِ حَامِلا أُمَّهُ يَطُوفُ بِهَا فَسَأَلَ النَّبِيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: هَلْ أَدَّيْتُ حَقَّهَا؟ قَالَ: لا، ولَا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ»، أَوْ كَمَا قَالَ.

﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، بعد الوالدين القرابة، تحسن إلى القرابة التي تجمعك بهم الصلة من جهة الأب أو من جهة الأم؛ كالإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأجداد والجدات، والأخوال والخالات، كل من تربطك به قرابة من جهة الأب أو من جهة الأم، فإنه ذوي القربى، لهم عليك حق الصلة، صلة الرحم، هذا واجب عليك أن تصل رحمك، وقطيعة الرحم كبيرة من كبائر الذنوب، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ۝٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمد:٢٢، ٢٣]، قطيعة الرحم -والعياذ بالله- من كبائر الذنوب تستوجب لعنة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: اليتامى جمع يتيم، وهو من مات أبوه وهو صغير لم يبلغ الحلم، الصغير الذي لم يبلغ الحلم وقد مات أبوه هذا هو اليتيم، فقد أباه الذي يحنو عليه، ويكسب له، وينفق عليه، فهو بحاجة إلى أن يواسى من قِبل إخوانه المسلمين بالإحسان إليه.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: جمع مسكين، وهو الفقير، الفقير الذي ليس عنده ما يكفيه، ولا يقدر على الكسب، ليس عنده كفايته، ولا يقدر على الاكتساب، هذا يحتاج إلى المواساة، قد جعل الله له نصيبًا من الزكاة، فأنت تعطيه وتواسيه بقدر ما تستطيع، تعطي الفقير وتواسيه بقدر ما تستطيع، وقد أوجب الله عليه حقًا هو الزكاة من مالك.

﴿وَٱلۡجَارِ﴾: جارك في البيت المجاور لك في السكن، الجار القريب أو البعيد، كل من يسكن حول بيتك فإنه جارك له حقٌّ عليك، وقد قال

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ**»، وفي رواية: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ**»[(١)]، الجار له حق؛ بأن تكف عنه الأذى، وأن تبذل له المعروف والإحسان بحكم الجوار، وقد بيَّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان، وجار له حق واحد:

أما الجار الذي له ثلاثة حقوق: فهو الجار المسلم القريب، له حق الإسلام، وحق الجوار، وحق القرابة؛ ثلاثة حقوق.

والجار الذي له حقان: فهو الجار المسلم غير القريب الذي ليس من أقاربك، له حقان: حق الجوار، وحق الإسلام.

والجار الذي له حق واحد: هو الجار الكافر، جارك الكافر له حق الجوار، ولو كان كافرًا له حق الجوار[(٢)].

﴿**وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ**﴾، أي: القريب نسبًا منك.

﴿**وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ**﴾، وهو الجار غير القريب مسلمًا كان أو غير مسلم، إن كان مسلمًا، فله حقان، وإن كان غير مسلم، فإن له حق واحد.

---

(١) سبق تخريجه (ص٤١٧).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البزار (١٨٩٦ كشف الأستار)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٣٥٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٠٧) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ وَهُوَ أَدْنَى الْجِيرَانِ حَقًّا، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ، وَجَارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ وَهُوَ أَفْضَلُ الْجِيرَانِ حَقًّا، فَأَمَّا الْجَارُ الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَالْجَارُ الْمُشْرِكُ لَا رَحِمَ لَهُ وَلَهُ حَقُّ الْجِوَارِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ لَا رَحِمَ لَهُ، وَلَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ الْجِوَارِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ فَجَارٌ مُسْلِمٌ ذُو رَحِمٍ لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الرَّحِمِ وَأَدْنَى حَقِّ الْجِوَارِ أَنْ لَا تُؤْذِي جَارَكَ بِقُتَارِ قِدْرِكَ إِلَّا أَنْ تَقْدَحَ لَهُ مِنْهَا**». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٤): «رواه البزار عن شيخه عبدالله بن محمد الحارثي، وهو وضاع» اهـ.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾، قيل: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ هو رفيقك في السفر، هذا هو الصاحب بالجنب، وقيل: هو الزوجة، الزوجة هي الصاحب بالجنب، وقيل: هو الصديق مطلقًا، صديقك مطلقًا له حق عليك، هذا هو الصاحب بالجنب(١).

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: ابن السبيل هو المسافر الذي انقطع في سفره لم يبق معه نفقة توصله إلى مقصده ورجوعه إلى بلده؛ إما أن نفقته نفدت وانتهت، أو أنها سُرِقت، أو أنها ضاعت، فلم يبق معه نفقة، وصار منقطعًا في الطريق، هذا له حق وإن كان غنيًّا في بلده، إذا فقد النفقة في أثناء السفر، فإن له حقًّا على أخيه المسلم؛ بأن يعطيه ما يوصله إلى بلده، فابن السبيل هو المسافر المنقطع، يُعطى ما يوصله إلى بلده من الزكاة أو من غيرها من الصدقات.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء:٣٦]، أي: وأحسنوا بما ملكت أيمانكم، والمراد بـ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء:٣٦]: الأرقاء، المماليك من بني آدم الذين صاروا مملوكين، فيجب على سيدهم الإحسان إليهم بالنفقة، والسكنى، والكسوة، وألا يكلفهم من الأعمال ما لا يطيقون.

وكذلك ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء:٣٦]، يشمل حتى البهائم التي تملكها، تحسن إليها، البهائم التي تملكها من الإبل والبقر والغنم أو غيرها من الطيور أو غيرها، تحسن إليها؛ بأن تعطيها كفايتها من الطعام والشراب، وألا تحملها ما لا تطيق؛ لأنها بهائم؛ تحس بألم الجوع والعطش والإنهاك، فلا يجوز لك

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١١- ١٥)، وتفسير الماوردي (١/ ٤٨٥)، وزاد المسير (١/ ٤٠٤)، وتفسير القرطبي (٥/ ١٨٨- ١٨٩).

أن تسيء إليها، بل يجب عليك أن تحسن إليها، توفر لها نفقتها وسقيها، والمكان اللائق بها، وإذا استعملتها، فلا تشق عليها بالعمل، ولا تحملها ما لا تطيق.

والبهائم لها حق، حتى ولو كانت ليست ملكًا لك، تحسن إليها، فقد صح في الحديث أن النبي ﷺ: أن امرأة نزلت في بئر لتشرب، نزلت في البئر لتشرب، فشربت، فلما صعدت من البئر، وجدت كلبًا على شفير البئر يلهث من العطش، يلحس الثرى من العطش، فقالت: لقد أصاب هذا مثل ما أصابني، فنزلت في البئر مرة ثانية، وملأت خُفَّها الذي تلبسهن ملأته بالماء، ثم صعدت وسقت الكلب، فشكر الله لها ذلك، وغفر لها، لما أحسنت إلى هذا الكلب وسقته[1]، وفي المقابل: قال ﷺ: «**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكْتُهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**»[2]، ماتت الهرة وهي محبوسة من الجوع والعطش، فأوجب ذلك لهذه المرأة -والعياذ بالله- دخول النار، فهذه البهائم لها حق أن تحسن إليها -أيضًا.

هذا هو الإحسان إلى المخلوقين، تحسن إليهم ببذل الندى -يعني: العطاء-، وكف الأذى عنها؛ لأن لها حقًّا، سواء كانت من الآدميين أو كانت من البهائم، هذه أنواع من الإحسان للخلق.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري -واللفظ له- (٣٣٢١)، ومسلم (٢٢٤٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ، مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ، قَالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ المَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ**».

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٣، ٢٦١٩)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك من الإحسان: إتقان العمل، الإنسان إذا كان يعمل، يبني، أو يخيط ثيابًا، أو ينسج ثيابًا، أو يعمل أي عمل بالأجرة كالمقاولين أو الصناع، أو يعمل ينتج منتجات يبيعها للناس، فيجب عليه أن يحسنها، بمعنى: أنه يتقن صنعتها، وألا يغشها، ولا ينقص منها شيئًا، هذا من الإحسان، إحسان العمل؛ ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

فتحسن العمل الذي تكفلت به بالأجرة، أو بغير ذلك تحسنه وتتقنه، ولا تغش فيه، ولا تنقصه شيئًا، هذا من الإحسان في الصنعة، وإتقان الصنعة، وإتمام العمل الذي أُئتمنت عليه، هذا من الإحسان -أيضًا.

فالإحسان مجالاته واسعة وكثيرة، وحتى من يستحق القتل من الآدميين، أو ما يراد ذبحه من البهائم للأكل، قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ، فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ، فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ**»(١)، فإذا كان إنسان مستحقًّا للقتل حدًّا أو قصاصًا، فإنه لا يجوز تعذيبه، بل يُقتل قتلة حسنة مريحة، يُقتل قتلة حسنة مريحة ليس فيها تعذيب ولا مثلى، ولا تقطيع أطراف، ولا تجريح، وإنما يُقتل قتلة مريحة، «**فَإِذَا قَتَلْتُمْ، فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ**».

وإذا أردت أن تذبح بهيمة للأكل -بعيرًا، أو بقرة، أو شاة، أو طائرًا، أو غير ذلك مما يؤكل-، فلا تعذبها عند الذبح، بل تذبحها ذبحة مريحة، حتى إن الرسول ﷺ أمر أن تحدُّ الشِّفار -يعني: السكاكين-، تحد لا تكون كالَّة تعذب الحيوان، وأيضًا أن توارى عن البهائم؛ لا تُظهر السكين أمامها، أو تذبح

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أمامها دابة أخرى، هذا تعذيب، «أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُحَدَّ الشِّفَارُ»، يعني: السكاكين، «وَأَنْ تُوَارَى عَنِ الْبَهَائِمِ»(١)، يعني: تغطى عن البهائم، هذا من الإحسان للبهائم التي يراد ذبحها.

وكذلك الآدميين الذين يراد قتلهم، قد أباح الله قتلهم بحد أو بقصاص، فإنهم يُقتلون قتلة مريحة، لا يُعذبون، هذا من الإحسان، فالله جَلَّ وَعَلَا أمر بالإحسان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠]، أمر بالعدل والإحسان، أمر بالإحسان في كل شيء، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كَتَبَ»، يعني: أوجبه، كتب يعني: أوجب؛ «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلِيَحُدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ»، يعني: سكينه، «وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»، هذا من الإحسان، هذا هو الإحسان.

ثم ننتقل إلى النقطة الأخيرة من الحديث، قال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ»(٢)، أي: عن قيام الساعة، متى يكون قيام الساعة؟

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»؛ لأن قيام الساعة لا يعلمه إلا الله، فهو من علم الغيب الذي اختص الله جَلَّ وَعَلَا به؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان:٣٤]، هذه فواتح الغيب، مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ

(١) أخرجه أحمد (١٠/ ١٠٥)، وابن ماجه (٣١٧٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) سبق تخريجه (ص٢٥).

ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام:٥٩]، منها قيام الساعة، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٧]، ولا مصلحة لنا في معرفة وقت قيام الساعة، ليس لنا فيه مصلحة، لو كان لنا فيه مصلحة، لبيَّنه الله لنا.

الله جَلَّ وَعَلَا أمرنا بالعمل الصالح، والتوبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، أما قيام الساعة، فهذا إلى الله، ليس لنا مصلحة في معرفته، بل المصلحة في عدم معرفته، ولذلك أخفاه الله جَلَّ وَعَلَا عنا، فلا يعلمه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي هو سيد الملائكة، ولا يعلمه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو سيد الخلق.

«**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا**»، وهو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «**بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي: أنا وأنت سواء في عدم معرفة وقت قيام الساعة؛ لأن هذا لا يعلمه إلا الله جَلَّ وَعَلَا، قال: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»، أي: أنا وأنت كلنا لا نعرفها، ولا يعرفها لا ملكٌ مقرب، ولا نبيٌ مرسل، وإنما هذا من علم الله جَلَّ وَعَلَا الذي اختص به، ولم يُظهره لأحد جَلَّ وَعَلَا.

فلا يجوز السؤال عن قيام الساعة، وإنما يجب العمل الصالح والاستعداد، هذا هو الذي نحن مطالبون به، ولم نُطالب بمعرفة وقت قيام الساعة، قال: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»، وجبريل إنما سأل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا السؤال ليبين للناس أن هذا من اختصاص رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه لا يجوز لأحد أن يسأل عنه، أو أن يبحث عنه؛ لأن هذا من علم الله جَلَّ وَعَلَا الذي لا يعلمه إلا هو.

«قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا»، أي: العلامات التي تدل على قرب قيامها، هذه الأمارات، الأمارات يعني: العلامات التي تدل على قرب قيام الساعة، هذه بيَّنها الله لنا، أمارات الساعة بيَّنها الله جَلَّ وَعَلَا لنا؛ قال سبحانه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ ﴾، أي: لا ينتظرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٨]، ﴿أَشْرَاطُهَا﴾: علاماتها التي عليها.

وأول علامات الساعة: بعثة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو نبي الساعة، لا نبي بعده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تقوم الساعة، هذه أول علامات الساعة: بعثة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد ذكر العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن علامات الساعة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسم مضى وانتهى.

القسم الثاني: قسم لا يزال لم ينته، لا يزال يحدث شيئًا بعد شيء، لم ينته.

أما الذي مضى وانتهى، فهو ما كان من بعثة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان من الفتوحات في المشارق والمغارب، وما كان من الفتن التي ظهرت بعد مقتل عثمان الخليفة الراشد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، الفتن التي ظهرت هذه من علامات الساعة.

الفرق التي ظهرت: القدرية، والخوارج، والمعتزلة، والجهمية، الفرق التي ظهرت ظهورها من علامات الساعة.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»[1]، وقد حصل ذلك، حصلت الفرقة والاختلاف، هذا من علامات الساعة التي مضت وحصلت.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

أما العلامات التي لا تزال تتجدد وتحدث، فهو ما بين أيدينا الآن، وما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما قال له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**».

«**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا**»، ما معناه؟ قال العلماء: معناه أنه يكثر التسري في آخر الزمان، التسري، يعني: وطء المملوكات، السيد الذي يملك الْأَمَة يطؤها، ثم تحمل منه، ثم تأتي بمولود، هذا المولود حر وأمه رقيقة، هذا المولود حر؛ لأن أباه حر، وأمه رقيقة مملوكة، فهذه الْأَمَة ولدت ربَّتَها، أي: سيدتها؛ لأن بنتها حرة، فتكون سيدة لأمها، هذا قال العلماء معنى «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا**»، أي: أن المملوكات يلدن بنات حرائر من أسيادهن، فالبنت حرة، والأم أمة، فتكون البنت سيدة لأمها، هذا من علامات الساعة.

ومن العلماء من يقول: إن هذا معناه: فشو العقوق في آخر الزمان، فتتكبر البنت على أمها، حتى تكون كأنها سيدة لها، يفشو العقوق في آخر الزمان حتى تكون البنت تتكبر على أمها، حتى تكون كأنها سيدة لها من العقوق والتكبر، والله أعلم(١).

العلامة الثانية التي ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**».

«**وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ**»، الحُفاة: الذين ليس عليهم نعال.

---

(١) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/ ١٣١)، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ١٤٨)، وشرح النووي على مسلم (١/ ١٥٨- ١٥٩).

«**الْعُرَاةَ**»: الذين ليس عليهم لباس.

«**الْعَالَةَ**»: الفقراء، جمع عائل، وهو الفقير.

«**رِعَاءَ الشَّاءِ**»: أي: الذين يرعون الغنم.

في آخر الزمان يفيض عليهم المال، فيتفاخرون بالمباني؛ ببناء البيوت والقصور والمساكين وتنميقها وتزويقها، وتزيين المباني، وهم كانوا بالأمس في البادية حفاة عراة يرعون الغنم، في آخر الزمان ومن علامات الساعة أن هؤلاء يفيض عليهم المال، فيصبح همهم التباهي بالبنيان، وكما ترون الآن انتشار العمران، والمباهاة في المساكن، تجد الفقير الذي كان فقيرًا بالأمس تجده اليوم يسكن في قصر مشيد، لا يسكنه في الأول ولا الملوك، هذا من علامات الساعة.

وأيضًا قالوا: هذا يتضمن أن الذين كانوا لا شأن لهم يتزعمون في آخر الزمان، يصير لهم سيطرة على الناس، وهم كانوا بادية حفاة عراة، يصيرون سادة في آخر الزمان، هذا من علامات الساعة(١).

وقد عدَّ النبي ﷺ من علامات الساعة: أن تتكلم **الرُّوَيْبِضَةُ**. قالوا: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: الإنسان الذي ليس شأن يصير هو سيد الناس، وهو أميرهم، إلى آخره(٢)، وهذا وقع كما أخبر به ﷺ.

---

(١) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/ ١٣١)، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ١٤٩- ١٥١)، وشرح النووي على مسلم (١/ ١٥٩).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (١٣/ ٢٩١)، وابن ماجه -واللفظ له- (٤٠٣٦)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**. قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: **الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**».

الذي ترونه الآن من تقارب الزمان، وتقارب المكان والاتصالات السريعة، ووسائل النقل السريعة هذه من علامات الساعة[(١)]، جاء في الحديث: أنها تُعطل الْقَلُوص، يعني: الإبل، تُعطل الْقَلُوص في آخر الزمان، فلا تُركب؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاللهِ، لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ**»[(٢)]، فما ترونه الآن من المخترعات ومن تغير وسائل النقل، ومن وسائل الاتصال السريع الذي يربطك بالعالم في أي مكان كأنه إلى جنبك تكلمه وتتفاهم معه، وهو في أقصى الدنيا، هذا من علامات الساعة.

قلة العلماء وكثرة القراء هذا من علامات الساعة؛ قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**إِذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ**»[(٣)]، هذا من علامات الساعة.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (١٦/ ٥٥٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ الْخُوصَةُ**».

وكما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٣٣٢)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرَمَةِ بِالنَّارِ**».

(٢) أخرجه مسلم (١٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٢٧٨)، والشاشي في مسنده (٢/ ٩٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٦٠).

الآن ترون فشو التعليم، فشا التعليم في كل مكان، لكن الفقه قليل، القراء كثيرون الذين يقرؤون ويكتبون، لكن الفقهاء الذين يعرفون الحلال والحرام ويفتون في النوازل قليل جدًا، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(١)، هذا من علامات الساعة -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، هذه هي العلامات المتوسطة.

القسم الثالث: العلامات الكبرى، العلامات الكبرى التي تتتابع، ثم تقوم بعدها الساعة -والعياذ بالله-(٢)، وهي:

أولًا: ظهور المهدي الذي أخبر عنه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي يحكم بالعدل، ويقيم الإسلام(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٣)، من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر الأحاديث في أشراط الساعة في: صحيح مسلم [ح٣٩(٢٩٠١)، و٤٢(٢٩٠٢)]، وانظر أحاديث الدجال في البخاري (٧١٢٢ - ٧١٣٤)، وصحيح مسلم (٢٩٤٣)، وانظر في خبر يأجوج ومأجوج صحيح البخاري (٧١٣٥، و٧١٣٦)، وصحيح مسلم (٢٨٨١).
وعن حذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: اطّلع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا ونحن نتذاكر فقال: «**مَا تَذَاكَرُونَ؟**» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قال: «**إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ**» هذا لفظ مسلم. وانظر في أشراط الساعة: كتاب (الإذاعة) لصديق حسن خان.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (١٧/ ٢٠٩)، وأبو داود (٤٢٨٥)، والترمذي (٢٢٣٢)، وابن ماجه (٤٠٨٣)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمَهْدِيُّ مِنِّي، أَجْلَى الْجَبْهَةِ، أَقْنَى الْأَنْفِ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ**».

ثم يظهر الدجال في وقته، المسيح الدجال -لعنه الله- الفتان، الكافر الذي يدعي أنه هو الله جَلَّوَعَلَا، ففتنته عظيمة، يظهر في وقت المهدي(١).

ثم ينزل المسيح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من السماء كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك(٢)، ينزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من السماء، فيقتل الدجال، ويريح المسلمين من شره، ويحكم بالإسلام، وبشريعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣).

ثم تظهر الدابة التي كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢]، تَسِمُ المؤمن بأنه مؤمن، وتَسِمُ الكافر بأنه كافر، فيظهر المؤمن والكافر، فيُعرف هذا

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٠٤) (٢٩٣٤) عَنْ حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ، مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ**». وأخرجه مسلم (١٠٩) (٢٩٣٦) عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ الدَّجَّالِ حَدِيثًا مَا حَدَّثَهُ نَبِيٌّ قَوْمَهُ إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ مِثْلُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَالَّتِي يَقُولُ إِنَّهَا الْجَنَّةُ هِيَ النَّارُ، وَإِنِّي أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ كَمَا أَنْذَرَ بِهِ نُوحٌ قَوْمَهُ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١١٠) (٢٩٣٧) عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «...فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ....». وانظر: البداية والنهاية (١٩/ ٢٣٧-٢٣٩).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (٢٤٢) (١٥٥)، عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**».

وهذا، حتى يقول المؤمن: يا كافر، ويقول الكافر: يا مؤمن، يتنادون بهذا، هذا بعد ظهور الدابة(١).

ثم ظهور الشمس من مغربها، وهذا حدث عظيم هائل، ظهور الشمس من مغربها، بدل أن تطلع من المشرق تخرج من المغرب، فإذا خرجت من

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ١٢٤)، عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ، قَالَ: سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: وَذَكَرَ الدَّابَّةَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، مِنْ أَيْنَ تَخْرُجُ؟ قَالَ: مِنْ أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ حُرْمَةً عَلَى اللهِ، بَيْنَمَا عِيسَى يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، إِذْ تَضْطَرِبُ الْأَرْضُ تَحْتَهُمْ، تُحَرِّكُ الْقِنْدِيلَ، وَيَنْشَقُّ الصَّفَا مِمَّا يَلِي الْمَسْعَى، وَتَخْرُجُ الدَّابَّةُ مِنَ الصَّفَا أَوَّلَ مَا يَبْدُو رَأْسُهَا مُلَمَّعَةً ذَاتَ وَبَرٍ وَرِيشٍ، لَمْ يُدْرِكْهَا طَالِبٌ، وَلَنْ يَفُوتَهَا هَارِبٌ، تَسِمُ النَّاسَ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، أَمَا الْمُؤْمِنُ فَتَتْرُكُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، وَتَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُؤْمِنٌ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَتَنْكُتُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ كَافِرٌ».

وكما في الحديث الذي أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (٢/ ٦٦١)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٧٣)، عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «الدَّابَّةُ يَكُونُ لَهَا ثَلَاثُ خَرَجَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ: فَتَخْرُجُ خَرْجَةً فِي أَقْصَى الْيَمَنِ حَتَّى يَفْشُوَ ذِكْرُهَا فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ، وَلَا يَدْخُلُ ذِكْرُهَا الْقَرْيَةَ، ثُمَّ تَكْمُنُ زَمَانًا طَوِيلًا بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَخْرُجُ أُخْرَى قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ، فَيَفْشُو ذِكْرُهَا فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ، وَيَفْشُو ذِكْرُهَا بِمَكَّةَ، ثُمَّ تَكْمُنُ زَمَانًا طَوِيلًا، ثُمَّ بَيْنَا النَّاسُ يَوْمًا بِأَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ عَلَى اللهِ حُرْمَةً، وَخَيْرِهَا وَأَكْرَمِهَا عَلَى اللهِ، الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، لَمْ يَرُعْهُمْ إِلَّا نَاحِيَةَ الْمَسْجِدِ تَرْبُو مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ إِلَى بَابِ بَنِي مَخْزُومٍ عَلَى يَمِينِ الْخَارِجِ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَانْفَضَّ النَّاسُ عَنْهَا شَتَّى ومَعًا، وَثَبَتَ لَهَا عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَنْ يُعْجِزُوا اللهَ، فَخَرَجَتْ عَلَيْهِمْ تَنْفُضُ عَنْ رَأْسِهَا التُّرَابَ، فَبَدَتْ لَهُمْ، فَجَلَّتْ وُجُوهَهُمْ حَتَّى تَرَكَتْهَا كَأَنَّهَا الْكَوَاكِبُ الدُّرِّيَّةُ، ثُمَّ وَلَّتْ فِي الْأَرْضِ لَا يُدْرِكُهَا طَالِبٌ وَلَا يُعْجِزُهَا هَارِبٌ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَقُومُ يَتَعَوَّذُ مِنْهَا بِالصَّلَاةِ، فَتَأْتِيهِ فَتَقُولُ: أَيْ فُلَانُ، الْآنَ تُصَلِّي؟ فَيُقْبِلُ عَلَيْهَا بِوَجْهِهِ، فَتَسِمُهُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ تَذْهَبُ، وَيَتَجَاوَرُ النَّاسُ فِي دُورِهِمْ فِي أَسْفَارِهِمْ، وَيَشْتَرِكُونَ فِي الْأَمْوَالِ، وَيُعْرَفُ الْكَافِرُ مِنَ الْمُؤْمِنِ، حَتَّى إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَقُولُ لِلْكَافِرِ: يَا كَافِرُ، اقْضِنِي حَقِّي، وَحَتَّى إِنَّ الْكَافِرَ يَقُولُ: يَا مُؤْمِنُ، اقْضِنِي حَقِّي».

المغرب، فإن هذا دليل على قيام الساعة[1]؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، والمراد بـ﴿بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾: هو طلوع الشمس من مغربها.

وقبل ذلك ظهور يأجوج ومأجوج، يأجوج ومأجوج أمة من بني آدم، وكان لهم وجود هائل، وكانوا يرهقون الناس، فجاء ذو القرنين فبنى السد دونهم، بنى السد، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف:٩٣]: هؤلاء هم يأجوج ومأجوج.

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف:٩٣-٩٦]، هذا هو السد، ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧]، سد عليهم؛ لا يستطيعون أن يصعدوا، ولا يستطيعون ينقبونه ويفتحونه ويخرجون منه، فاستراح العالم من شرهم. لكن ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨]، قبل قيام الساعة يندك هذا السد، يندك هذا السد، يعني: سقط، وانتهى، ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ [الكهف:٩٩]، فيخرج يأجوج ومأجوج فيعثون في الأرض فسادًا، ويقتلون المجازر الهائلة، ثم

(١) كما في حديث علامات الساعة السابق تخريجه (ص٤٣٩).

إن الله جَلَّ وَعَلَا يبعث مرضًا في أعناقهم يقال له: النَّغَف، فيموتون جميعًا، يموت يأجوج ومأجوج كلهم جميعًا في آن واحد، هذه آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(١).

هذه العلامات الكبرى التي تتتابع، ويتبعها قيام الساعة، والنفخ في الصور، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، هذا هو البعث والنشور.

الصعقة الأولى: هي النهاية، نهاية الدنيا، والصعقة الثانية: هي البعث والنشور.

هذه الساعة التي لا يعلم وقتها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن قبلها علامات تدل عليها، والواجب على المسلم أن يستعد بالأعمال الصالحة؛ لأن ساعته هي أجله، كل إنسان ساعته هي أجله، إذا مات هذه ساعته؛ «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(٢).

فساعة كل منا هي أجله، فعلينا أن نستعد بالأعمال الصالحة، ومن كان مذنبًا ومفرطًا، فإنه يتوب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثم ذهب الرجل الذي كان يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قام وخرج، انطلق، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اطلبوه»، فطلبوه فلم يجدوه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ مَعَالِمَ دِينِكُمْ»(٣).

---

(١) حديث خروج يأجوج ومأجوج سبق تخريجه (ص٤٣٩).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٩٥).

(٣) سبق تخريجه (ص٢٥).

فهذا حديث عظيم يشتمل على فوائد عظيمة كبيرة في آداب طالب العلم، وأنه يجلس بين يدي معلمه جلسة الأدب، وأنه يسأل سؤال متعلم؛ قال: «أَخْبِرْنِي»، جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْبِرْنِي»، هذا سؤال متعلم، لم يقل: أتعرف كذا؟ أتعرف كذا؟ سؤال اختبار، لا، قال: «أَخْبِرْنِي»، يعني: ظهر بمظهر الذي لا يعرف شيئًا، هذا من الأدب، هذا من حسن الأدب، وأن المتعلم يكون عند معلمه متأدبًا، لا يُظهر أنه يعرف أكثر من معلمه، بل يتواضع، ويُظهر الأدب، ويُظهر التواضع؛ كأنه لا يعرف شيئًا عند معلمه؛ قال: أخبرني عن كذا.

وفي الحديث -أيضًا- أن الدين يتفاضل؛ أنه مراتب، أولًا: الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان.

ثم قال: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»، هذا فيه أنه لا يُسأل عن الأمور التي ليس للناس حاجة فيها، والتي لا يعلمها إلا الله، لا يجوز لنا أن نسأل عن أمور الغيب، والأمور التي لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، والأمور التي ليس لنا منها مصلحة ولا فائدة، قال: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**».

وفيه الاعتبار بعلامات الساعة التي لا تزال تتكرر بين أيدينا وتتواصل وتحدث إلى أن تنتهي بالعلامات الكبار المتتابعة.

فعلى المسلمين أن يستيقظوا لأنفسهم، وأن يصلحوا أعمالهم، وأن يهتموا بدينهم، وأن يتساءلوا عنه، وأن يتدارسوه، وأن يعملوا به.

هذا وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا ولكم العلم النافع، والعمل الصالح، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

حق المسلم على المسلم ست

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

جاء في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ. قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ**»[(١)].

حق المسلم على المسلم، لا شك أن المسلمين إخوة بموجب الإيمان، فهم إخوة في الإيمان؛ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر:١٠]، في كل زمان ومكان إخوة أقوى من إخوة النسب.

فالمؤمن أخوك، سواء كان من قبيلتك أو من أقاربك، أو كان من أي مكان، أو من أي قبيلة، أو من أي شعب، هو أخوك وإن تباعدت الديار، تباعد الزمان، فالمؤمنون من أول الخلق إلى آخر الخلق إخوة، ويجب لبعضهم على بعض حقوق، بيَّنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٢).

قال: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»، أي: ست خصال.

الأولى: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ»، تقول: السلام عليكم، أو تقول: السلام عليكم ورحمة الله، أو تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهذا أكمل، ثم هو يرد عليك بالمثل أو أحسن؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء:٨٦].

فتحية المسلمين: السلام؛ كما هي تحية أهل الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤].

والسلام: قيل: هو اسم من أسماء الله، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد:٢٤]، أي: اسم الله عليكم، وقيل: السلام بمعنى: السلامة من الآفات[١].

«إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ»، بأن تقول: السلام عليكم، ثم هو يجب عليه أن يرد السلام بمثل ما سلمت عليه أو أحسن، والبداءة بالسلام سنة، ورده واجب، رد السلام واجب.

«وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ»، إذا دعاك للحضور، عنده مناسبة -مناسبة زواج-، فإنه يجب عليك أن تجيبه، إلا إذا كان هناك مانع، فإجابة الدعوة في الزواج واجبة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ، فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ»[٢].

أما إجابة الدعوة في غير مناسبة الزواج، فإنها مستحبة من باب تطييب

---

(١) انظر: اشتقاق أسماء الله (ص٢١٧)، والمنهاج في شعب الإيمان (٣/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٧٧)، ومسلم -واللفظ له- (١٤٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خاطر أخيك، وتأنيسه بحضورك، إلا إذا كان لك عذر من الحضور، فإنك تعتذر؛ من أجل ألا يكون في نفسه شيء من عدم حضورك، تعتذر بالعذر الذي يمنعك من الحضور.

«وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ»، يعني: إذا استشارك في أمر من الأمور، استشارك في زواج، استشارك في مشاركة شخص، استشارك في بضاعة هل تصلح أو لا تصلح، فإنه يجب عليك نصيحته، ولا تكتم عليه شيئًا تعلمه، بل تبيِّن له، وليس هذا من باب الغيبة، إذا استشارك في شخص هل يصلح أو لا يصلح، فقلت له: إنه لا يصلح. هذا ليس من باب الغيبة، هذا من باب النصيحة لأخيك.

«وَإِذَا عَطَسَ»، العطاس: هو خروج الهواء الذي في الجسم عن طريق الأنف، وهو أمرٌ صحي، العطاس فيه فائدة للجسم يستفرغ الهواء الذي فيه، إلا إذا وصل لحد الزكام، فإنه يكون مرضًا، أما العطاس العادي، فإنه صحة للجسم، قوة للجسم، ولذلك يُشرع أنه يحمد الله عليه؛ يقول: الحمد لله. إذا عطس، يقول: الحمد لله. ومن يسمعه، فإنه يحمد الله بعد العطاس، «فَشَمِّتْهُ»، يعني: يقول: يرحمك الله. هذا التشميت، ثم يرد عليه العاطس؛ فيقول: يهديكم الله ويصلح بالكم[1]. هذا تشميت العاطس، وهو واجب إذا حمد الله، أما إذا لم يحمد الله، فلا تشمته. أما إذا زاد العطاس عن العادة، صار مرض زكام، تدعو له بالشفاء، لا تشمته كل مرة، إذا زاد عن العادة، فإنك تدعو له بالشفاء.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٢٢٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ للهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ».

الخامسة: «وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ»، تعود أخاك المريض؛ من أجل طمأنة خاطره، ومن أجل توسعة صدره، وطلب الشفاء له، والدعاء له، يستأنس بك وبحضورك، فعيادة المريض سنة؛ لما فيها من المصلحة للزائر والمزور.

والسادسة -وهي الأخيرة-: «وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»، اتبع جنازته، شيعه إلى المقبرة، احضر الصلاة عليه والدعاء له، احضر دفنه، واستغفر له بعد الدفن، هذا من حق أخيك عليك، فهو لا ينقطع حقه بالموت، حتى بعد الموت له عليك حق أنك تتبعه، تتبع جنازته، تشيعه إلى المقبرة، تحضر دفنه، وتدعو له بعد الدفن، تستغفر له، تدعو له بالتثبيت وقت السؤال في القبر، هذا من حقه عليك.

هذه أمور بيَّنها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من حق المسلم على أخيه المسلم، ينبغي معرفتها، والعمل بها؛ لما فيها من المصالح بين المسلمين، ولا يكون هناك تهاجر، لا يكون هناك شحناء وتهاجر وتقاطع بين المسلمين، بل يكون بينهم تواصل ورحمة ومحبة، هذا شأن المسلمين، وإذا قدِّر أنه يدب بينهم شيء من سوء التفاهم، ينبغي لهم أن يصلحوا فيما بينهم، وينبغي لغيرهم -أيضًا- أن يتدخل لإصلاح ما بينهم؛ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال:١]، ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:١١٤].

فالمسلم يسعى بالإصلاح بين المسلمين، ولا يكون بين الأخوين من المسلمين أو الإخوة تهاجر من أجل أمور الدنيا، أو من أجل الهوى، أو من أجل الكراهية والبغضاء، بل يجب أن تزول هذه الأمور، وأن تعود المحبة بين المسلمين.

فهذه أمور بيَّنها النبي ﷺ فيما يكون للمسلم على أخيه المسلم؛ فلايكون بين المسلمين تهاجر وتقاطع، وحتى لو أنه أخطأ في حقك، أنت تسمح وتعفو عنه، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، فكيف إذا لم يخطئ في حقك، ولم يحصل منه في حقك إساءة، لماذا تبغضه؟ ولماذا تهجره؟ ربما أنه يكون مخالفًا لك في بعض الرأي عن اجتهاد، وليس عن بغض، وإنما عن اجتهاد، فلا ينبغي أن يكون ذلك سببًا للقطيعة، وسببًا للتهاجر بين المسلمين، وإن كان بينكم شيء من الاختلاف في مسألة من المسائل النظرية التي لا تصل إلى حد البدعة أو الشرك، فإنما هي خلاف نظري في مسألة من المسائل، قد يكون الصواب معه، وقد يكون الصواب معك، وقد تكون أنت وهو مخطئين، فلا يكون هذا سببًا للتهاجر مثلما يجري بين الإخوان في وقتنا الحاضر من التهاجر والتقاطع، وتحذير بعضهم من بعض، ينبغي التفاهم والتناصح، وإذا لم يصل الأمر إلى ما يخل بالعقيدة، فلا يجوز التقاطع والتهاجر، وإذا حصل شيء من الخلل في العقيدة، فينبغي -أيضًا- السعي في إصلاحه، وبيان الحق للمخالف؛ لعل الله أن يهديه، فإذا أصر على خطئه وهو يخل بالعقيدة، فهنا إذا كان في الهجر مصلحة، يُهجر، إذا كان الهجر يردعه؛ لعله يتوب، فإنه يُهجر. أما إذا كان الأمر راجعًا إلى خلاف دنيوي، مسألة دنيوية، لايجوز التهاجر؛ قال ﷺ: **«لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»**[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٧، ٧٢٣٧)، ومسلم (٢٥٦٠) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

وجاء في الأحاديث أن الأعمال تعرض على الله جَلَّ وَعَلَا كل يوم اثنين، فيغفر للمسلمين الذين عندهم شيء من التقصير أو خطأ، يغفر لهم إلا اثنين بينهما شحناء، فيقول الله جَلَّ وَعَلَا: «**أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**»[1]، فصارت الشحناء والبغضاء بين الإخوة سببًا لتأجيل المغفرة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا مما يؤكد أن المسلمين كالجسد الواحد وكالبنيان يشد بعضه بعضًا، ولا يكون بينهم تنافر أو تقاطع، وإذا كان أحدٌ منهم على خطأ، يُبين له، ويجب على المخطئ أن يقبل الحق، ويرجع للصواب، ولا يصر على رأيه، ويجب على أخيه أن ينصحه ويُبين له، ولا يكون بينهما خلاف مستمر، فيأخذ هذا من حسناتهما، ويؤجل المغفرة لهما، فالأمر في هذا أمر مهم جدًّا بين الإخوة، بين المسلمين.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

جاء في الحديث الصحيح عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ الْفَزَارِيِّ -وَكَانَ مِنَ الْبَاكِينَ- قَالَ: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْغَدَاةِ فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْأَعْيُنُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّ هَذَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١)، هذا إخبارٌ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المستقبل وما يحدث فيه، والمستقبل من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن الله يُطلع رسله على شيء من الغيب؛ من أجل مصلحة الناس؛ كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦، ٢٧]، الله يُطلع رسله على بعض المغيبات؛ معجزة لذلك الرسول، ولأجل مصلحة البشر.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا**»، هذا مما أطلع الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه من المغيبات؛ من أجل أن يبيِّن للناس ماذا يعملون عند حدوث ذلك الشيء في المستقبل، وهذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخبر الناس بتغير الأحوال في المستقبل، وماذا يصنعون عند ذلك، كان الأمر على عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستقرًا يحكم الناس بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وكان الأمر مستتبًا ومستقرًا، ثم من بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء عصر الخلفاء الراشدين، وكان الأمر -أيضًا- مستتبًّا على أحسن ما يرام.

والخلفاء الراشدون هم: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هؤلاء هم خلفاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سُمّوا بالخلفاء؛ لأنهم خلفوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سياسة الأمة والقيام بالأمر من بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان عهد الخلفاء الراشدين عهدًا طيبًا، وكان الإسلام عزيزًا في وقتهم، وكان من عنده مخالفة لا يجرؤ على أن يظهر مخالفته، من عنده مخالفة فإنها تبقى عنده، ولا يجرؤ أن يظهرها؛ لهيبتهم وقوتهم في أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولكن بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين حصل ما حصل من الاختلاف في الأمة، وظهرت الفرق الضالة، ونادت بمذاهبها، فعند ذلك أوصى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمة في أن تتمسك بما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان عليه خلفاؤه الراشدون؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى ثَلَاثٍ**

وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً. قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟»، يعني: ما هي الواحدة التي نجت من النار؟ «قَالَ: مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[١]، هذه هي الفرقة الناجية: أهل السنة والجماعة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ»[٢]، تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقد وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حصل الاختلاف؛ «فَسَيَرَى اخْتِلَافًا»، وليس اختلافًا يسيرًا، بل قال: «اخْتِلَافًا كَثِيرًا»، فحصل الاختلاف الكثير، بعد انقضاء القرون المفضلة حصل الاختلاف، والقرون المفضلة هي التي أثنى عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، قال الراوي: «لَا أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةً»[٣].

ثم إنها تحدث بعد القرون المفضلة أمور منكرة، ومن رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ أنه وفق رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الوصية بأمته؛ «فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا».

«فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»: هذه هي الوصية، الوصية بلزوم السنة.

والسنة: ما كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قول، أو فعل، أو تقرير[٤].

السنة في اللغة: الطريقة[٥].

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥٤).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٦٨).

(٣) سبق تخريجه (ص٢٥٤).

(٤) انظر: (ص٣٦٦).

(٥) انظر: تهذيب اللغة (١٢/ ٢١٠)، والمغرب في ترتيب المعرب (ص ٢٣٦)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤١٠)، ولسان العرب (١٣/ ٢٢٦).

قوله: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**»، أي: طريقتي وما أنا عليه.

وقوله: «**فَعَلَيْكُمْ**»: هذا حثٌّ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يسميه العلماء بالإغراء، «**فَعَلَيْكُمْ**»، أي: ألزموا؛ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة:١٠٥]، أي: الزموا، الزموا «**بِسُنَّتِي**»، سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: طريقة الرسول، «**وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ**»، أي: طريقة الخلفاء؛ لأن طريقة الخلفاء تتمشى على طريقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويؤخذ من هذا حجية ما كان عليه الخلفاء الراشدون، وأنه حجة يحتج به، بعد الاحتجاج بكتاب الله وبسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحتج بما عليه الخلفاء الراشدون.

«**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ**»: الراشدين، جمع راشد، والراشد: ضد الغاوي، الرشد ضد الغي؛ كما قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦].

«**الخُلَفَاءِ**»، ثم وصفهم بأنهم راشدون، أي: مهتدون.

«**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»، المهديين الذين هداهم الله، المهديين: جمع مهدي؛ من الهدى، وهو ضد الضلال، فالهدى ضده الضلال.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤكدًا هذا الأمر: «**تَمَسَّكُوا بِهَا**»، تمسكوا بها أي: بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، تمسكوا: كما يتمسك الإنسان بالحبل، عندما يكون في خطر فإنه يتمسك بحبل النجاة الذي ينجو به من ذلك الخطر كالغريق، الغريق في الماء يتمسك بالحبل الذي به نجاته، فكذلك عند الاختلاف يصبح الناس

كالغريق في لجة البحر من شدة الفتن والصوارف والأهواء، وليس له نجاة إلا بأن يتمسك بما ينجيه من ذلك الهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ ﴾، حبل الله هو القرآن، ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

هذا كتاب الله، وهذه سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرانا أن نتمسك بالحق الذي جاءنا من عند الله عَزَّوَجَلَّ لا سيما عند الفتن والاختلافات بين الناس.

«تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»: هذا زيادة تأكيد، تأكيد ثالث.

«وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»، أي: الأضراس من شدة التمسك؛ لأن الغريق إذا كان في اللجة، وخاف من الخطر، وعنده الحبل يعض عليه بأسنانه؛ من شدة الحرص على النجاة لما هو فيه من الخطر، فإذا خاف من انفلات الحبل من يده، عض عليه بنواجذه، هذا حثٌّ منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأكيد بالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند حدوث الاختلافات بين الناس في الآراء والمذاهب والعقائد.

ثم حذر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ضد السنة، وضد السنة هو البدعة، والبدعة: ما أُحدث في الدين من غير دليل. فمن قال: هذا الأمر من الدين، أو هذه المسألة من الدين، أو هذه العبادة من الدين، فإنه يطلب منه الدليل، فإذا لم يأت بدليل، فإن هذا بدعة، وليس من الدين، هذا هو الضابط في معرفة البدعة؛ كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»[1]، أي: مردود عليه

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

لا يُقبل، وإن كان يتقرب به إلى الله، ويطلب الأجر، ويظن أن هذا خير، فهو شر، ما لم يأت في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنة الخلفاء الراشدين، فهو شر وليس خيرًا؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا أكمل لنا الدين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، ولم يُتوف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وقد أكمل الله به الدين.

فما لم يأت في الكتاب والسنة وهدي الخلفاء الراشدين فإنه بدعة في الدين، مردودة، وإن كان صاحبها يظن أنها قربى، وأنها عبادة، وأن قصده الخير، ليست العبرة بحسن النية، حسن المقصد، لكن العبرة بالدليل، هذا هو المعتبر.

والدين -كما ذكر الله- قد كمل، ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فلا يأتي أحدٌ بعد وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإضافة، لا يأتي بإضافة وزيادة، ويقول: هذه من الدين. نقول: لا، ما لم يأت به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو ليس من الدين، ولو أن الذي أتى بهذا الشيء من العلماء ومن الصالحين، ومن أصحاب النيات الحسنة، فإنه لا يُقبل؛ لأن العبادات توقيفية، توقيفية بمعنى: أنه لا يُقبل شيء منها إلا إذا كان عليه دليل في كتاب الله، ومن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من هدي الخلفاء الراشدين.

فالذي يأتي ببدعة معناها: أنه يرى أن الدين لم يكمل، أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبين الدين التام؛ لأنه لم يذكر هذه البدعة التي جاء بها فلان أو علان، فمعناها: اتهام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدم البيان، أو اتهام القرآن بالنقص، هذا معناه، وإن لم يتلفظ بذلك، فإن هذا هو المؤدى، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ**»، إياكم: كلمة تحذير. هذا مقابل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**»،

هذا لما حث على التمسك بسنته وسنة خلفائه، حذر من ضدها، فقال: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ**»، «**وَمُحْدَثَاتِ**»؛ كما في قوله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، فلا مجال لأحدٍ أن يأتي بعبادة أو قربى، وليس لها دليل في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، ويقول: هذه طاعة. نقول له: لا، هذه معصية، وليست طاعة؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، والرسول ﷺ نهانا عن البدع، وحذرنا منها، فقال: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ**»، المحدثات يعني: بعد وفاة الرسول ﷺ، وبعدما أكمل الله الدين؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا لم يترك شيئًا فيه صلاح العباد في معاشهم ومعادهم إلا وقد بيَّنه في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ، وعمل به خلفاؤه الراشدون، فهذا سدٌّ لباب البدع.

ثم قال ﷺ معللًا التحذير من البدع، قال: «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**».

والبدعة: ما أُحدث على غير مثال سابق، ما أُحدث في الدين من غير دليل من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، هذه هي البدعة المذمومة(٢).

أما الأمور العادية التي ليست من الدين مثل: الملابس، والمآكل، والمشارب، والعادات، فهذه لا تدخل في أمور الدين، ولا تسمى بدعة.

فمثلًا: الماضون من هذه الأمة كانوا يركبون الإبل والحمير والخيل، والآن نحن نركب الطائرات والسيارات والبواخر، هذه لم تكن موجودة في الأول،

---

(١) سبق تخريجه (ص١٠٥).

(٢) انظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار (١/ ٨١) و(٢/ ١٨)، وكشف المشكل من حديث الصحيحين (١/ ١١٦)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٠٦، ١٠٧)، ولسان العرب (٨/ ٦).

هل نسميها بدعة؟ لا، هذه ليست من البدعة، هذه من المنافع التي خلقها الله لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣]، هو الذي خلق لكم ما في السماوات وما في الأرض، الله خلق هذه المنافع، وأباح لنا الاستفادة منها، وهي ليست من الدين، هذه من المنافع ومن العادات ومن المصالح.

فالبدعة إنما تكون في أمور الدين، أما أمور الدنيا وأمور العادات، فالجديد يؤخذ، الجديد المفيد يؤخذ -كالسلاح، المراكب، الملابس-، الأولون كانوا يبنون مساكنهم من الطين ومن المدر، يعني: من الطين ومن الحجارة، والآن المساكن تبنى بالأسمنت، نبنى بالمسلح، فلا نقول: إن هذا بدعة. نقول: هذا من المنافع التي أباحها الله لنا، لكن لم يكتشفها الناس إلا في العصر المتأخر، فأمور العادات وأمور المنافع الدنيوية هذه خلقها الله للعباد ليستعينوا بها على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي نعمة منه، ففرقٌ بين هذا وهذا، ولهذا قال: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا**»، «هذا»، يعني: الدين، البدعة إنما تكون في أمر الدين والعبادة، «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

وهنا يقول: «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**»، محدثة يعني: في الدين؛ لأن الدين تكامل على عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوز لأحدٍ أن يأتي فيما بعد ويضيف إليه شيئًا لم يأت به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقول: هذا من الدين. نقول: لا، هذا ليس من الدين، لو كان من الدين، لجاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكم حدث من البدع والمخالفات التي يظن أصحابها أنها تقربهم إلى الله، وهي تبعدهم عن الله عَزَّوَجَلَّ!

---

(١) سبق تخريجه (ص١٠٥).

التعبد بالبدع من دين النصارى، النصارى هم الذين يعبدون الله بالبدع والمحدثات، وقلدهم من قلدهم من هذه الأمة، فأحدثوا البدع، وقالوا: هذا من الدين! والعجيب في الأمر أنهم يقولون: البدعة تنقسم إلى قسمين: بدعة حسنة، وبدعة سيئة، نقول: هذا تقسيم مردود؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقسم ولم يفصل في البدعة، بل قال: «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، وأنت تقول: ليست كل بدعة ضلالة، بل هناك بدعة حسنة. هذا ردٌّ على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا فماذا؟! الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، وأنت تقول: هناك بدعة حسنة؟! هذا ردٌ على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس هناك بدعة حسنة، «**وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، عمم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البدع، ولم يستثن منها شيئًا؛ «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، وفي رواية: «**وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**».

فهذا الحديث يتضمن هذه الوصية العظيمة، أخبرنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حدوث الفتن والاختلافات وحدثت كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأوصانا عند ذلك بالتمسك بسنته وسنة خلفائه الراشدين، وحذرنا من البدع التي ستحدث في آخر الزمان، فقد حدثت وكثرت؛ كثيرٌ من الناس الآن إنما يحرصون على إحياء البدع، ولا يرغبون في السنن، وفي السنن -والحمد لله- غنية وكمال، لكنهم لايرغبون إلا البدع؛ لأنهم ضلوا -والعياذ بالله-، وإذا ضل الإنسان، فلأنه لايميز بين الحق والباطل، بل يحرص على الباطل أكثر مما يحرص على الحق، ولذلك تجد هؤلاء ينشطون في إحياء البدع، ويموتون عن السنن، ويكسلون، ولا يرغبون فيها، وهذا من العقوبة لهم؛ لأن الإنسان إذا ترك الحق، فإنه يُبتلى

بالباطل؛ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥]، أي: الخارجين عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالبدع شر وضلال، وصرفٌ عن الدين، وإن زينوها وحسنوها بزخرف القول، فإنها بدع وضلال وفتنة وشر.

فالواجب على المسلمين أن يحذروا من البدع بأنواعها: البدع في العقيدة، البدع في العبادة، البدع في الطاعات، يكفينا أن نعبد الله جَلَّ وَعَلَا بما شرعه لنا، ولا نشرع لأنفسنا شيئًا لم يشرعه الله؛ قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

فالعبادة توقيفية على الكتاب والسنة، فمن جاء بشيء ليس من الدين، وادعى أنه خير، نقول له: ائت بدليل من كتاب الله، أو من سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من هدي الخلفاء الراشدين، ائت لنا بدليل. فإذا لم يأت بدليل، قلنا: هذا بدعة، وكل بدعة ضلالة، وإن زعمت أنه طاعة، وأنه قربى، فهو معصية لله عَزَّ وَجَلَّ.

ولكن إذا غلبت الأهواء في الناس، وساد التقليد الأعمى في الناس، فإنهم يعتقدون الحق باطلًا، والباطل حقًّا، ومن دعاهم إلى السنة كفروه، أو ضللوه، ومن دعا إلى البدع، شجعوه، هذه عادة أهل الضلال في كل زمان ومكان، ولكن -الحمد لله- الحق واضح، والطريق بيِّن، وبين أيدينا كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبين أيدينا سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محفوظة ومدونة ومعتنى بها غاية العناية، حتى كأنك تسمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحدث بها.

هذا من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يوفقنا لاتباع السنة، واجتناب البدعة!

ونسأله أن يثبتنا وإياكم على الحق، أن يثبتنا وإياكم على الحق، وأن يجنبنا وإياكم شر الأهواء والتقليد الأعمى، إنه سميع مجيب.

نسأله سبحانه أن ينصر دينه، وأن يعلي كلمته، وأن ينصر عباده المؤمنين، وأن يكبت أعداء الدين والمبتدعين!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه اجمعين.

«قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»[(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، أما بعد:

في هاتين الكلمتين العظيمتين، فهو من جوامع كلمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقوله: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ»، الإيمان هو التصديق الجازم في القلب الذي لايعتريه شك، هذا في اللغة، أما في الشرع فالإيمان كما بينه العلماء: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، هذا هو الإيمان في الشرع[(٢)].

فقوله: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ»، كلمة (آمنت بالله) تشمل الإيمان بربوبية الله، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، وتشمل بقية أركان الإيمان الستة، فهي كلمة جامعة، تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، توحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ فلا يكون العبد مؤمنًا بالله إلا إذا آمن بهذه الأمور الثلاثة، وإن نقص واحد منها؛ لو أقر بتوحيد الربوبية فقط، وأنكر توحيد الألوهية، لم يكن مؤمنًا، ولو أقر بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨)، وأحمد -واللفظ له- (٢٤/ ١٤٢)، من حديث سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: (ص٣٩٦).

وأنكر الأسماء والصفات، لم يكن مؤمنًا؛ حتى يؤمن بجميع هذه الأمور الثلاثة، هي الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا بد أن يصرح بذلك فينطق به؛ فيقول: «**آمنت بالله**»، لا يكفي أنه يكون مؤمنًا بقلبه فقط، لابد أن ينطق ويقول: «**آمنت بالله**»، ثم لا يكفي هذا، لابد من الاستقامة بالجوارح والأعمال، لابد من الأعمال التي تصدق إيمانه في قلبه، وهذا هو مذهب أهل السنة أن الإيمان قول واعتقاد وعمل، فهذا الحديث يشمل جميع الأنواع الثلاثة.

«**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ**»، هذا القول باللسان، و«**آمَنْتُ بِاللهِ**» هذا هو الإيمان بالقلب، فهو يخبر عما في قلبه، وقوله: «**ثُمَّ اسْتَقِمْ**» هذا هو العمل بالجوارح، هذا هو الإيمان، حقيقته الشرعية.

وقوله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ثُمَّ اسْتَقِمْ**»؛ لأن هناك من يقولون: آمنا بالله، ولكن لايستقيمون، ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** ﴾ [البقرة:٨، ٩]، ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ** ﴾ [العنكبوت:١٠]، فهناك من يقول: «آمنت بالله»، لكن لا يستقيم، وهم المنافقون.

ثم -أيضًا- قولهم: ﴿ **ءَامَنَّا بِٱللَّهِ** ﴾ هذا كذب؛ يريدون المخادعة، ﴿ **يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** ﴾ [البقرة:٩]، وليس في قلوبهم إيمان، ﴿ **يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ** ﴾ [آل عمران:١٦٧]، هذه صفة المنافقين الذين ينطقون بألسنتهم، ولكن تُنكر قلوبهم، ولا توافق على ما تقوله ألسنتهم.

فالمؤمن لابد أن تتوفر في هذه الأمور الثلاثة:

* أن يقول: «آمنت بالله».

* وأن يكون هذا الإيمان في قلبه صحيحًا، ليس هو دعوى باللسان فقط.

* وأن يعمل ويستقيم، أن يعمل.

والاستقامة معناها: الاعتدال بين الإفراط والتفريط؛ لا يكون عنده غلو، زيادة في الدين، تنطع، الله جَلَّ وَعَلَا حذر من الغلو، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١]، النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[1]، الغلو هو الزيادة، الزيادة في الدين والتشدد، وكذلك التساهل، وهو التفريط، التفريط في الدين، تعطيل الأعمال والكسل، فالمسلم يكون بين الإفراط والتفريط؛ لايتشدد، ولايتساهل، ودين الله بين الغالي والجافي، الغالي هو المتشدد، والجافي هو المضيع.

وجاء الأمر بالاستقامة في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ [هود:١١٢]، ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾: لايزيد على ما أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ بل يستقيم كما أمره الله، ولا يزيد، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾، يعني: لا تزيدوا وتغلوا؛ لأن هناك من الناس من يغلو في الدين، يتشدد، وهذا مذهب مذموم، مذهب الخوارج، وهو الغلو الذي أهلكهم، هم أهل دين وأهل عبادة، وأهل ورع، وأهل خوف، ويكثرون من تلاوة القرآن، ويصلون الليل، ويصومون النهار، لكن عندهم غلوًا، زيادة أخرجتهم عن الاعتدال، فهلكوا بسبب الغلو.

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وهناك من يتساهلون في أمور الدين، وهم المرجئة الذين يرون أن الأعمال ليست من الإيمان، إن حصلت، وإلا ليست من الإيمان، ويقولون: الإيمان في القلب، أو الإيمان بالقلب واللسان والأعمال، لو لم تأتِ، لا تضر، لايضر مع الإيمان معصية -يقولون-؛ كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

وهذا قول باطل يقابل مذهب الغلاة، على طرفي نقيض مع الخوارج.

أما أهل السنة، فهم الوسط بين المذهبين، بين مذهب الغلو والتطرف والتشدد، ومذهب التساهل والتميع وإضاعة العمل.

والاستقامة معناها: الاعتدال، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦]، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا**»(١).

«**سَدِّدُوا**» أي: أصيبوا الصواب والهدف، وإذا عجزتم عن الإصابة، «**قَارِبُوا**»، المقاربة تكفي، فالدين وسط -ولله الحمد-، ليس فيه غلو وتشدد وزيادة، وليس فيه تساهل، ولما قال ثلاثة من الصحابة، قال واحد منهم: أنا أصلي ولا أنام، قال الثاني: أنا أصوم ولا أفطر، قال الثالث: أنا لا أتزوج النساء. تشدد، فلما علم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمقالتهم قال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(٢)، هذا هو الاعتدال، يصلي من الليل وينام، ويصوم من الأيام، ويفطر بعض الأيام، ويتزوج النساء، ولا يتبتل ويترك الزواج تقربًا إلى الله، هذا ليس تقربًا إلى الله، هذا تعذيب للنفس وتعطيل للنسل، وتعطيل لمرفق هام من مرافق

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الحياة، وهو الزواج، الدين لا يرضى بهذا؛ أول شيء: أنه تشدد على النفس، وثانيًا: أنه تضييع لمرفق هام من مرافق المجتمع، وهو الزواج.

والصلاة والنوم بالليل هذا رفق بالبدن، البدن لا يستطيع كل الليل يصلي، يرفق بالبدن، يرفق بالنفس.

والصيام كذلك والإفطار، الذي يصوم ويفطر لا يتعب نفسه، ويصوم كل الأيام، ولا يفطر أبدًا، بل يصوم ويفطر، يعطي نفسه الراحة، ولا يتشدد عليها، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا**»[(١)]، الدين لا يمكن أنك تحيط بالدين كله، الدين متين، يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**»، برفق، ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»[(٢)].

المتشددون والمتنطعون والغلاة كثيرًا ما ينحلون ويتركون الدين؛ لأنهم يملون ولا يقدرون على الاستمرار، التشدد صعب، فيملون وينقطعون ويتركون، بعضهم ينحرف ويزيغ، وبعضهم يترك العمل؛ لأنه لا يستطيع أن يستمر على التشدد، لا يعيش على التشدد أحد، إنما الاعتدال هو الذي يبقى ويستمر، يعمل من الدين ما يستطيع، ولا يشق عليه، هذا يستمر، أما الذي يشد بالأول ويتشدد، هذا يعجز عن الاستمرار، ويترك الدين، وكم من شخص زاغ، وترك الدين بسبب التشدد، ولو أنه من الأول اعتدل واستقام، لم يترك

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ١١٠)، وابن ماجه (٢٧٧)، والدارمي (٦٨١) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي (٢/ ١٨٤)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢٧) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ؛ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**».

دينه. فالتوسط سبب للاستمرار، والغلو سبب للانحلال وترك الدين، الإنسان بشر لا يستطيع.

«إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ»، المسافر تعبت راحلته وانقطعت، جلس في الطريق، «وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»، الراحلة راحت ماتت، «لَا أَرْضًا قَطَعَ»، المسافة باقية، هذا مثال ضربه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن لو أنه أخذ الطريق بالرفق شيئًا فشيئًا، لاستراح، وقطع المسافة، ووصل إلى البلد الذي يريد، إذا أخذ الطريق مراحل شيئًا فشيئًا، وسار في وقت الدلجة آخر الليل وقت البراد، ثم استراح وسط النهار، وقَال هو وراحلته، ثم سار بعدما يبرد الجو، هذا يقطع المسافة، ويستريح، وتبقى له راحلته بسبب الاعتدال في السير، أما الذي يتشدد في السير أول ما سار، هذا راحلته تهلك، ويبقى في الطريق، وقد يهلك؛ يصيبه الجوع والعطش يموت.

وكذلك الكسلان الذي لا يسير مع الطريق، ينام ولا يسير، هذا لا يقطع المسافة.

الوسط بين الكسل وبين التشدد هذا في الأمور الحسية وفي الأمور المعنوية، الوسط هو الخير، وأمر الله به؛ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]، ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾، ثم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦]، استغفروه؛ لأن الإنسان بشر يحصل منه خلل في الاستقامة؛ قد لا يستقيم كل الاستقامة، يحصل منه خلل يحتاج إلى الاستغفار عما قصر فيه، ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦] مما يحصل من الخلل والنقص.

والاستغفار يجبر النقص، الإنسان بشر يخطئ، ولكن يرفع هذا الخطأ بالاستغفار.

الحاصل أن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ اسْتَقِمْ»، لم يكتف بقوله: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ»، بل قال: «ثُمَّ اسْتَقِمْ»، هذا دليل على أنه لابد من العمل، ولا يكفي أنه يقول: أنا مؤمن، الإيمان في القلب، ولا يعمل شيئًا. هذا ليس هو الإيمان المطلوب، الإيمان يستدعي العمل والاستقامة على الطاعة.

فهذا الحديث من أبرز الأدلة على أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

وفيه: الرد على أهل الغلو والتشدد.

وفيه: الرد على أهل الكسل والخمول.

وفيه: أن الدين وسط بين الإفراط والتفريط.

فهو حديث عظيم يجعله المسلم منهجًا له، يسير عليه في طريقه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أن يقول: آمنت بالله، ثم يستقيم على طاعة الله، وترك معصية الله.

فهذا هو المنهج السليم الواضح الذي لخصه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلمتين خفيفتين، «آمنت بالله»، ثم يستقيم على ذلك؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ يعني: عند الموت، ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

هذا نتيجة أنهم ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾، ولم يقولوا: ربنا الله فقط، ويتركون الاستقامة، بل ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾، حصلوا على هذه البشارة العظيمة، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف:١٤].

لاحظ! ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لم يحصلوا على الجنة إلا بالعمل، ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف:١٤]، بدون عمل لا تحصل على الجنة، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «الْكَيِّسُ» يعني: العاقل الحازم، «مَنْ دَانَ نَفْسَهُ» يعني: حاسبها، «وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ»(١)، يريد الجنة بدون عمل، لا يمكن هذا، الجنة لابد من عمل، إلا الإنسان الذي لم يستطع أن يعمل، هذا معذور، الذي لم يستطع يعمل هذا معذور، أما الإنسان الذي عنده استطاعة للعمل، وترك العمل، هذا لا يصل إلى الجنة؛ لأنه لم يقدم شيئًا يؤهله للجنة، وليس معذورًا، إذا ترك العمل لأنه معذور لا يستطيع، فهذا يكفي منه الاعتقاد في قلبه والإيمان في قلبه، وأنه لو تمكن من العمل لعمل، ينوي هذا بعزمه ونيته، فهذا هو الطريق الصحيح والصواب في هذه المسألة التي غلط فيها الكثير من الناس بين الإفراط والتفريط، والخير هو الاعتدال والوسط في الدين. نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفق الجميع لما يحب ويرضى.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٥٠)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فهرس الموضوعات